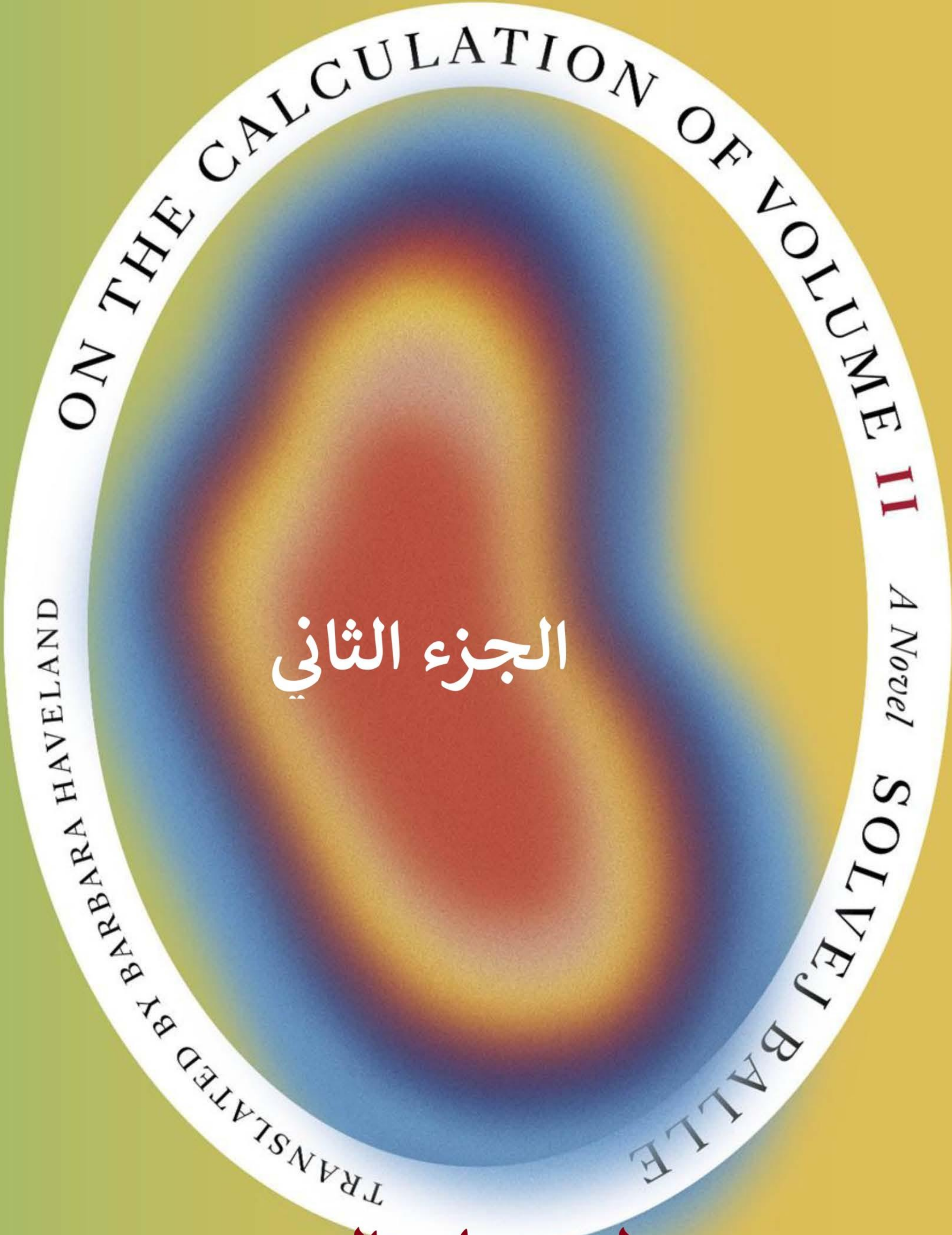
On The Calculation Of Volume

مترجم



حول حساب الحجم

للروائية الدنماركية سولفي بالي

رواية "حول حساب الحجم"

الحائز على جائزة المجلس الشمالي للأدب

للكاتبة الدنماركية سولفي بالي

الجزء الثاني

ماذا كنت أتخيل؟ هل كان الزمن كدوامة يمكن للمرء أن يقفز عليها وينزل منها؟ أم السنة كنهر يجري تحت يوم الثامن عشر من نوفمبر؟

أجلس بجوار النافذة في الغرفة رقم ١٦ من فندق دو ليسون. تراكمت لديّ أيام. ٣٦٥ يومًا من شهر نوفمبر. ولكن ما فائدة ذلك؟ كأنّ كومة من أيام الخريف المتطابقة تُشكّل عامًا. وما فائدة التجوال في نهاية العام وأنا على وشك القفز؟ أو الغوص؟ عام من الانتظار، ثم يأتي الثامن عشر من نوفمبر من جديد، فأتمكن من التحرر من دائرة التكرار من حيث دخلت؟ هل هذا ما تخيلته: الثامن عشر من نوفمبر بأبواب مفتوحة وعبور حرّ إلى زمن مألوف؟ ربما. لكن الأمور لا تسير هكذا.

أتجول في يوم الثامن عشر من نوفمبر. أبحث عن مخرج، لكن لا مخرج. أبحث عن اختلافات، لكن لا اختلافات. إنه اليوم نفسه، والآن لا أدري كيف ظننتُ أن تحت كل أيامي يكمن عامٌ عاديٌّ مع يومٍ جديدٍ من الثامن عشر من نوفمبر يقترب ببطء. كما لو أن تسلسلًا زمنيًا أكثر صدقًا موجودٌ في مكانٍ ما في الأعماق، كما لو أن كل تكراراتي ليست سوى السطح، وأن العام الحقيقي قد لجأ إلى الاختباء تحت سلسلة من أيام الثامن عشر من نوفمبر. كما لو أن يوم الثامن عشر من نوفمبر سيظهر في نهاية العام ويعيدني. أو يمرّ، فيسمح لي بالقفز عليه وهو يتحرك، خارجًا من دوامة تكراراتي. كأن لوحًا خشبيًا سيطفو، في يوم 18 نوفمبر مختلف، لينقذني من بحرِ التكرار، قطعة خشب أتشبث بها حتى أصل إلى أرض صلبة، حتى أُقذف إلى الشاطئ في يوم 19 نوفمبر، في يومٍ أقرأ فيه جريدة جديدة مع قهوتي، وموظفة استقبال مختلفة، وصباحٍ بلا مطر. أو مطر غزير، أو فيضان، أو رعد، أو ثلج، أي شيء، طالما كان مختلفًا. كأن يومي 365 يُمثل نهاية سحرية، لا مجرد رقم في سلسلة لا تنتهي. كأن يومي 366 يُشير إلى بداية جديدة، يوم 18 نوفمبر جديد. يسمح بالمرور إلى اليوم 19. والعشرون. كما لو كان هناك مخرج، وليس مجرد يوم يمر فقط ليحل محله الثامن عشر من نوفمبر التالي، ثم الذي يليه مرة أخرى، لليوم 367 واليوم 368، وغدًا اليوم 369.

لو لم يحدث شيء، لما انتهى سيل الأرقام. لم يحدث شيء، وسيل الأرقام لا ينتهي. لم يأتِ يوم 18 نوفمبر جديد ومختلف، ولم يظهر تسلسل زمني أكثر دقة من الأعماق، ولم يمرّ أي طوق نجاة، ولم أُقذف إلى الشاطئ في 19 نوفمبر، ولا يوجد أي تغيير في الأفق.

استيقظتُ باكرًا أمس. كنتُ قد غفوتُ نومًا عميقًا بعد عودتي إلى الفندق، منهكًا من أيام الترقب والانتظار ليومٍ جديدٍ من نوفمبر. استيقظتُ فجأةً، ولاحظتُ على الفور العلبة التي تحتوي على عملة السسترتيوس الرومانية التي أهداني إياها فيليب موريل. كانت العملة

موضوعةً في حقيبتها بجانب وسادتي، وتذكرتُ ما حدث: كيف التقيتُ بفيليب، وكيف عدتُ معه إلى متجره. كيف أراني فيليب وماري شقتهما الجديدة. تذكرتُ تجولنا بين أغراض ساكنها السابق. أخبرتُهما بكل شيء: كيف تداخل الزمن، وكيف كنتُ أتمنى العودة إلى زمنٍ مألوف. لقد أرسلاني ومعي عملة السسترتيوس الرومانية في حقيبة.

نهضتُ فورًا، وارتديتُ ملابسي، ونزلتُ إلى مكتب الاستقبال. لم أكن أعرف الوقت، لكن الصحف كانت مُرتبة، وهي نفسها الصحف. من الثامن عشر. طازجة لم تُمس. في غرفة الإفطار، بدأت آلة القهوة بالعمل، والطاولات مُجهزة، والموظفون مشغولون بوضع الخبز والكرواسون على الأطباق وفي السلال. جلستُ، على أمل أن يكون هناك شيء مختلف عن أيام نوفمبر الأخرى، لكن لم يكن هناك أي اختلاف، وسرعان ما رأيتُ الصباح يُعيد نفسه. رأيتُ وجوهًا وإيماءات مألوفة. رأيتُ قطعة خبز تسقط على الأرض، هبوطًا خفيفًا. كان الثامن عشر من الشهر مرة أخرى. بالطبع كان كذلك.

طوال اليوم، من لحظة استيقاظي حتى خلودي إلى النوم تلك الليلة، كان كل شيء كما هو في كل الأيام الأخرى، يومٌ مليءٌ بالألفة، وعندما استيقظت هذا الصباح كان الثامن عشر من نوفمبر مرة أخرى. لا فرق. لقد انتقلتُ بسلاسة إلى السنة الثانية، أو بالأحرى: لقد وصلتُ إلى الثامن عشر من نوفمبر، رقم 368، في زمنٍ بلا سنوات، بلا

فصول، زمن بلا أسابيع أو شهور، لا شيء فيه سوى يوم واحد يتكرر باستمرار، ولا يسعني إلا أن أتخيل أنه سيستمر على هذا المنوال. لا أستطيع تخيل أي شيء آخر. إنه عيب لا يُمكن إصلاحه. لقد أصبح مزمنًا. الشيء الوحيد الذي يعود هو يومي. هناك صباح، وهناك مساء، وهناك ليل، ثم صباح آخر - نفس اليوم.

أجلس في الغرفة رقم ١٦ من فندق دو ليسون. لم أتناول الفطور اليوم. لم أتجاوز مكتب الاستقبال، ألقيت نظرة سريعة على الصحف ثم استدرت وعدت إلى غرفتي. لا أريد أن أرى قطع الخبز تتناثر على الأرض.

0.369

استيقظتُ اليوم قبل بزوغ الفجر بوقتٍ طويل. أيقظني طرفُ علبةِ السسترتيوس وهي تغرزُ في خدي. كانت لا تزال في كيسها بجانب وسادتي، لا بد أنني تدحرجتُ عليها أثناء نومي، لكنني الآن مستيقظ، نهضتُ، أنا في الخارج في عتمة الصباح، ولا يزال اليوم الثامن عشر. لم يحلّ التاسع عشر، ولم يحلّ العشرون، ولم يحلّ الحادي والعشرون، ولماذا يحلّ؟

كان الوقت مبكرًا جدًا للاستيقاظ، لكنني مع ذلك ارتديت ملابسي. انتعلت حذائي، وأغلقت أزرار معطفي، والتقطت حقيبتي من على الأرض، وقبل مغادرة الغرفة، أخرجت علبة السسترتيوس من الحقيبة الموضوعة على السرير، وأخرجت العملة من العلبة، ووضعتها في جيبي، وتركت العلبة والحقيبة على الطاولة. أخذت مفتاحي معي، ولم يكن هناك أحد في مكتب الاستقبال، وخرجت لأتمشى في الشوارع شبه الخالية في الظلام.

عدتُ إلى الفندق بعد ساعتين تقريبًا، بعد السابعة بقليل، حين كان الفجر قد بزغ. تناولتُ فنجان قهوة من البوفيه وصعدتُ به إلى هنا، وها أنا أجلس الآن على الطاولة الصغيرة في غرفتي. أعلم أن الثامن عشر من نوفمبر سيستمر، لا أدري ماذا أفعل حيال هذا اليوم، لكنني الآن أعرف ما ينتظرني. الثامن عشر من نوفمبر، هذا ما ينتظرني.

374

أتجول في شوارع مدينتي كل يوم. أعبر شارع شاميناد وأسير على طول ممر السيرك. أختصر الطريق عبر الساحة الصغيرة في أعلى شارع رينارت وأكمل سيري في شارع ألماجيست. أجلس في مقهى أو على مقعد في الحديقة.

لم يتغير شيء، وليس عليّ فعل أي شيء. لا توجد كتب لأشتريها، ولا مزادات لأحضرها، ولا أصدقاء لأزورهم. ليس لديّ نمط من الأصوات والصمت لأُنظّم يومي حوله، لا خطط لديّ، ولا تقويم. يمرّ الوقت، لكنه لا يفعل سوى أن يتدفق يومًا بعد يوم إلى عالمي، لا يذهب إلى أي مكان، ليس له محطات أو توقفات، فقط هذه السلسلة اللانهائية من الأيام.

أمرّ بمكتبات الكتب القديمة في المنطقة، لكنني لا أدخلها. أنظر إلى الكتب المعروضة في واجهاتها، أتردد للحظة، ثم أتابع سيري. أوسع دائرة بحثي عن شوارع أخرى. في شارع إيسوب، توقفت أمام مكتبة لم أكن أعرفها. راودتني رغبة في الدخول لإلقاء نظرة فاحصة على بعض الكتب المعروضة، لكنني بقيت في الخارج. ليس لي شأن هناك، إنها مكتبات من الماضي، ولم أعد أنا تي. وتي. سيلتر.

لقد مررتُ بمتجر فيليب موريل، ومرةً أو مرتين توقفتُ عند النافذة وألقيتُ نظرةً خاطفةً على المتجر. لا أفعل ذلك إلا عندما تكون ماري وحدها هناك، فأنا لا أريد أن يتعرف عليّ أحد، وأعرف متى يأتي فيليب ومتى يذهب، ولا أريد مقابلته.

ما زلت أحتفظ بالسسترتيوس. إنه في جيب معطفي، وقد وضعت ماري عملة أخرى على المنضدة. الليلة الماضية، عندما ذهبت إلى الفراش، نسيت أن أخرج العملة من جيبي وأضعها تحت وسادتي، ولكن عندما استيقظت هذا الصباح، كانت لا تزال هناك. أشعر بها وأنا أتجول في الشوارع. لو كان لدي كلب، لقلت إنني أتمشى مع الكلب. الآن، أنا أتمشى مع عملة رومانية. يا له من رفيق غريب!

يظهر ذلك جليًا في الشوارع. فراغٌ. كأن شيئًا ما قد اختفى. أشعر به في حصى شارع ديستير، وعندما أسرع عبر شارع ألماجيست. كتلةٌ متكاثفةٌ ذابت. تفاصيلٌ أقل الآن. يبدو الأمر ملموسًا، يكاد يكون ماديًا، كما لو أن حركة المرور قد خفت.

أشعر وكأنّ الشوارع خالية، وكأنّ الضوء والأصوات قد تغيّرت، وكأنّ المسافات بين المباني قد اتسعت، والشوارع قد امتدّت، لكنّني أعلم أنّ شيئًا لم يتغيّر، ما زال الناس موجودين، وما زالت حركة المرور مستمرة، لم يتغيّر لا الضوء ولا الأصوات. ببساطة، لم يعد لي أيّ شأن هنا. أسير في الشوارع نفسها، لكنّني أسير بدافع الروتين والعادة القديمة. في الماضي، كان لديّ دائمًا سبب وجيه للتواجد هنا، لكنّني الآن أشعر بأنّني زائد عن الحاجة. أتجوّل في المدينة بلا هدف سوى مجرّد مروري من يوم لآخر. أنا مجرّد إنسان يتجوّل في الشوارع، أو ربّما لست إنسانًا، ربّما أقرب إلى حيوان من نوع ما، لا صياد ولا فريسة، لا جائع ولا شبعان، مجرّد كائن يتجوّل جيئة وذهابًا.

استيقظت متأخراً اليوم، ولم أخرج إلا بعد الظهر. سلكت طريقاً مختلفاً عن طريقي المعتاد، لكنني شعرت مجدداً بذلك الشعور، بنوع من الفراغ، بإحساس بفقدان شيء ما.

بينما كنت أتجول في الشوارع، بدأت أشعر بدوار. كنت أرتجف، ونظرت حولي بحثًا عن مكان أذهب إليه بعيدًا عن الشارع، لكن بدا أنه لا يوجد مكان شاغر. لم تكن هناك أماكن واضحة، ولا مكان ألجأ إليه، حيث يمكنني الجلوس قليلًا. بحثت عن حديقة أو مقعد، لكن لم يكن هناك مكان لي. بدت الأماكن التي أرتادها عادةً مغلقة وغير مريحة. لم يكن أي من المقاعد أو كراسي المقاهي التي رأيتها مناسبًا لي. لم يكن هناك رصيف أو ممر مشاة يناسب خطواتي. شعرت بالغربة، كأنني غريب. لم أكن أنتمي إلى هذا المكان، ولم يكن بوسعي فعل أي شيء حيال ذلك.

في النهاية، دخلتُ مقهىً شبه خالٍ، وحاولتُ الجلوس على طاولة بجوار النافذة، لكنّ الكراسي بدت وكأنها تحاول إسقاطي. في البداية،

كان كرسي واحد فقط يبدو غير ثابت تحتي، فنهضتُ وأحضرتُ آخر وجلستُ، لكن بدا أن هناك خللاً ما في الطاولة. حركتُها قليلاً وحرّكتُ الكرسي قليلاً. شعرتُ بالحيرة والقلق، وعندما تمكنتُ أخيراً من تثبيت الطاولة، لم يكن هناك أحد ليأخذ طلبي، فغادرتُ المقهى وعدتُ إلى الشارع.

لم يُحدث ذلك أي فرق. بدت الشوارع مهجورة. بدا الجو وكأنه قد تغير، أصبح الهواء أرق، كما لو أن مادة ما قد تسربت من الأسفلت، فجعلته مساميًا، أو ربما كان تغيرًا طفيفًا في لون المباني، لا أدري. شيء ما قد اختفى، شيء له علاقة بالألوان، أو ربما بالأصوات، كما لو أن أحد عناصر العالم قد تلاشى فجأة، أو ربما كان أشبه بنوع جديد من الفراغ، وتر مجهول.

حاولتُ التخلص من هذا الشعور وأنا أسير في الشوارع. انعطفتُ عند الزوايا فوجدتُ شوارعَ مزدحمةً وأروقةً صاخبةً، وبدأ العالمُ تدريجيًا يعود إلى طبيعته. وصلتُ إلى الشاطئ، وعدتُ إلى العالم، وقضيتُ معظمَ فترةِ الظهيرةِ أتجولُ، محاولًا الابتعادَ عن هذا الشعورِ بالفراغ. مشيتُ عبرَ الحدائق، وعلى طولِ الممراتِ المرصوفةِ بالحصى، ومررتُ بالمقاعدِ وملاعبِ الأطفال، ولم أجلس في أيِّ مكان، إلا لبضعِ دقائقَ عندما حاولتُ الجلوسَ على مقعدٍ رطبٍ قليلًا بجانبِ النافورةِ في ممرِّ السيرك.

في وقت متأخر من بعد الظهر، عدتُ إلى الفندق، واشتريتُ شطيرة من مكتب الاستقبال، وصعدتُ إلى غرفتي. وبينما كنتُ أصعد الدرج، نظرتُ إلى نفسي وشعرتُ أن مظهري يبدو مُهترئًا بعض الشيء: شيءٌ مُمزق، مُهمل، مُهترئ، لكنني لم أستطع تحديد ماهيته. نظرتُ في المرآة وأنا أسير في الممر المؤدي إلى غرفتي. لم تكن ملابسي هي المُشكلة، فهي لم تكن أرثى حالًا مما كانت عليه في آخر مرة كنتُ فيها هنا، فقد ارتديتُ نفس الحذاء في العديد من رحلاتي خارج الغرفة الإضافية في كليرون، لكنه لم يكن يبدو مُتهالكًا بشكلٍ خاص. كنتُ أرتدي فستانًا، مختلفًا عن فستاني في آخر مرة كنتُ فيها هنا، فقد تركتُ القديم في كليرون، وهذا أحدث، ولم يكن به أي عيب، وكان معطفي يبدو كما هو دائمًا. ربما أحتاج إلى معطف جديد، لكن الأمر ليس واضحًا جدًا. ومع ذلك، كان لديّ مظهرٌ يوحي بأنني كنتُ حبيسة في علية منزل: بالية، مُغبرة، ومنسية.

أعلم، بالطبع، أن الأمر يقتصر عليّ وحدي: أنني ضللت طريقي. لا يوجد عنصر مفقود. لا يوجد شعور جديد بالفراغ. ببساطة، لا أجد أي سبب يدفعني للسير في الشوارع. أمرّ أمام المتاجر دون أن أشعر برغبة في دخولها. أعبر الشارع أو أتجول في الحديقة فأشعر بعدم الارتياح،

وكأنني زائدة عن الحاجة، رثة، خاطئة. لم أعد تارا سيلتر، بائعة الكتب العتيقة ذات العين الثاقبة للتفاصيل والحس المرهف لـ

أعمالٌ قيّمة. لستُ تارا سيلتر في عملها. لستُ مشتريةً لشركةٍ تُدعى تي آند تي سيلتر. لقد رحلت: تارا سيلتر التي كانت تدخل للاستفسار، والتفاوض، والمعاينة، والشراء، والاتفاق، والتنظيم. إنها تارا سيلتر، بائعة الكتب العتيقة، التي رحلت، إنسانةٌ عاملة، صاحبة عملٍ مزدهرٍ ونامٍ، تاجرةٌ لها زبائنها وزملاؤها. إنها تارا سيلتر التي كانت تتطلع إلى المستقبل، التي رحلت. إنها تارا سيلتر التي كانت تحمل آمالاً وأحلاماً، التي اختفت من المشهد، وهُجرت من العالم، وسقطت من على الحافة، وانسكبت، وجرفها تيار الثامن عشر من نوفمبر، وضاعت، وتبخرت، وجرفها البحر.

عدتُ إلى غرفتي، ووضعتُ شطيرتي على الطاولة، وخلعتُ معطفي وحذائي، ولكن بعد قليل، وبينما كنتُ أحاول تناولها وهي جافة بعض الشيء، انطلق جرس إنذار الحريق في الفندق. استغربتُ للحظة، لأنني لم أسمع صوت الإنذار من قبل، ولكن لا بد أن ذلك كان لأنني لم أكن في الفندق بعد الساعة الخامسة مساءً في أي يوم آخر. لم يُقلقني الإنذار لأن الفندق لم يحترق، ولم أرَ أي أثر للحريق، فبقيتُ في مكاني، وبعد لحظات توقف الإنذار. نهضتُ وذهبتُ إلى النافذة. كان هناك أناس في الشارع. فقلتُ في نفسي: "إذن، الثامن عشر من نوفمبر يشهد أيضًا إنذارًا كاذبًا في فندق دو ليسون. وماذا في ذلك؟" لا شيء. رأيتُ سيارة إطفاء تقترب، ولكن لم يكن هناك أي أثر للحريق، ولم يكن خرطوم المياه ممتدًا. كان رجل إطفاء يتحدث بهدوء مع موظف الاستقبال، فجلستُ مرة أخرى وأخذتُ قضمة أخرى من شطيرتي.

لم أدرك معنى ذلك إلا بعد فوات الأوان: أنني لم أعد متيقظًا، وأنني لم أعد أبحث عن أي أمل في النجاة، وأنني لم أفكر أبدًا في احتمال احتراق فندق دو ليسون، وأن هذا اليوم كان من الممكن أن يكون يوم 18 نوفمبر مختلفًا، وأن هذه كانت قفزة إلى زمن جديد، وأن الفندق كان على وشك الاحتراق، وأنني كنت في خطر في اللحظة التي عاد فيها الزمن إلى مساره الطبيعي. افترضت ببساطة أنه إنذار كاذب.

قبل أيام قليلة، كنتُ سأقفز من مكاني، مستشعراً التغيير، لكنني جلستُ هناك مع شطيرتي نصف المأكولة ولم أفعل شيئاً، ولا تزال الشطيرة هنا على الطاولة بجانبي، ليس لأنها تُركت على عجل بسبب الإخلاء، بل لأنها جافة قليلاً عند الأطراف. لم أعد

أؤمن بالتنوع، ولا أبحث عن الاختلافات، وحتى جهاز إنذار الحريق لا يمكنه تغيير توقعاتي ليوم يتكرر مراراً وتكراراً.

ما زلت أسمع أصواتًا في الممرات خارج باب غرفتي، لكن الرصيف المقابل للفندق كان خاليًا من الناس منذ قليل. آخر نزلاء الفندق يعودون إلى غرفهم، وغادرت سيارة الإطفاء المكان سريعًا، ولا يوجد أي خطر. إنه يوم هادئ في فندق دو ليسون. لم يُصب أحد بأذى. أجلس في غرفتي، أنا بأمان، وتوماس بأمان في منزله في كليرون، حيث يقيم في الثامن عشر من نوفمبر. تبلل بالمطر وعاد إلى منزل بارد، لكن لم يحدث شيء آخر. عاد إلى غرفة معيشته، أشعل نارًا، وأحضر كراثًا من الحديقة وبعض البصل من سقيفة الحديقة. لا داعي للقلق. لدي زوج يعتقد أن لدي فرصة أفضل لإيجاد حل بنفسي. لدي أصدقاء لا يعتقدون أن بإمكانهم المساعدة، وربما لا يصدقونني، لكنهم أرسلوني ومعي عملة رومانية من فئة سيسترتيوس في حقيبة. مهمة تارا سيلتر الأخيرة: صعود الدرج والخروج بكيس قمامتها. والآن أسير في الشوارع، زائدة عن الحاجة، خارج دائرة الحركة. ليس الأمر كارثيًا. ليس لا شيء، ولكنه ليس كثيرًا أيضًا.

0.379

والآن، وقد أصبح يوم الثامن عشر من نوفمبر عبئًا ثقيلًا: أيامي بسيطة، أتردد على شوارع مألوفة، لكنني لا أنتمي إليها. أسمع وقع أقدام خلفي. ينتابني القلق. أنظر حولي. يخطر ببالي أن هناك من يريد مني شيئًا، وأن ما يريده ليس خيرًا. لكن لا أحد خلفي، أسمع وقع أقدامي، حتى صوتها يبدو غير ذي صلة. أسير في مكان كان من المفترض أن يكون خاليًا. المكان الذي أشغله كان من المفترض أن يكون شاغرًا، لكن لسبب غامض، استولت عليه تارا سيلتر.

حولي، الناس ذاهبون إلى أعمالهم. يفتحون متاجرهم ويتجهون إلى محطات المترو. يتحركون في صفوف منتظمة، يتبعون التعليمات، ينساقون مع التيار، لكنني لا أشعر بهذا الانجذاب، إنه خيط أفتقده، شيء لست جزءًا منه. لا أستطيع التمسك به. أو ربما هو شيء يجرفهم في الشوارع، تيار يحملهم.

على طول الطريق، لكن هذا التيار لا يصل إليّ. أو ربما هو آلية داخلية. شيء ما يوجه أقدامهم في الشوارع، دافع داخلي لا أملكه، نابض لا يمكن شده، آلية مفقودة. لا أعرف إن كانوا يُسحبون، أو يُحملون مع التيار، أو إن كانت آليات داخلية تدفعهم على طول الشوارع، لكنني أعرف أنه، مهما كان الأمر، لا يؤثر عليّ.

أنا محاطة بأناس يتحركون. فجأةً، يسيرون جميعًا في نفس الاتجاه. أنظر حولي، وبالفعل، هناك محطة مترو، وإليها يتجهون. صفوف من الناس تشير إلى الطريق المؤدي إلى الأسفل. أنا خارج هذه الصفوف.

إذا اقتربتُ كثيرًا من صفوفهم، سأعيقهم. أنا جسم غريب، خطأ. أنا تارا سيلتر، تائهة في الثامن عشر من نوفمبر. لستُ تائهة ومنبوذة، أنا فقط تائهة. لقد خرجتُ من هذا اليوم، لكن هذا ليس مأساويًا، وليس كوميديًا، لقد خرجتُ ببساطة من هذا العالم، لم أُصب بأذى من السقوط، نهضتُ ونفضتُ بعض الحصى عن ركبتي، هذا كل شيء.

اسمي تارا سيلتر. أجد نفسي في الثامن عشر من نوفمبر، يحيط بي صدى. أنا كائن غريب لا ينبغي أن أكون بين أناس ذوي هدف، بين أناس يفترض بهم المضي قدمًا. أنا أعرقِل الناس الذين يحاولون الاهتمام بشؤونهم.

أتسلل من بين الطوابير المزدحمة، وأتنحى جانبًا. أكتشف شوارع لا أعرفها، وأسلك زوايا غير مألوفة، وأصادف مقاهٍ لم أزرها من قبل. يتردد صدى صوتي في أذني، رنين أجوف مميز حين أسحب الكرسي من طاولة في الزاوية وأجلس. أضع حقيبتي على الكرسي المجاور. الحقيبة كبيرة بما يكفي لتمنحني مظهر المسافر، لكنها صغيرة بما يكفي لأحملها معي طوال اليوم. تجعلني أبدو وكأن لديّ أعمالًا عليّ إنجازها، لكنني ما زلت أشغل حيزًا، مع أنني أجد بين الحين والآخر ركنًا من العالم أجلس فيه للحظة. أتنفس. أحافظ على هدوئي.

أستطيع أن أحسب أيامي، وأفعل. أستطيع أن أكتب عنها، وأفعل. لديّ دفتر صغير يحوي خطوطًا وأرقامًا. لديّ ملف مليء بملاحظات من الثامن عشر من نوفمبر، لديّ نقود وبطاقات ائتمان. لديّ قلم منقوش عليه "صالون الأنوار السابع"، أستطيع أن أكتب ما أشاء، أستطيع أن أذهب إلى أي مكان أشاء، لا ينقصني شيء.

أسير على حافة هاوية، أعدّ الأيام وأدوّن ملاحظات. أفعل ذلك لأتذكر. أو لأربط الأيام ببعضها. أو ربما أفعل ذلك لأن الورقة تتذكر ما أقول. كما لو كنت موجودًا. كما لو أن أحدهم يستمع.

كنتُ أظن أنني سأعود. إلى كليرون سو بوا. إلى توماس. لو لم يحدث شيء. لو لم يكن للسنة معنى. لو لم يكن هناك مخرج في نهاية العام. ربما كنتُ سأزور فيليب وماري أولًا. أتخيل أنني كنتُ سأطلب نصيحتهما، وأننا كنا سنجلس حول المنضدة، وكانا سيقترحان حلولًا مختلفة، كل حل أغرب من سابقه. وأننا كنا سنجد الموقف مضحكًا. كان لا بد أن يضحكا. كان لا بد أن نتحدث عن الغبار والحروق بينما نضحك على غرائب الزمن. تخيلتُ، على ما أظن، أنهما سيتمكنان من مساعدتي، وأنهما سيحاولان، وأنهما سيتظاهران بالمحاولة. وأنهما على الأقل سيضحكان. وإذا لم يكن هناك مخرج، فربما كنتُ سأستقل

القطار عائدًا إلى كليرون. كنتُ سأسير تحت المطر، وكنتُ سأخبر توماس أنني عدتُ لأن الزمن توقف، وأنني حاولتُ القفز عائدًا، وأنني كنتُ على وشك القفز، وأن هذا ما أردتُه: العودة. إلى توماس، إلى فيليب وماري، إلى الناس في الشارع، إلى التيارات والخطوط، إلى الإيقاع المشترك، إلى تارا سيلتر، بائعة الكتب العتيقة ذات الحسّ المرهف للورق والعين الخبيرة بالتفاصيل. لم يكن الأمر أنني لا أرغب في السير وفقًا لعصرهم، بل أنه لم يكن بوسعي فعل شيء. لقد حاولت.

لكن ربما أنا وحيدٌ فحسب. ربما لا أنتمي. ربما لا يمكن أن يكون الأمر غير ذلك. مع ذلك، أحاول. أستجمع قواي، وأحيانًا عندما أنضم إلى حشدٍ من الناس في الشارع، إذا مررتُ بموقف حافلاتٍ لحظة وصولها، ووجدتُ نفسي فجأةً وسط مجموعةٍ من الناس ينتظرون الصعود، وإذا اتبعتُ الحشد إلى الحافلة، أو إذا اقتربتُ من الاتجاه الصحيح وسرتُ بالسرعة المناسبة مارًا بمحطة مترو، فإن إيقاعي يتناغم فجأةً، فأصبحُ منسجمًا، وأحيانًا أشعر وكأنني أُحمل، أصعد وأنزل، أشعر وكأنني أُوجَّه، وكأنني أُفهم، وكأنني أتلقى نصيحة. إذا أصغيتُ.

عادةً لا يدوم الأمر طويلاً، فما إن يفرغ الباص فجأةً وأتبع الحشد إلى الرصيف، أو حين أصل إلى الشارع في مكان غريب، حتى أجد نفسي وحيداً من جديد. يتفرق الناس، ويعود صدى خطواتي على الرصيف، الذي كان قد ضاع وسط الزحام، ليتردد صداه من حولي. ينفتح الشارع، وكان للحشد الذي ساعدني هدفٌ، هدفٌ استعرته للحظة، لكن ها أنا ذا الآن، وقد تفرق الناس، وانتشروا وركبوا وسائل نقل أخرى، ودخلوا المباني أو سارعوا إلى شوارع أخرى، وأنا أيضاً أسير، وإن لم أكن بنفس السرعة، بل أبطئ من خطواتي، وأتجول في الشوارع، وسرعان ما أجد نفسي عائداً إلى فندق دو ليسون.

مع ذلك، أخرج مجدداً في اليوم التالي. أحزم حقيبتي، وأتجول في الفراغ، لكنني مستعد للمتابعة إن أرشدني أحدهم، وإن وجدت نفسي فجأةً منجذباً إلى تيارٍ ما، أو إلى اتجاهٍ ما، فإنني أتبعه. الأمر ليس صعباً. عليك أن تكون مستعداً، ثم يحدث الأمر بسلاسة. كأنك تقف على شاطئ البحر، الماء بارد، وأنت مستعد، تريد القفز لكنك تتراجع، ثابتاً في مكانك، كما لو كان هناك حاجز بينك وبين الماء، ثم يأتي شخص آخر مسرعاً ويقفز مباشرةً، فتتبعه، منجذباً إلى تياره، تدفع نفسك، وفجأةً تجد نفسك في الماء، تغوص، تسبح في الماء البارد، شديد البرودة في البداية، ثم فجأةً، لم يعد بارداً على الإطلاق. لقد زال كل التردد، لم تكن منجرفاً، لقد ركضت إلى الماء بمفردك، لقد انحنيت تحت الماء بمفردك، لقد تحملت مسؤولية الجري والغوص والسباحة،

لم تعد بحاجة إلى أن يتم توجيهك في أي اتجاه، أنت في حركة ويمكنك الاستمرار كما لو أنك لم تتعثر على الإطلاق.

هكذا أقضي أيامي: أنغمس في الزحام، أترك نفسي أنجرف مع التيار، أتحرك، أنساق مع التيار، ولكن في النهاية، بعد أن أتبع التيارات، بعد أن أركب الحافلات والقطارات وأترجل منها، بعد أن أخرج من محطات المترو أو أصل إلى الرصيف عند موقف الحافلات، أفقد زخمي. أبطئ، أتوقف. يبدو أن هناك خللاً ما في الآلية التي من المفترض أن تُحركني. شرارة تشتعل، لكنني أتوقف، أبطئ، أتراجع.

انعطفتُ إلى جانب الطريق، لم أستطع مواكبة السرعة، فاتجهتُ نحو شوارع أكثر هدوءًا. وهذا جيد. لم أكن تائهًا، ببساطة وجدتُ مقعدًا أتوقف عنده لأجلس قليلًا، أو بدأتُ بالعودة سيرًا على الأقدام، توجهتُ إلى الفندق، وبحلول نهاية اليوم تباطأت وتيرة سيري تمامًا، ذهبتُ إلى الفراش، وفي اليوم التالي وجدتُ حشودًا جديدة من الناس لأختلط بهم.

387

اتسعت دائرة معارفي. في أحد الأيام وصلتُ إلى غابة بولونيا، وفي يوم آخر ذهبتُ إلى فونتينبلو، والآن أنا في قطار متجه شمالًا. ليس لدي تذكرة لأنني ببساطة اتبعتُ حشد الناس، وفجأة وجدنا أنفسنا نتجه نحو القطار. كنتُ أتبع زحام الصباح. عند محطة الحافلات، انضممتُ إلى صف الركاب لأستقل حافلة أوصلتني إلى محطة غار دو نورد، ثم حملتني موجة من الناس عبر المحطة، والآن أنا في قطار متجه إلى ليل. هناك ركاب في القطار، وهم في طريقهم، لا أعرف إلى أين أو لماذا، لكننا سننزل قريبًا لأن خط ليل-أوروبا هو نهاية الخط.

حقيبتي على الأرض بجانبي، أصبحت أخف وزنًا الآن لأن كتبي وملابسي الإضافية وأدوات النظافة الشخصية ما زالت في الفندق. مع ذلك، أخذت مفتاح الغرفة رقم ١٦ معي، لكنني لن أحتاجه. مفتاح منزل توماس في كليرون موجود أيضًا في حقيبتي. سيكون من السهل العودة. أعرف الطريق. كل هذا مألوف لي. أعرف المحطات، لكن هذا ليس الطريق الصحيح.

388#

نزلتُ في محطة ليل. تحوّلت حركة المرور الصباحية الباكرة إلى حركة مرور منتصف الصباح، وتضاءلت أعداد الناس، وكنتُ آخر راكب يغادر القطار، ببطء وتردد، ببطء شديد حتى توقفتُ تمامًا على الرصيف. فجأةً، لم يعد حولي أحد، ولم أكن أُنقل إلى أي مكان. بعد ذلك بوقت

قصير، غادرتُ المحطة، ووجدتُ فندقًا قريبًا، ثم تجولتُ في المدينة. أردتُ شراء فرشاة أسنان، لكنني وجدتُ نفسي فجأةً أمام متجر أدوات مكتبية كنتُ قد اشتريتُ منه دفترًا بغلاف قماشي أخضر لم أستخدمه قط.

دخلتُ إلى الداخل، وفي نفس المكان السابق، كانت هناك كومة من الدفاتر ذات الأغلفة القماشية الخضراء. قلتُ لنفسي: لا بدّ أن يكون أحدها لي، فاشتريتُ واحدًا، ربما هو نفسه. ربما كان مجرد دفتر يشبهه.

مساء أمس، وضعتها تحت وسادتي مع فرشاة أسنان جديدة ومعجون أسنان، وما زالت جميعها هناك. استيقظتُ باكرًا، وتناولتُ فطوري في الفندق، ولم يُسقط أحد قطعة خبز، ولم تكن هناك صحف صباحية، ولا أفتقدها. لا أفتقد الأشياء التي تركتها في الغرفة رقم ١٦، أشعر بخفةٍ بدون كتبي، ويمكنني الاكتفاء بالملابس التي أرتديها. خطواتي خفيفة، بلا وزن، تكاد تكون فارغة.

389

الدفتر في حقيبتي على المقعد المجاور، ينتظر استخدامه، لكنني لم أخرجه. إنه ملقى هناك بخطوطه بينما أكتب على ورقة من ملفي، لأنني ما زلت أملك ورقًا. لدي قلمي وحقيبتي. لدي مقعدي في القطار، ومعطفي، وهاتف توقف عن العمل مجددًا.

حولي أناسٌ يحملون معاطف وحقائب وهواتف. أستطيع أن أسمع أن بعضهم يعيش حياةً طبيعية، ولديهم أماكن يذهبون إليها وأشياء يفعلونها. لا أدري إن كانت حياتي طبيعية، لكن ليس عليّ فعل شيء ولا مكان أذهب إليه. مع ذلك، لديّ آذانٌ صاغية، وإذا أراد المرء أن يستعير بعضًا من أحاديث رفاقه في السفر: حياتهم وأماكنهم، وأمورهم. أو حتى يسرقها، لأنه يشعر وكأنه يأخذ شيئًا منهم. كأنه ليس من المفترض أن يصغي. إنهم يعطونني ما يقولون، لكن الأمر لا يبدو كهديةٍ حقيقية.

رجلٌ مشغولٌ بترتيب مؤتمرٍ أو اجتماعٍ سنوي، وهناك خلافٌ حول هذا الأمر، وهو يُجري اتصالاتٍ هاتفيةً ويشرح وجهة نظره: يجب انتخاب مجلس إدارةٍ جديد، ويجب اتخاذ قرارات، وهو يسعى جاهداً لخلق نوعٍ من التوافق أو الانسجام، تماماً كقائد جوقةٍ موسيقيةٍ عليه أن يجعلَ الجوقة تُغني بتناغمٍ دون أن يُدرك أحدٌ أنه قائدها. يبدو الأمر مُعقداً، فهو يتصل بشخصٍ تلو الآخر، ونجلس حوله في القطار، ركاباً في جوقته الموسيقية، نستمع إليه لأنه من المستحيل ألا نفعل. أعتقد أنه يجب أن

له علاقة بنادي الإبحار. يتحدث عن شراء القوارب، وعن جذب المزيد من الشباب، ويقول إنه يريد تفعيل عضوية النادي للناشئين. يتحدث عن التمويل والرعاية، وعن خطط طموحة، وعن نادٍ. لا أعرف إلى أين يتجه. نحن بعيدون كل البعد عن البحر، وقد أثار فضولي، يتحدث إلى أشخاص مختلفين، ويعطيهم تعليمات حول ما يجب أن يقولوه في الاجتماع. لا يمكننا التأكد من النتيجة، لكنني أفكر الآن في اللحاق به، لأن الاجتماع هذا المساء، وسيصل قبل بدايته، كما يقول.

هو في طريقه إلى دونكيرك. هكذا أخبر الموظف المسؤول. عليه تغيير القطار قريبًا، وأشعر برغبة في الذهاب إلى شاطئ البحر. أشعر برغبة في الإبحار، أشعر برغبة في السفر على متن العبّارات أو المراكب الشراعية، إلى الماء، إلى الأفق.

لكن فجأةً، وضع هاتفه جانبًا وانشغل بجهاز الكمبيوتر، فخفت حماسته قليلًا، ثم التفتُّ إليه: سمعتُ امرأةً تُحضِّر العشاء مع ابنها، لا أدري لماذا ظننتُ أنه ابنها، لكنني شبه متأكدة. سيُحضِّران طبق دجاج سبق أن أعدَّه ابنها. تتطلب الوصفة فلفل هالبينو. كان يبحث عن مرطبان هالبينو. في الثلاجة. ربما على الرف العلوي. أو في بابها. وجده أخيرًا. وهكذا تمَّ إنقاذ العشاء.

390

رافقتهم إلى دونكيرك، وغيرت القطارات ووصلت إلى الميناء، لكن لم أصل إلى هناك. فقدتُ أثر قائد الجوقة قبل وصولنا بوقت طويل، لكنني وجدت فندقًا بالقرب من الميناء. كان يطل على البحر الهادئ الرمادي. كنت قد فقدتُ رغبتي في حضور الاجتماعات السنوية وركوب القوارب حينها. أدركتُ أنني كنت محظوظًا في ليل. كان من الممكن أن أستيقظ في غرفة فندق مشغولة، حيث نام أحدهم ليلة السابع عشر، ثم يستيقظ هو نفسه في سريري صباح الثامن عشر. هذا من حيث المبدأ، لو سارت الأمور كما هو متوقع. لحسن الحظ، سجلتُ دخولي مبكرًا، ولا بد أنني حصلت على غرفة خالية ليلة السابع عشر من نوفمبر.

وصلتُ إلى فندق دونكيرك في وقت متأخر من بعد الظهر، وطلبتُ هذه المرة غرفةً لم يسكنها أحدٌ مؤخراً، وبالتالي لم تُنظّف منذ يوم أو يومين. أخبرتهم أنني أعاني من حساسية تجاه بعض مواد التنظيف، وأنني على استعداد لدفع مبلغ إضافي.

تحقق موظف الاستقبال من الأمر وأخبرني أن الغرفة خالية. لم يكن هناك أحد في الغرفة التي أُعطيت لي خلال الأيام الثلاثة الماضية. لحسن الحظ، كان موسمًا غير سياحي، كما قال. بحثت عن غرفتي،

ودخلت، وجلست بجوار النافذة المطلة على الميناء حتى بدأت أشعر بالبرد لعدم وجود تدفئة في الغرفة. استلقيت على السرير، وتغطيت باللحاف وغطاء السرير الأزرق المخطط، وسرعان ما غفوت.

استيقظتُ هذا الصباح وحيدةً على صباحٍ رمادي باهت، والآن أواصل رحلتي لأنني وجدتُ قطارًا، قطارًا محليًا، ونتجه به نحو الداخل مجددًا. نتوقف في محطات صغيرة، يصعد الناس وينزلون، المقاعد مغطاة بقماش منقوش، وأجلس هنا وحقيبتي على المقعد المجاور، لقلة عدد الركاب.

اليوم، لم تكن محادثة هاتفية، لكنها كانت أشبه بها، لأن أحدهما يتحدث بينما الآخر صامت. الصامتة ذاهبة لرؤية حفيدها المولود حديثًا، هذا كل ما استطاعت قوله، لكنها الآن تستمع فقط. ليس لديها قصة ترويها، بل الرجل الذي معه الكلاب. تستمع المرأة بأدب، وتومئ برأسها بين الحين والآخر. يجلسان متقابلين، بينهما طاولة، وكلبان كبيران، أحدهما رمادي اللون، والآخر مرقط، مستلقيان على الأرض تحت الطاولة. يقول صاحب الكلب المرقط إنه حزين دائمًا، يكاد يكون مكتئبًا. حتى قبل بضعة أشهر، كان لديه كلب آخر، وعندما مات، انكسر قلب الكلب المرقط. بعد بضعة أسابيع، أحضر الكلب الرمادي إلى المنزل. كان من المفترض أن يكون صديقًا جديدًا للكلب المرقط، لكنهما ليسا صديقين بعد.

أظن أنهم لاحظوا أنني أستمع إلى حديثهم، لكن ما لا يرونه هو أنني أدون ما دار بينهم. لدي طاولة أمامي، ولا يمكننا رؤية بعضنا إلا إذا انحنيت قليلاً إلى الأمام ونظرت إليهم. تشعر المرأة التي كانت ذاهبة لرؤية حفيدها أنني أستمع. تنحني إلى الأمام وترمقني بنظرة خاطفة، وكأنها ترغب في حماية رفيقها في الرحلة، وحجبه عن آذان فضولية.

لكنني أتصفح أوراقي وألقي نظرة على هاتفي، فتفهم أنني مشغولة بشيء آخر. لماذا أستمع إليهم؟ شابة تحمل ملفًا أسود، وأوراقًا، وحقيبة كتف كبيرة بجانبها، وهاتف جوال. الهاتف غير متصل بالعالم الخارجي، لكنهم لا يرون ذلك.

لطالما اعتقد الرجل أنه الصديق المُقرب لكلبيه. في الليل، عندما كان يخلد إلى النوم، كان الكلبان يستلقيان على جانبيه: كلبه العجوز على جانب، والكلب المرقط بجانبه على الجانب الآخر. كان يشعر بالحب. انحنيتُ قليلاً إلى الأمام والتفتُّ قليلاً. رأيتُ من تستمع إليه تُومئ برأسها. إنها تُدرك ذلك تماماً.

لكن عندما نفق الكلب الأكبر سنًا، لم يعد الكلب المرقط يرغب في النوم بجانبه على السرير. قال إنه كان في حالة حزن شديد، لا يمكن

مواساته. حاول أن يجعل أحد الكلبين يصعد إلى السرير، رغبةً منه في مواساته، فقد ظن أنه يحبه، وأنه صديقه المقرب.

لم يكن كذلك. استلقى الكلب على سريره لأنه كان أقرب مكان يمكنه الوصول إليه من الكلب الآخر. قال صاحب الكلب: "كنتُ فقط أعترض طريقه". وأضاف: "لقد تحملني". لكن الكلب المرقط كان يُفضّل حقًا أن يكون وحيدًا على السرير مع الكلب الآخر، الكلب الذي مات. قال: "كنتُ فقط أعترض طريقه"، وعندما مات الكلب العجوز، لم يعد لدى الكلب المرقط أي سبب للاستلقاء على السرير. فلجأ إلى بطانية في غرفة المعيشة.

عندما أدرك أن كلابه لم تكن تحبه على الإطلاق، اقتنى الكلب الرمادي، وهو كلب راعي، كما قال وهو ينحني ويمسح على فراء الكلب الرمادي الطويل والمموج. وبهذه الطريقة على الأقل سيكون للكلب المرقط صديق. الآن ينامان في سلتيهما في غرفة المعيشة. أما هو فينام وحيدًا في سريره.

أومأ المستمع برأسه لكنه لم ينطق بكلمة، لأن الرجل ذو الكلاب لم يكن يبحث عن تعاطف، بل كان يروي قصته فحسب. قال إن الشيء الوحيد الذي أزعجه هو اعتقاده أن كلابه تحبه لدرجة أنها لن تفارقه طوال الليل. لقد خُدع. أي أن غروره خدعه، لأن كلابه لم تُبدِ له أي حب. كان الكلب العجوز مستلقيًا هناك فحسب، ربما طلبًا للدفء، أو ربما بدافع العادة، أما الكلب المرقط فلم يُبدِ أي تعاطف معه.

لم أكن الوحيد الذي يستمع. عندما انتهى الرجل من حديثه، أدار ركاب آخرون أنظارهم بسرعة، وتنهدت امرأة تجلس على بعد مقعدين تنهيدة عميقة وهي تحدق في الريف. أما أنا، فبعد انتهاء قصته، انشغلت بأوراقي. لا أظن أن من كان يستمع إلى صاحب الكلاب كان يعرف ماذا يقول، أو ربما انتهى الحديث ببساطة، والآن ينظرون من النافذة بينما يربت الرجل الذي معه الكلاب على الكلب المرقط الذي نهض تحت الطاولة.

395

لم أعد منجرفاً مع حشود الناس. لست بحاجة إلى ازدحام لأغوص فيه. لست بحاجة إلى وسائل نقل مكتظة. بدأت أستمتع بحركة المرور في منتصف الصباح، مع تفرق المسافرين، وعربات القطارات العادية، والركاب البطيئين الذين يحملون أكواب القهوة وأكياس الورق البني.

أستمع. أجلس مع كتاب أو أوراقي، وأحيانًا أدون شيئًا ما، ليس دائمًا، ولكن في عربة القطار، مع الركاب المنتشرين هنا وهناك، على طاولات

صغيرة أو ملتصقين بالنافذة، يسود جو من الألفة بيننا، نتبادل التحية، إيماءة خفيفة، نصبح معارف للحظة، ثم ننصرف. لدينا هواتف أو كتب أو أوراق لنقرأها. لدينا صحف أو سماعات رأس وأجهزة كمبيوتر محمولة.

هناك امرأة تعرض منزلها للسرقة، وهي الآن تتحدث عبر الهاتف، تروي قصتها. لا بد أنها روتها عدة مرات حتى الآن، لأنها واضحة تمامًا. لقد صقلتها وأحكمت روايتها، فهي متماسكة، لا تتشتت، ولا تتلعثم، ولا تبدو عليها علامات الغضب أو الصدمة.

تتوقع منا أن نستمع، لكنها غير متأكدة من ذلك. تنظر حولها، لا يوجد الكثير منا، ربما أربعة أو خمسة على مسمع منها. نحن نعبر الحدود، وهي تتحدث الفرنسية، لكننا سنكون قريباً في ألمانيا، ليس لديها طريقة لمعرفة من منا يتحدث لغتها، لكن هذه قصة نرحب بسماعها.

لم يسمع المستمع عبر الهاتف هذا من قبل، لوجود مقدمة وعدم إغفال أي تفصيل. تفاصيل تتعلق بالاستراحة-

في: زجاج في الردهة، من لوح زجاج الباب المحطم، وفي غرفة ابنتها، غرفة ساندرينا، كما تقول، لا بد أن ساندرينا هي ابنتها، وقد قُلِبت غرفتها رأسًا على عقب. علب ساندرينا الصغيرة، لقد فتشوا كل مكان. لكن ليس في علبة البسكويت، وكل أموال عطلتها كانت في علبة البسكويت، لذلك لم يعثروا عليها. كان هناك نبرة انتصار خافتة في صوتها تجعلني أعتقد أنها كانت عطلة باهظة الثمن، وأنه لا بد من وجود الكثير من المال في علبة البسكويت. ثم هناك وقفة. من الواضح أن القصة قد انتهت. كانت تفاصيل علبة البسكويت هي الخاتمة، معلقة في الهواء للحظة، خاتمة غريبة، لا تبدو كنهاية محادثة، بل أشبه بنفخة موسيقية، انتصار. هناك صمت، لكن من الواضح أن مستمعتها لا تقول شيئًا لأن المرأة التي تعرضت للسرقة لا تجيب، إنها مجرد وقفة.

ثم غيرت الموضوع لأن هناك ترتيبات يجب إجراؤها: سهرة بنات، ولقاء أصدقاء قدامى. خطر لي أنه لم يكن هناك أي تفسير لعلبة البسكويت. أين كانت؟ ولماذا لم يعثر عليها اللصوص؟ لا بد أن المستمع كان على دراية بالعلبة، لأنه لم يُقدم أي تفسير لوجودها، وانتقلت المرأة التي تعرضت للسرقة بسلاسة من الحديث عن مجموعة علب ساندرينا إلى علبة البسكويت. ربما من غرفة الطفل إلى المطبخ، لأنه لو كانت علبة البسكويت في مكان آخر، في غرفة المعيشة أو الردهة مثلاً، لكانت بالتأكيد ملفتة للنظر. ولكن من يجمع

نقودًا لعطلة في علبة بسكويت، ومن يحتفظ بما يكفي من النقود في علبة بسكويت لدفع تكاليف عطلة؟

صحيح أن لديّ حقيبة مليئة بالنقود. أسحب كل يوم ما أستطيع، لأنك لا تدري متى قد تحتاج إلى المال. هل أعرف ما إذا كانت بطاقاتي الائتمانية ستدوم للأبد؟ لكن هذا أمر مختلف، في رأيي. لن أخفي النقود في علبة بسكويت أبدًا. ربما لن يفعل اللصوص ذلك أيضًا. ربما لهذا السبب لم يعثروا عليها. ربما أكون أشبه باللصوص، أسرق أرواح الناس؟ لقد وضعوا علب البسكويت في عربة القطار، لكن هذا لا يعني بالضرورة أنه يمكنك أخذ ما تريد. ربما يسعدهم تقديم الطعام لجميع ركاب العربة، لا أعرف. لا أعرف إن كنت أسرق أم أنني ببساطة أقبل ما يُمرر إليّ.

لكن الحديث انتهى فجأة، وكانت المرأة التي تعرضت للسرقة تنزل من القطار. نظرت من النافذة. كنا في آخن، لكنني بقيت مكاني، لم أجد سببًا للنزول، فتركت المرأة تذهب.

398

اليوم، هناك شابة هجرها حبيبها. لا بد أنها ليست كبيرة في السن، ربما في الخامسة والعشرين أو الثانية والعشرين، أو حتى أصغر. أصغر مني على أي حال. هي أصغر سناً وأكثر شعوراً بالهجر. لم ألحظ ذلك في البداية، عندما فتحت باب عربة القطار. كان قطاراً إقليمياً، وكانت تجلس وحدها في مقصورة تتسع لستة أشخاص، وبجانبها حقيبتان كبيرتان على الأرض.

لم تكن هناك عربات قطار عادية في هذا القطار، لذا تسللتُ عبر ممر ضيق مليء بالحقائب، مارًا بمقصورات شبه ممتلئة. كان ستار مقصورتها مسدلًا حتى منتصف النافذة، ربما كنتُ لأظن أنها تريد أن تكون وحدها، لكنني لستُ معتادًا على هذه القطارات، فهي تبدو كأنها من بقايا زمنٍ مضى، حين كان بإمكان الناس الاختباء خلف الستائر في مقصورات القطارات الصغيرة. شعرتُ كأنني أقتحم خصوصيتها، كأنني أستولي على أحد مقاعدها، لكنني فتحتُ الباب ودخلتُ على أي حال.

عندما فتحتُ الباب وسألتها إن كانت المقاعد الأخرى شاغرة، أومأت برأسها بحزن، وشعرتُ أن هناك خطأً ما. ظننتُ في البداية أنها تريد المقصورة لنفسها فقط، وكدتُ أغادر مجدداً، لكن كان هناك بالفعل أربعة أو خمسة أشخاص في المقصورة المجاورة، فدخلتُ بحذر حاملاً حقيبتي وجلستُ على المقعد الأقرب للباب والحقيبة على حجري.

استغرق الأمر مني بعض الوقت لأفهم ما الخطأ، لكنني شعرت على الفور أن الهشاشة، لا التملك، هي التي دفعتها لحراسة المقصورة. جعلني ذلك أشعر وكأنني دخيل، لكنني هنا، وسيكون من قلة الأدب أن أغادر الآن، لذا أجلس وأدوّن ملاحظات على كتاب أقرأه. لديّ قاموس معي، وقد أخرجته مع كتابي من حقيبتي.

أقرأ قليلاً، ثم أضع الكتاب جانباً وأكتب بضعة أسطر، وأتحقق من قاموسي ثم أقرأ قليلاً آخر، أو أتظاهر بذلك.

اشتريتُ الكتب من بون. كنتُ أتبع راكبين كثيري الكلام، أحدهما فرنسي والآخر ألماني، أو ربما كانا كليهما. كانا ينتقلان بين اللغتين عدة مرات خلال حديثهما، وعندما وصلنا إلى المحطة، دخلتُ أقرب مكتبة. أخذتُ قاموسًا، وعندما ذهبتُ للدفع، وجدتُ كومة من كتاب "التقارب الاختياري" لغوته بجوار صندوق الدفع. أعجبني رنين العنوان الألماني: Die Wahlverwandtschaften. في البداية، ربما كان هذا الكتاب مجرد ذريعة لتدوين الملاحظات والبحث عن الكلمات الألمانية في قاموسي، لكنني بدأتُ قراءته الآن. أقرأ ببطء، أقرأ في القطارات وفي غرف الفنادق. أسافر من مكان إلى آخر، ووصلتُ أمس إلى هانوفر. قضيتُ الليلة في فندق قريب من المحطة، واشتريتُ تذكرة لقطار متجه شمالًا، قطار صباحي، لكنه أُلغي ووُجّهنا إلى رصيف آخر، لذا فجأةً أصبح عدد الركاب أكثر من المتوقع في الساعة الحادية عشرة صباحًا في يوم عادي.

لم يستغرق الأمر وقتاً طويلاً لأتعرف على قصة رفيقتي المسكينة، ليس لأنها أخبرتني بها، ولكن كان من السهل فهم جوهرها ولم يكن من الصعب فهمها حتى مع معرفتي المحدودة باللغة الألمانية.

الشابة المكلومة في طريقها إلى منزل والديها، وقد تحدثت إلى والدتها مرتين. هجرها حبيبها للتو، ولم تتوقع ذلك أبدًا، بل كانت علاقتهما رائعة. أستطيع أن أقول إن هذه الكارثة ما زالت حاضرة في ذهنها، ربما حدثت هذا الصباح أو مساء أمس، وهي بحاجة إلى إخبار والدتها ولي بكل التفاصيل. إنها متجهة إلى بريمن. سيستغرق وصولها ساعتين إضافيتين، وهذا وقت طويل للسفر بقلب مكسور.

أفكر في الكوارث، كبيرة كانت أم صغيرة. أفكر في كوارثي الخاصة. أفكر في الكوارث الحديثة وتلك التي أتيحت لها فرصة التبلور. الكارثة التي حدثت في مقصورة القطار طفيفة ومفاجئة، تحمل تفاصيل كانت ستبقى خاصة لولا أنها حديثة العهد. ربما تظن أنني لا أفهمها لأني تحدثت معها بالإنجليزية حين دخلت المقصورة. لكن لا فرق. أنا لست هنا. لا أعتقد ذلك.

لا يهم إن كنت هنا أم لا. في عالمها لا يوجد سوى ابنة مذهولة وأم تستمع.

لقد فكرا في إنجاب أطفال. ليس فورًا، لكنهما تحدثا عن الأمر. كان هناك مستقبل. لقد اشترت له هدية عيد الميلاد بالفعل. كان هناك أطفال وهدايا عيد الميلاد في حياتهما. ربما يكون شهر نوفمبر مبكرًا بعض الشيء لهدايا عيد الميلاد، هكذا فكرت في نفسي. لكن كانت هناك خطط. كانا يسكنان في شقة مشتركة، ولم تستطع فهم سبب رحيله. كان هذا هو الجزء الأسوأ، أنها لم تفهم السبب. كانت تقف على الدرج عندما أخبرها. أي درج؟ الدرج خارج المحطة؟ ربما كان الانفصال حديثًا جدًا، ربما أوصلها إلى المحطة ثم أخبرها أنه سيتركها. إلى أين كانت ذاهبة عندما أخبرها؟ إلى منزل والديها؟ هل أوصلها إلى المحطة ثم أخبرها أنه لم يعد يريد أن يكون معها؟ على الدرج خارج المحطة؟ على الدرج المؤدي إلى الرصيف؟ ولماذا هذه الحقائب الكبيرة؟ ربما أخبرها مساء أمس. خلال الليل حزمت الضروريات. أو ربما كل شيء. والآن هي عائدة إلى منزلها.

مرّت عربة مرطبات في القطار بينما كانت الشابة الحزينة تخبر والدتها أنها لن تحتاج لشراء كرسي طعام جارتها. أي جارة تسأل مثل هذا السؤال: أحفادي كبروا جميعًا وأنتِ ليس لديكِ أطفال بعد، لكن ألا تشترين كرسي طعامي؟ وكأن الأطفال سيأتون إذا اشتريتِ كرسي طعام جارتكِ. ولماذا أخبرتها والدتها عن كرسي طعام جارتها؟ لدى الجيران كرسي طعام للبيع، هل أشتريه؟ أم أن الأم ذكرت شيئًا عن ذلك عندما أخبرتها ابنتها عن الانفصال؟ إذًا لن أحتاج لشراء كرسي طعام جارتي على الإطلاق؟

عندما انفتح باب المقصورة، طلبتُ كوبًا من الشاي وسألتُ رفيقتي في السفر إن كان بإمكاني إحضار كوب لها أيضًا. رفضت بلطف، وابتسمت ابتسامة باهتة، وكأنها تقول إن وجودي هناك لا بأس به. وكأن هذا ما كنتُ أسأله: هل لي أن أكون هنا؟

لا أدري، لكنني أجلس هنا الآن مع كوب من الشاي وأنا أُقلّب أوراقي. أضع الكوب الورقي على الأرض أمامي وأنحني لألتقطه عندما أرغب في احتساء الشاي. لدي رغبة في فعل شيء ما لـ

هي. مع أنني أعلم أنه لا حيلة لي. ولا حاجة لي لذلك. ربما كان من الأفضل لو رحلت.

بدلاً من ذلك، تمددتُ قليلاً في المقصورة. وضعتُ معطفي على المقعد المقابل لي وحقيبتي على الأرض. نحن نشغل معظم المقصورة

الآن. أحرص على حمايتها حتى لا تضطر للتعامل مع المزيد من المسافرين.

يسير الناس جيئة وذهاباً في الممر. إذا غادرتُ المقصورة، سيحلّ مكاني شخص آخر. سيكون ذلك أسوأ، أقول لنفسي. لقد اعتادت عليّ للتو. أو ربما لن يُحدث ذلك فرقاً. الآن أجلس متكئة على الستارة. إنها مخططة باللون البني الفاتح والبيج. أفكر في هدايا عيد الميلاد وأشرب الشاي من كوب ورقي، وبين الحين والآخر أكتب بضع جمل على ورقة طويتها ووضعتها في كتابي.

399

في بريمن، غادرنا القطار. بقيتُ في الممر الضيق خارج المقصورات، وتركتُ الشابة المهجورة تخرج أولاً. حافظتُ على مسافة بيننا. كنتُ مجرد مستمع، لستُ من العائلة، لكنني أردتُ التأكد من أنها في أيدٍ أمينة قبل أن أتركها تذهب.

كانت والدتها على الرصيف، امرأة ترتدي ملابس بيج، بدلة بنطلون وحذاءً بنيًا ووشاحًا أحمر حول عنقها. لم تكن تبدو كامرأة ستأخذ إجازة لرعاية ابنتها التي هجرها والدها، أو تحلم بأحفاد، لكنها كانت تعانق الفتاة، وبعد ذلك بوقت قصير رأيتهما تدفعان حقيبتين كبيرتين عبر المحطة، خارجتين من الباب إلى موقف السيارات، حيث وجدتا إحدى أكبر السيارات هناك، وهو أمرٌ كان من حسن حظهما، لأنهما كانتا بحاجة إلى مساحة واسعة لتلك الحقائب.

بعد أن رأيتهم يركبون السيارة ويغادرون المحطة، توجهت سيراً على الأقدام إلى وسط المدينة، وسرعان ما وجدت فندقاً حيث حصلت على غرفة مطلة على الشارع. تأكدت من عدم وجود أحد في الغرفة خلال اليومين الماضيين، ثم صعدت الدرج إلى غرفتي ودخلت.

من الغرفة، استطعتُ أن أُطلّ على الشارع وحركة المرور، من ترام وسيارات، ذهابًا وإيابًا، ورأيتُ ساحةً ينهمك فيها العمال بتعليق الأضواء على الأشجار. فكرتُ، وأنا أغلي الماء في غلاية وأراقب عملهم المنظم بدقة، أن الوقت مبكرٌ بعض الشيء، لكن ربما كان عليهم البدء الآن إذا أرادوا إضاءة المدينة بأكملها في ديسمبر.

كنتُ متعباً، لكنني لم أتناول شيئاً منذ الفطور سوى كوبين من الشاي. لذا خرجتُ لأحضر شيئاً آكله، وما إن عدتُ إلى غرفتي حتى استلقيتُ على السرير. فكرتُ في هدايا عيد الميلاد وعلاقات الاختيار، وغفوتُ سريعاً.

أجلس الآن بجوار النافذة، أُحدّق في الساحة الفارغة المقابلة للفندق، وفي الترامات التي تسير جيئة وذهابًا. تصطفّ على الرصيف المقابل أكياس قمامة بألوان مختلفة، تنتظر شاحنة القمامة. أجلس هنا أنتظر عمال الكهرباء والرافعات والمنصات الهيدروليكية التي لم تصل بعد. أفكر في ديسمبر. أفكر في اليوم والغد والغد المتأخر. أفكر في الأمس والفجر. والآن أفكر أيضًا في وجبة الإفطار.

رقم 401

اليوم لديّ هدف. أنا ذاهب إلى مكان ما. إلى الوطن، كما يُمكنني أن أقول. لكنني لم أعد أعرف معنى الوطن. كان الوطن في كليرون سو بوا، لكن ليس بعد الآن، والآن أنا في طريقي إلى بروكسل. كان ذلك أيضًا وطنًا. في يوم من الأيام. لم يعد الوطن مكانًا أذهب إليه. لكن اليوم لديّ وجهة. معي هدايا. إنها في حقيبتي تسوّق كبيرتين في رفّ الأمتعة.

402

قالت أمي عندما رأت الهدايا في أكياس التسوق: "سيظن أي شخص أنه عيد الميلاد". كانت جميعها مغلفة بعناية، ومعظمها بورق زينة عيد الميلاد. كان الجو دافئًا بعض الشيء بالنسبة لعيد الميلاد. لمحتُ أوراقًا على بعض الأشجار في الحديقة، وعلى شجيرة الورد المتسلقة المجاورة.

في الكوخ، كانت وردة واحدة متفتحة، تتحدى برد الخريف. في طريقي إلى المنزل، لاحظتُ أن بعض الثمار الصفراء لا تزال عالقة بأغصان شجيرة السفرجل العارية بجانب ممر الحديقة، رغم أن معظمها قد سقط وتلألأ على الأرض تحت الشجيرة. كانت هناك نسمة خفيفة. لم يكن الجو شتاءً بالمعنى الحقيقي، وكان عليّ أن أنشر بعضًا من روح عيد الميلاد.

كانت أمي في الحديقة عندما وصلت. لقد أخذت معظم اليوم إجازة لأن تلاميذ المدرسة الدولية التي تُدرّس فيها كانوا في رحلة. لم تكن قد أمضت في العمل سوى ساعتين، وعندما عادت توجهت مباشرةً إلى الحديقة. ثم اقتربت مني وهي تحمل وعاءً لثمار السفرجل الصفراء. كان من الصعب معانقتها بسبب أكياس التسوق التي كانت تفصل بيننا، بالإضافة إلى الوعاء ونظرات الدهشة التي كانت تُبديها أمي. أخبرتها أن الهدايا ستُقدّم لاحقًا، وذلك بعد أن دخلنا المنزل ووضعنا كل شيء في المطبخ.

قلتُ: يجب أن ندعو ليزا، أختي. يجب أن نتصل بها. لقد تحدثت إليها أمي بالأمس فقط. يجب أن نطلب منها الحضور لتناول العشاء. هذا

المساء، أو غدًا إن بقيتُ كل هذه المدة. قلتُ: ربما غدًا. كنتُ أقصد الثامن عشر، ولكنني كنتُ أقصد أيضًا ليلة عيد الميلاد. أما أمي فكانت تقصد التاسع عشر من نوفمبر.

تناولنا العشاء عندما عاد والدي من العمل بعد ساعة. جلسنا على طاولة غرفة المعيشة. لم تتمكن والدتي من جمع ثمار السفرجل لأننا انتهينا بشرب القهوة.

أثناء تناولنا الطعام، أخبرت والديّ أن لديّ بعض الأعمال لأنجزها في بروكسل، بعض الكتب لأحضرها. تحدثنا عن أمور عادية: يوم عمل والدي ويوم عطلة والدتي، ودراسة أختي، ومتجر تي آند تي سيلتر. لم نتحدث عن فترة توقف فيها كل شيء، لكننا تحدثنا عن رفاقي في السفر. قلت إنني كنت أسافر كثيرًا مؤخرًا، ثم أخبرتهم عن الكلب الحزين، وعن عمليات السطو وعلب البسكويت واجتماعات مجلس إدارة نادي الإبحار. قلدت أحاديث الركاب، واضعًا يدي على أذني كما لو كنت أتحدث عبر الهاتف، ومربتًا على كلب وهمي تحت الطاولة. أخبرتهم عن الفتاة الحزينة في مقصورة القطار، وعن هدايا عيد الميلاد وعلاقات الاختيار: كيف أعجبتني نبرة الكلمات، وربما إيقاعها، وأنني قرأت

شعرتُ وكأنني أدون ملاحظاتٍ عما أقرأه، لأنني لم أكن متأكدًا مما إذا كان ركاب الطائرة الآخرون يروون لي قصصهم حقًا. شعرتُ، بطريقةٍ ما، أنني أسرق منهم. لم أكن أريد أن أُكشف، كما يُقال.

لم يرَ والدي في ذلك سرقة. بل شعر أن بثّ المحادثات الهاتفية الخاصة في الأماكن العامة هو السرقة بعينها. سرقة لراحة الآخرين وهدوئهم، وخصوصيتهم، وربما حتى إنسانيتهم. وكأن المتحدث يجلس في مساحته الخاصة، وينظر إلى الركاب الآخرين كأشياء ثابتة: كالباب، أو المقعد، أو رف الأمتعة، كما قال. وكأن الركاب الآخرين ليسوا بشرًا، بل مجرد أشياء. تدخلت والدتي في الحديث، مستشهدةً بمثال أطفال مدرستها الذين غالبًا ما كان آباؤهم يوصلونهم إلى بوابة المدرسة بهواتفهم المحمولة. وكأن الأطفال طرود تُرسل أو أكياس تسوق تُحمل إلى المنزل. فكرتُ في رفيقتي المسكينة وقلبها المكسور. هل كنتُ كيس تسوق في الزاوية؟ رف أمتعة؟ أم أشبه بستارة تُسدل على نافذة المقصورة؟ لا أدري، لكن والداي كانا قد غيّرا الموضوع بالفعل.

لا أدري إن كانوا على حق، ولا أدري إن كان لديّ أي اعتراض على أن أكون ستارة، لكن فجأةً حلّ المساء وذهبتُ إلى فراشي في غرفتي القديمة. لم تتغير كثيرًا منذ أن غادرتُ المنزل. لا يزال سريري ومكتبي هناك، وباستثناء رفوف الكتب على طول أحد الجدران التي تضمّ

فائض كتب المنزل، كل شيء تقريبًا كما كان عليه عندما كنتُ أعيش في المنزل.

استيقظتُ باكرًا هذا الصباح، بعد السادسة بقليل حسب ساعة المطبخ. أعددتُ القهوة وجلستُ إلى الطاولة في الزاوية. ترددتُ للحظة قبل أن أجلس في المكان الذي لطالما كان مخصصًا لأمي، لكن الطاولة كانت مُلصقة بالجدار، والمكان الذي اعتدتُ الجلوس فيه وأنا طفلة أصبح مُسطّحًا. شعرتُ بغرابة الجلوس هناك على كرسي أمي، بل شعرتُ بالغرابة حقًا، لأنه طوال ما أتذكر، كان لكلٍّ منا مكانه المُحدد على الطاولة: أبي وأنا مُلاصقان للجدار، وأمي مُقابلة لأبي، وأختي بجانبها. هنا كنا نجلس كل صباح ومساء نتناول مزيجًا - أو "مزيجًا" كما كانت أمي تُسميه - من الأطباق الإنجليزية والبلجيكية، ونتحدث بمزيج من الكلمات الإنجليزية والفرنسية. التقى والداي عندما كان أبي في...

عطلة في إنجلترا. كانت والدتي تعيش في سوفولك، لكنها انتقلت إلى بروكسل لتعيش مع والدي فور تخرجها من الجامعة، وكنا أنا وأختي نجلس دائمًا مع هذه الطاولات المتنوعة في المطبخ. لكن أماكننا كانت ثابتة، كطاولة عائلية مربعة متماسكة، ولا أتذكر أي طاولات أو أماكن أخرى لأننا انتقلنا إلى هذا المنزل عندما كنت صغيرة، وهذه هي نفس الطاولة التي كانت لدينا آنذاك.

بعد أن انتقلت أنا وأختي من المنزل، دُفعت الطاولة إلى جانب الحائط، مما أتاح مساحة أكبر في المطبخ. ولعدة سنوات، كنا ندفعها ونعيدها إلى مكانها كلما كنا نزور أهلنا. في بعض الأحيان، كنا نعود أنا وأختي إلى المنزل لنقيم لبضعة أشهر، غالباً في الصيف، ثم نجتمع نحن الأربعة حول الطاولة مرة أخرى.

لكن الآن، أعتقد أن الطاولة تُدفع إلى الحائط معظم الوقت. أعتقد أن والديّ يجلسان بزاوية قائمة على بعضهما البعض عند تناول الطعام، لكنني لست متأكدًا، وعندما نأتي لزيارتهما، نتناول الطعام عادةً على طاولة الطعام في غرفة المعيشة.

في حوالي الساعة السابعة، دخلت أمي المطبخ. كانت متفاجئة، لكن ليس لدرجة أن أشعر بأنني مضطر لتبرير وجودي. قالت: "حسنًا، أنت تعرف أين المفتاح الاحتياطي. وأغطية السرير. والقهوة". قالت هذا بنبرة سعيدة، مما جعلني أشعر بالترحيب، وكأنها تعتبر وجودي دليلاً على أن العائلة ما زالت متماسكة وأن المكان الذي استوليت عليه سيظل دائمًا لي في المناسبات الخاصة.

سألتني بتكتم عن توماس، وكأنها تتأكد من سلامته، فأكدت لها أنه ينتظرني في كليرون. بدت عليها علامات الارتياح، وتذكرت الشابة في القطار ووالدتها اللتين ستضطران، لفترة من الوقت، إلى توديع أحلامها بالأحفاد وكراسي الأطفال المرتفعة، لأنه على الرغم من أن والدتي لا تتحدث عن ذلك أبدًا، إلا أنني أعتقد أنها تتساءل، بين الحين والآخر، عما إذا كان ذلك الكرسي المرتفع في العلية سيُستخدم مرة أخرى.

وبعد لحظات، ظهر والدي، وقد بدا عليه الدهشة أيضاً، لكنه افترض فوراً أن قدومي كان مدبراً من قبل والدتي حتى نتمكن من قضاء يوم عطلتها معاً. لكنه قال إنه كان يأمل أن...

سيبقى لبضعة أيام، أو حتى اليوم التالي على الأقل، لأنه كان عليه أن يذهب، وكان لديه اجتماع في الساعة العاشرة، لكنه سيعود في أقرب وقت ممكن.

لذا أخبرتهم على أي حال. على الإفطار. أنه عيد الميلاد. أنني أحضرت هدايا. أن الزمن قد تهاوى. أنني كنت أعدّ الأيام، ولو كنت قد حسبتها بشكل صحيح، لكان اليوم ليلة عيد الميلاد. أنني قضيت أيامًا متتالية مع توماس. أنني انتقلت إلى شارع إرميتاج، وذهبت إلى باريس، وسافرت مع مسافرين عابرين. أن الزمن مرّ ومرّ، ومع ذلك لم يمرّ أبدًا.

طمأنتهم. لم يمت أحد، ولم يُصب أحد بأذى. كان مجرد خلل في الزمن. قلت إنني اعتدت على هذه الفكرة. أنني أصبحت شخصًا مختلفًا. لقد اتضحت لي الأمور في ذهني، وأزلتُ الثلج، ونظفتُ الشجيرات. كنت أحاول إيجاد سبيل، أردتُ العودة إلى وتيرة زمنية طبيعية، لكنني كنت بحاجة إلى عيد الميلاد، بحاجة إلى مرور الوقت، بحاجة إلى ألا أبقى عالقًا في يوم واحد لا نهاية له من شهر نوفمبر. قلت لهم إن بإمكانهم مساعدتي في شهر ديسمبر.

بعد الإفطار، غادر والدي إلى اجتماعه، ووعد بالعودة حالما تسنح له الفرصة. أعددت أنا وأمي قائمة بأشياء العشاء، ثم ذهبت أمي للتسوق. كان لديها بعض الأوراق وبعض الواجبات لتسليمها في المدرسة، لكنها لن تتأخر. استعرت هاتفها، وبينما كانت غائبة اتصلت بأختي وأخبرتها بكل شيء. كان من المفترض أن تكون في الجامعة، حيث تدرس الكيمياء، لكنها الآن ستأخذ إجازة اليوم لتقضي عيد الميلاد مع عائلتها.

عادت أمي بعد أن أحضرت ديگًا روميًا وكرنب بروكسل. كما تمكنت من تحضير بودنغ عيد الميلاد وكعكة "بوش دو نويل" رغم أننا كنا في شهر نوفمبر فقط. لطالما كان عيد ميلادنا مزيجًا من التقاليد: هدايا وديك رومي عشية عيد الميلاد، وبقايا طعام للغداء في يوم عيد الميلاد. مع بودنغ عيد الميلاد. وهدية صغيرة لكل فرد صباح عيد الميلاد حفاظًا

على التقاليد البريطانية. هذا بالإضافة إلى كرنب بروكسل الذي كنا نتناوله مع الديك الرومي عشية عيد الميلاد. مع بودنغ عيد الميلاد، كنا نتناول آيس كريم الفانيليا، وليس الكاسترد - أو الكريمة الإنجليزية كما كان يسميها والدي - لأن أمي لم تكن تحب الكاسترد أبدًا. وكان هناك دائمًا بطاطس مشوية، كنا جميعًا نحبها، وبكميات وفيرة.

كان لدينا منها ما يكفي لليوم التالي أيضًا. وهكذا، تألف عيد ميلادنا من تقليدين: عيد الميلاد وعيد الميلاد المجيد، عيدان وحلوى ثقيلة، مع قليل من التناغم والتوازن. لكن التقاليد لا تحتاج إلى التناغم، يكفي وجودها فحسب. يجب أن تكون موجودة كنوع من شبكة الأمان، لتمنح المرء شيئًا يرتكز عليه. عندما ينهار العالم. عندما يتصدع الزمن.

أشعر الآن، وأنا أجلس في غرفتي القديمة، وكأن شيئًا ما قد أُصلح، وأنا أفكر في عيد الميلاد و"نويل". في كيف يمكن لأشياء لا تبدو متناسقة أن تجتمع معًا. أمي وأبي. أنا وأختي. الثامن عشر من نوفمبر وليلة عيد الميلاد، اللذان استطعنا مع ذلك أن نجمعهما. تقريبًا.

أعددنا عشاء عيد الميلاد وكأن كل شيء على ما يرام. أنا بارعة في تحضير البطاطا المشوية، منذ أن كان عمري عشر سنوات، ودائماً ما أكون مسؤولة عن هذا الجزء من العشاء. بمجرد عودة والدي، بدأ بتحضير براعم بروكسل. أما ليزا، فكانت مسؤولة عن الديك الرومي. لم يكن قد مضى سوى منتصف الظهيرة عندما وضعته في الفرن، ورغم أنها كانت تُسيطر تماماً على الوضع، إلا أننا جميعاً كنا نحوم حوله، نقلبه أو نقيس حرارته بمقياس حرارة اللحم بين الحين والآخر.

لم نجلس لتناول الديك الرومي مع البطاطا المشوية وكعكة عيد الميلاد إلا في وقت متأخر. تناولنا الطعام على طاولة غرفة المعيشة، لأن ذلك كان جزءًا من طقوس عيد الميلاد. أصررتُ على تقديم الهدايا لهم، الكثير من الهدايا، لأنني كنتُ أحمل حقائب مليئة بها.

أفضّل ألا أفكر في توماس، لكنني أفكر فيه رغم ذلك. كشيء مفقود. كان سيأكل بطاطسي المشوية ويقول إنه يجب عليّ تحضيرها أكثر، ليس فقط في عيد الميلاد. كان سيأكل دجاج ليزا المشوي بشهية، وكان سيأكل براعم بروكسل دون تعليق، لكنه كان سيطلب مربى السفرجل، وهو تقليد خاص في عائلتنا، ليس تقليدًا قديمًا في أي فرع من فروع شجرة عائلتنا، بل تقليد نشأ فقط لوجود شجيرة سفرجل في الحديقة الأمامية عندما انتقلنا إلى هذا المنزل. في كل خريف، كانت أمي تجمع السفرجل الأصفر، في البداية لأنها شعرت أنه يجب عليها فعل ذلك، ثم بدافع العادة، والآن كتذكير بالسنوات التي مضت. في الربيع، تتفتح أزهار السفرجل الحمراء، وفي وقت لاحق

أوراق خضراء محمرة وثمار خضراء صغيرة، ثم ثم ثمار سفرجل صفراء مخضرة، كبيرة منفردة أو في عناقيد صغيرة متراصة على طول الأغصان. في الخريف، عندما تنضج وتصفر، تسقط على الأرض تحت الشجيرة، وفي وقت ما، أحيانًا في أواخر نوفمبر أو حتى ديسمبر، تُجمع ثمار السفرجل الذهبية ذات القشرة الشمعية والدهنية قليلًا. تُوضع أولًا في وعاء في المطبخ، تنبعث منها رائحتها المميزة، ويتحول لون قشرتها إلى البني في بعض الأماكن، وأخيرًا، في عملية قد تستغرق يومين، تصنع منها والدتي مربى شفافًا أحمر داكن، ولا يزال لونه لغزًا بالنسبة لي: كيف يمكن لفاكهة صفراء أن تُنتج مربى بهذا اللون الأحمر الداكن؟ على مر السنين، انتشرت الشجيرة، وأخرجت فروعًا، وقُصّت، وقبل عامين، عندما انتقلنا إلى المنزل في كليرون، سأل توماس عما إذا كان بإمكانه الحصول على غصن للحديقة هناك. أُعطي أربع شجيرات، فزرعها وأعلن أنه عاجلاً أم آجلاً سيتعلم أحدنا فن صنع مربى السفرجل ويحافظ على هذا التقليد. لكن لم يكن هناك مربى سفرجل لعشاء عيد الميلاد هذا العام لأن السفرجل كان لا يزال ملقىً في الظلام، وعلى أي حال، فإن هذا التقليد ليس إلا تقليدًا لأن شجيرة سفرجل كانت موجودة في الحديقة.

لم نتحدث كثيرًا عن خطأ الزمن خلال العشاء. كنت قد شرحت معظمه، وأعتقد أن والديّ احتاجوا بعض الوقت لاستيعاب ما حدث. كانت ليزا أكثر اهتمامًا بالمبادئ الأساسية، والآليات الفعلية للأمر، والتي ناقشناها عدة مرات خلال اليوم، وفي إحدى المرات، بينما كنا في المطبخ نضع بقايا العشاء في الثلاجة، اقترحت أن ترافقني في رحلاتي. قلت إنني لست متأكدًا من إمكانية ذلك، ولكن إن أمكن، فسأضطر إلى شرح الأمر برمته لها كل صباح. أخبرتها أنني حاولت إقناع توماس بالذهاب إلى باريس معي، لكنه رفض. لم يكن يرغب في التورط في يومي الشتوي. لكن ليزا لم ترفض. اعتقدت أن الأمر ممكن. جعلت الأمر يبدو وكأنه عطلة. تحدثت عن الذهاب جنوبًا، عن الدفء وأشعة الشمس. كانت بحاجة إلى عطلة، فقد كانت في خضم إنهاء أطروحتها. قالت إنها ربما تستطيع مواصلة العمل عليها. لا يزال هناك الكثير من الكتابة التي يتعين القيام بها. كان بإمكاني مساعدتها. أخبرتها أن كل ما تكتبه سيختفي خلال الليل، لكنها اعتقدت أن هناك حلاً لهذه المشكلة. يمكنني أن أكتب كل شيء على الورق وأنام بجانبها.

كانت الأوراق تحت وسادتي، وفي اليوم التالي كانت ستقطع شوطًا أطول دون أن يمر وقت. كل ذلك بينما كنا نستمتع بشمس الجنوب. لكنني لن أذهب جنوبًا. أتوق إلى ديسمبر ويناير. أتوق إلى أن يبدأ العام بالتحرك.

بعد منتصف الليل بقليل، عندما عادت ليزا إلى منزلها ونام والداي، دخلتُ المطبخ. أخذتُ حقيبة تبريد من علاقة داخل خزانة المكانس، وأخرجتُ بقايا عشاء عيد الميلاد من الثلاجة لأضعها في الحقيبة، لأنني لم أكن أثق بقدرة الثلاجة على حفظها. وجدتُ في المُجمد كيسين كبيرين من حساء الدجاج. وضعتُ أحدهما في قاع الحقيبة والآخر على جانبها. كانت ليزا قد وضعت بقايا الديك الرومي في علبة بلاستيكية مع بعض براعم بروكسل الباردة. وضعتُ هذه العلبة في حقيبة التبريد، وبجانبها وضعتُ أربع حبات بطاطس كبيرة تمكنتُ من وضعها في علبة بلاستيكية أخرى. لم يكن هناك متسع للمزيد، فتركتُ الباقي في الثلاجة. وفوق كل هذا، وضعتُ آخر قطعة من كعكة عيد الميلاد، لا تزال في علبتها.

فجأةً، بينما كنتُ أغلق حقيبة التبريد، شعرتُ بضحكةٍ تتصاعد في داخلي. وقعت عيني على بودنغ عيد الميلاد في علبته على طاولة المطبخ، وأدركتُ أنني إن أردتُ تناوله يوم عيد الميلاد، فعليّ أن آخذه معي إلى الفراش. وضعتُ يدي على فمي كي لا أنفجر ضحكًا وأُوقظ أحدًا بضحكاتي التي كانت تنطلق من أعماقي. شعرتُ بها تتصاعد من أسفل معدتي إلى صدري. ضحكتُ بصوتٍ مكتومٍ وأنا أكتم ضحكتي، ويدي على فمي: كان الأمر أشبه بالبكاء، نوبة بكاءٍ مكتومةٍ مرحة، بكاءٌ خفيفٌ وعفويٌّ، بكاءٌ عيد ميلاديٌّ ساخرٌ من كلّ محاولاتي للتماسك. ضحكت على جديتي وإصراري على الحفاظ على عادات عيد الميلاد، ومرة أخرى أدركت مشاعري - كل شيء: الفرح، واليأس، ومزيج من الحزن والسعادة والضحك المفاجئ، وكلها دخلت المشهد في ليلة عيد الميلاد.

استمر الأمر لبضع دقائق، تاركًا لي شعورًا بالخفة، وما إن خفت ضحكي حتى بدأ صوت الثلاجة بالظهور، بدا في البداية كطنينها الميكانيكي المعتاد، لكنه تغير فجأة ليصبح كصوت ضحكي تمامًا، مزيج من الضحك والبكاء. ربما كان صوتها أكثر آلية من ضحكي، وربما كان أعلى قليلًا، و...

لم تحاول الثلاجة كتم ضحكاتها. بل وقفت هناك منتصبة، تطلق ضحكتها المتقطعة، التي تكاد تكون باكية. كما لو أنها وقعت في غرامي. كما لو أنها تضحك معي. أو تبكي. ولكن لا بأس. فمن حق الثلاجة التي لا تستطيع الاحتفاظ بطعام عيد الميلاد أن تضحك - أو تبكي - كإنسان إذا رغبت في ذلك.

أجلس في غرفتي القديمة. وضعتُ حلوى عيد الميلاد عند أسفل السرير تحت لحافي، وحقيبة التبريد التي تحوي بقايا عشاء الليلة الماضية تحت سريري أيضًا. أتمنى أن يستمر الاحتفال غدًا، يوم عيد

الميلاد، لوجود بقايا طعام وحلوى عيد الميلاد، وقد فعلتُ ما بوسعي لإبقاء أجواء العيد مستمرة. لففتُ لحافي حولي، ووضعتُ وسادةً خلف ظهري، وحزمةً من الأوراق فوق المجلد الأول من موسوعة بريتانيكا، التي وضعها والداي في غرفتي القديمة، وأشعر وكأن لا شيء يُمكن أن يُزعجني هنا. أشعر بالراحة والسكينة في آنٍ واحد. ليلة عيد الميلاد، مُختبئًا بين وسادة وموسوعة، مع ورقة تُذكّر بكل ما ينساه الناس، وحلوى عيد الميلاد في علبة عند أسفل سريري.

تركتُ الهدايا في غرفة المعيشة، رغم يقيني بأنها ستختفي. لا جدوى من إهداء هدايا سبق أن أهديتها، لذا كرمشتُ ورق التغليف وألقيته في سلة المهملات بجوار سقيفة الحديقة. بقايا عشاء عيد الميلاد هي الأهم، لأن تناول ما تبقى في اليوم التالي جزء لا يتجزأ من العيد. ربما هذا ما نحتفل به، أن يبقى شيء ما دائمًا، وأننا نحمل شيئًا معنا. ربما لهذا السبب انضمت الثلاجة إلى ضحكتها الساخرة.

الثلاجة صامتة الآن. تسللتُ على أطراف أصابعي متجاوزًا إياها وعبرتُ إلى غرفة نوم والديّ. وقفتُ للحظة أنظر إليهما في سريرهما: والداي، غارقان في نوم عميق، يصدر كل منهما صوته الخاص، صوتان مختلفان لم أكن ألاحظهما قط وأنا طفل، ربما لأنني كنت دائمًا أنام وهما يستمعان، أو ربما اكتسبا هذه الأصوات مع تقدمهما في السن.

أحضرتُ لنفسي كوبًا من الماء من المطبخ، وأغلقتُ ستائر غرفتي. إنها نفس الستائر التي كانت لديّ في فترة المراهقة، ونفس ورق الجدران أيضًا: نقش قطري بلون وردي باهت، يكاد يكون...

بيج. أتذكر أنه كان لوناً وردياً أغمق، لكنني ربما أكون مخطئاً.

رقم 403

بدأ صباح عيد الميلاد لدينا بشكل فوضوي بعض الشيء. لقد نسي والداي كل شيء. اضطررت إلى سرد القصة كاملة من جديد، بدءًا من يدي المحروقة وصولًا إلى الثلاجة المليئة بالضحك، قبل أن نتمكن حتى من تناول الإفطار.

استيقظوا بينما كنتُ أُحضّر إبريق قهوة شديدة التركيز، ومع ذلك لم يكونوا متفاجئين كما توقعت. كانت والدتي سعيدة بوضوح لأنني ما زلت أستطيع الحضور دون سابق إنذار، بينما ظنّ والدي أن والدتي كانت تعلم بقدومي. في البداية، جلسنا حول طاولة المطبخ، نشرب القهوة المركزة بينما كنتُ أُعيد شرحي المطوّل الذي سبق أن قدّمته لهم في اليوم السابق، والذي شمل الآن أيضًا يومنا في ليلة عيد الميلاد، وذلك المساء، ومواجهتي مع الثلاجة. مع اقتراب نهاية روايتي، بدأت

والدتي تشعر بنفاد الصبر. أحضرت الخبز ومربى المشمش بينما اتصل والدي لإلغاء الاجتماع الذي كان من المقرر أن يحضره، وعندما عاد إلى المطبخ، حضّر المزيد من القهوة، أقل تركيزًا من قهوتي، وتناولنا الخبز والمربى بينما كانا يحاولان استيعاب قصتي، ويطرحان أسئلة حول بعض التفاصيل، بعضها أكثر أهمية من غيرها، ويُقدّمان اقتراحات مختلفة، والتي كان عليّ بالطبع أن أقول إنني قد فكرت فيها أو جرّبتها بالفعل.

بعد القهوة ومربى المشمش، انتقلنا مباشرةً إلى بقايا طعام ليلة عيد الميلاد، والتي عبث بها والدي قليلاً رغم أنني أكدت له أنها بقيت مبردة طوال الليل، وإن كانت في حقيبة تبريد، لذا فهي آمنة تمامًا للأكل. بقيت البقايا باردة في غرفتي، أما أكياس حساء الدجاج التي استخدمتها للتبريد فقد ذابت جزئيًا فقط، وأعدتها إلى المجمد. مع ذلك، لا أعتقد أن مخاوفه كانت تتعلق بالسلامة. ربما كان تردده نابعًا من عدم اعتياده على تناول بقايا وجبة شارك فيها، لكنه لا يتذكرها.

سخّنتُ البطاطس في الفرن، لكن والدتي لم ترَ أن أربع حبات كافية. فأحضرت ثلاث حبات أخرى كنت قد تركتها في الفرن.

الثلاجة لأنها لم تكن لتناسب علبتي البلاستيكية، والتي، لدهشتي، لم تختفِ، على الرغم من أنني، كما أخبرتهم عند شرح أحداث الثامن عشر من نوفمبر، ربما كان ذلك لأنني كنت أنا من قام بطهيها. ثم كان عليّ أن أشرح هذه الظاهرة الغريبة، وهي أن الانتقال من زمن إلى آخر لم يكن واضحاً، ولم يكن ميكانيكياً بحتاً، بل كان - أو على الأقل هكذا شرحته لأبي - أشبه بشيء بصري، نوع من التلاشي أو التحول المتوازي، نوع من التداخل بين الزمنين، حيث أن زمني المتطور، وتفاعلي مع العالم، ووقتي المستهلك والمتراكم، بينما يتناقض بالتأكيد مع نسيان بقية العالم، لا يتبع مجموعة من القواعد والقوانين التلقائية أو غير القابلة للانتهاك، بل يلتزم بدلاً من ذلك بمبادئ عامة معينة، قواعد محاطة بمنطقة من التردد، حالة من عدم اليقين لم أستطع فهمها تماماً ولكنها عادةً، كما هو الحال مع تلك البطاطا المشوية، شكلت خطاً فاصلاً بين تلك الأجزاء من العالم التي كان لي يد فيها، إذا جاز التعبير، وتلك التي عادت ببساطة إلى نقطة البداية.

شرحتُ لأبي أن الغموض يكمن هناك، عند نقطة التقاء الوقتين، لكن هذا التفسير لم يُقنعه. أصررتُ على أنه لا توجد قواعد ثابتة، فالأمر ليس آليًا. ربما كانت براعم بروكسل التي أعدّها وطبخها في اليوم السابق، رغم أنه لا يتذكر ذلك، وبقايا الديك الرومي التي كانت في الفرن، نتناوب جميعًا على تفقدها وتقليبها ووخزها بالشوكة، ستبقى في الثلاجة. لكنني لم أُرِد المخاطرة، كما قلت. لو لم أحتفظ بالديك

الرومي وبراعم بروكسل الباردة في حقيبة التبريد في غرفتي، ولم أضع حلوى عيد الميلاد عند قدم سريري، لما كان لديه الآن سوى بعض البطاطس الجافة ليُقشّرها. كل شيء آخر كان سيختفي، ولن يتبقى لدينا شيء نأكله. مع أنني لم أكن متأكدًا من ذلك. كان لديّ شعور بأنّ الأمور التي قمت بها مع توماس كانت أكثر استقرارًا من، على سبيل المثال، نقلي لمدفأة الغاز مع ماري في المتجر في أول يوم من أيام نوفمبر، وقد يكون هذا هو الحال أيضًا مع عشاء ليلة عيد الميلاد الذي أعددته مع عائلتك. لكن لم تكن لديّ أيّة رغبة في تجربة بقايا الطعام الاحتفالية والمخاطرة باختفائها.

قال والدي إنه لا يزال يشعر بأنه يأكل بقايا عشاء شخص آخر، وهو أمر لم يزعجه حقًا، طالما أنه لم يكن مضطرًا إلى تخيل أن عشاء عيد الميلاد الخاص به هو الذي كان أمامه في الثامن عشر من نوفمبر.

اعتقدت والدتي أن الوضع المتعلق بالأشياء أشبه بتمرين تعليمي، وكأنها تخضع لنوع من التواصل، أو عملية تعلم، حيث يجب تدريب الأشياء في العالم، أو ربما حتى إقناعها بالبقاء، وأنه لا توجد طريقة واحدة محددة للقيام بذلك، بل من الضروري تكييف الأشياء المختلفة. لم يكن لديها مشكلة مع فكرة أن الانتقال من زمن إلى آخر ليس تلقائيًا، أو أن هناك عنصرًا من عدم اليقين. وكذلك لم يكن لدى والدي، أو هكذا ادعى، ثم انخرطا في مناقشة الفرق بين طريقتي النظر إلى الأشياء، في جو من الاختلاف الودي، كما لو أن المنطقة الرمادية التي تسكنها الأشياء هي مجرد مسألة أخرى من مسائل الحياة اليومية الصغيرة: على قدم المساواة مع السؤال عن الكمية المناسبة من حبوب البن لكوب قهوة فرنسية أو أفضل طريقة لجعل بناتك المراهقات يساعدن في الأعمال المنزلية. القياس أو الحدس، التدريب أو القواعد، وكما هو الحال في كثير من الأحيان من قبل، سمعت كيف غيّر كل منهم موقفه، لأنه إذا ذهب أحدهم بعيدًا جدًا في اتجاه واحد، فإن الآخر سيتبنى وجهة النظر المهجورة بشكل غير محسوس، بحيث يتم الحفاظ على التوازن.

لم يتطور حديثنا كثيراً عن هذا التوازن، لأنه حان وقت تحضير بودنغ عيد الميلاد، الذي كان لا يزال ملقى عند أسفل سريري وكان سيتعين عليه أن يبقى ويتبخر لمدة ساعتين على الأقل.

هذه المرة قررنا عدم الاتصال بليزا. كنت قد أخبرت والديّ أنها كانت تفكر في مرافقتي عند مغادرتي، لكن هذا لم يرق لهما. أخبرتهما أن الأمر ليس مُعديًا، وأنه من غير المرجح أن أُقحمها في روتيني اليومي، لكنهما رأيا أنه من الأفضل إبقاء ليزا بعيدة عن الأمر.

لم أذكر الهدايا لأنها اختفت بالطبع، ولا أحد يتذكر ما قُدِّم لهم. إضافةً إلى ذلك، لديّ الآن أفكار أخرى أفضل للهدايا. لكنني قلت لنفسي إن عليّ تأجيلها إلى عيد الميلاد القادم.

بدلاً من ذلك، بينما كان والدي يُشرف على بودنغ عيد الميلاد الذي كان يغلي على الموقد، ذهبتُ أنا وأمي إلى المدينة. قالت إنها تريد أن تُهديني هدية، فستاناً، أو شيئاً آخر إن كنتُ أُفضّل غيره. أعتقد أنها كانت ستُعطيني أي شيء لتمنعني من اصطحاب ابنتها الصغرى معي إلى المجهول، ولم أملك الشجاعة لأخبرها أنني أستطيع شراء كل الفساتين التي أريدها. أما مسألة بقائها معي فكانت أمراً آخر، إذ تتطلب قدراً من الإقناع، وفهماً لكيفية تصرف الأشياء، وكيفية التعامل مع الجمادات.

وجدتُ فستانًا رماديًا مائلًا للزرقة، مصنوعًا من مزيج الصوف، يُمكنني ارتداؤه مع الفستان الأسود الذي كنتُ أرتديه يوميًا منذ مغادرتي باريس، والذي كنتُ أغسله بين الحين والآخر في حوض الغسيل بالصابون أو الشامبو من الفنادق التي نزلتُ فيها. لا أعرف إن كان بإمكاني الاحتفاظ بفستان جديد إن لم أرتديه باستمرار، لكنني ألبستُه بإحكام وأُعوّل عليه أن يبقى معي. يبرز شريط رمادي مائل للزرقة أسفل حافة فستاني القديم، لكن يبدو وكأنه جزءٌ لا يتجزأ منه. لا أحد يستطيع أن يُلاحظ أنني أُدرّب فستانًا على البقاء معي.

في المتجر نفسه، وجدتُ أيضًا بعض الملابس الداخلية الصوفية: قميص بأكمام طويلة وسروال ضيق يمكنني ارتداؤه تحت ملابسي الأخرى عندما يحلّ الشتاء. لطالما راودني التفكير في الشتاء منذ أن شعرتُ برغبةٍ في الاحتفال بعيد الميلاد، وعندما رأيتُ الملابس الداخلية، عرفتُ أنني سأحتاج إلى ملابس تناسب الفصول. كنتُ بحاجة إلى ملابس دافئة وطقس مناسب لها. صحيح أننا احتفلنا بعيد ميلادٍ ما، وما زال أمامنا حلوى عيد الميلاد الختامية، التي تُطهى الآن على الموقد، لكن الطقس في بروكسل كان خريفيًا للغاية، فالأشجار مليئة بالأوراق المتساقطة والسفرجل على الأرض.

قالت أمي إنها تأمل أن أعود إلى روتيني المعتاد، وأنها تثق بقدرتي على ذلك. وأضافت أنني لطالما سلكت طريقي الخاص. لست متأكدًا مما قصدته، ولا أعرف إن كانت محقة، لكنني لم أعلق. في تلك اللحظة، قاطعنا بائع في متجر، وبعد ذلك بوقت قصير كنا نسير في الشارع ونستقل حافلة أوصلتنا إلى الضواحي.

كان الوقت متأخرًا من بعد الظهر عندما عدنا. بدأت السماء تُظلم، وتوهجت ثمار السفرجل باللون الأصفر تحت الشجيرة شبه العارية

بينما كنا نسير في ممر الحديقة. تناولنا بودنغ عيد الميلاد، وفي وقت لاحق من المساء، التقطنا آخر قطع اللحم من هيكل الديك الرومي وحضرنا بعض السندويشات. لم نكن جائعين كثيرًا، ليس بعد البودنغ الدسم، الذي تناولناه بدون آيس كريم الفانيليا الذي اشترته والدتي، لأنه اختفى بالطبع من المُجمد خلال الليل، كنت قد نسيت ذلك، لكن الوقت كان قد فات، ولم يرغب أحد في الخروج لشراء الآيس كريم. كنا جميعًا متعبين، على ما أعتقد، وبحلول الساعة العاشرة كنا نقول تصبحون على خير ونستعد للنوم.

دخلت أمي غرفتي بعد أن خلدتُ إلى النوم وجلست على الكرسي بجانبي، كما كانت تفعل غالبًا عندما كنت طفلة - وحتى غادرت المنزل في الواقع - وشعرتُ بحيرة الطفل الذي كاد أن يكبر: ممزقة بين رغبتها في أن ترحل وتتركني أعيش حياةً لم تعد لها فيها أي دور، وبين رغبتها الجامحة في الانغماس في عالمٍ يتولى فيه الكبار حلّ جميع المشاكل الكبيرة. وربما، في هذه الحالة، كان هناك أملٌ في أن تتمكن أمي من إصلاح الأمور ثم تنسحب من الغرفة. مثل تلك الحادثة التي وقعت في رحلة مدرسية، عندما انخلع ذراع أحد تلاميذها الصغار. كنت أنا وليسا أيضًا في الرحلة، ووقفنا نراقب أمي وهي تعيد ذراعه إلى مكانها. شعرتُ بالدهشة والفخر عندما رأيتُ الارتياح على وجه الصبي المصدوم، الذي كان ذراعه في وضعية غريبة. لقد استخدمت حركةً معينة، حادة ولطيفة في آنٍ واحد، أشبه برفعٍ منها بسحب، وفجأةً عاد الذراع إلى مكانه. هكذا تفعل الأمهات، لا بدّ أنني فكرت حينها. لقد شعرت براحة غريبة تجاه العالم عندما علمت أن أمي قادرة على إعادة الأطراف المخلوعة إلى مكانها.

لكن لم يكن بوسعها فعل الكثير حيال تكرار الزمن. تحدثنا قليلاً عن إمكانية عودتنا إلى الزمن الطبيعي غداً، خارج الحلقة، أو اللفة، أو التكرار، أو أيًا كان ما تسميه، لكنه كان أشبه بمحادثة روتينية لكل منا دوره فيها، أشبه بلعبة تمثيلية قد يلعبها المرء مع والديه. أتذكر كيف كنا نلعب في المطاعم: أبي يحمل منشفة شاي مطوية على ذراعه، وأنا وليسا نكتب قوائم طعام تعرض أطباقًا غريبة بأسعار خيالية. كنا قد انتهينا من اللعب في عيد الميلاد: ليلة عيد الميلاد الأولى،

ثم جاء يوم عيد الميلاد، وكنا نلعب لعبةً مفادها أن هناك مخرجًا. انضم والداي إلى اللعبة، وجاريتني أمي حتى ظننت أن الأمر سينتهي قريبًا، وأننا سنستيقظ على التاسع عشر من نوفمبر، أو ربما حتى السادس والعشرين من ديسمبر، يوم الصناديق كما كانت تسميه. لكنني أعتقد أنها كانت تشعر بالارتياح أكثر من أي شيء آخر لأننا قضينا اليوم دون

أن أُشرك أختي، وربما حتى دون أن آخذها معي. قلتُ إنني آمل أن تجمع ثمار السفرجل وتصنع مربى، ثم سأعود في عيد الميلاد.

قلتُ: سأجد مخرجًا. كنتُ متأكدًا من وجود إجابة. هناك في مكان ما، سيكون هناك حل. وسأجده. سأواصل السفر، وسأبقي عيني مفتوحتين، وسأستمع إلى أحاديث الناس. ومعي قاموس. سيكون هناك شيءٌ يُمكنني الاستفادة منه. قلتُ: العالم مليء بالنصائح الجيدة إن أصغيتَ إليها.

لا أعرف لماذا قلت ذلك. كنتُ قد بدأتُ أفكر في المكان الذي يجب أن أذهب إليه. كنتُ أفكر في القطارات والركاب، وتمسكتُ بأول شيء خطر ببالي، على أمل أن أطمئنها.

قالت إنها لم تفكر في ذلك. ربما يمكن حل مشاكل الحياة بالاستماع. من خلال المحادثات مع العائلة والأصدقاء، ربما، نعم. لكنها لم تكن متأكدة مما يمكن تعلمه من المحادثات العفوية بين الآخرين.

قلتُ إنني متأكد من أنك تستطيع، من خلال الإصغاء الجيد، حلّ أي مشكلة قد تطرأ. إن أصغيتَ جيدًا. الأسئلة الكبرى في الحياة. كل شيء. وإن لم تجد الإجابة في أحاديث الناس، فحاول الإصغاء إلى تغريد الطيور. أو صوت الريح. ستجد دائمًا طريقك إلى شيء ما.

كنتُ أدرك تمامًا أنني أُحوّل مسار الحديث لأنني لم أكن أفكر في السفر والاستماع إلى رفاقي في الرحلة على الإطلاق. أو حتى إلى صوت الريح. شعرتُ كالمراهق الذي أدلى بتعليق ثم اضطر إلى تبريره، بدافع التحدي جزئيًا، ولتجنب إطلاع والدتي على الفكرة التي بدأت تُسيطر عليّ: فكرة أنه مهما

مهما فعلت، سواء استمعت أم لا، لم أكن لأفلت أبداً من الثامن عشر من نوفمبر.

قلتُ إنني أعلم أنها تشعر باختلاف. ففي رأيها، لا يوجد سوى سبيل واحد لحل مشاكل العالم، لأنها لطالما آمنت بأن التغيير يبدأ بخطوات صغيرة، مع الأطفال. وأن لا شيء سيتغير حتى نُدرك هذا ونتخلى عن نهجنا الخاطئ تجاه الأجيال الجديدة.

بدت أمي مرتاحة عندما حوّلتُ الحديث إلى الموضوع الذي دارت حوله حياتها بأكملها طوال ما أتذكره. الأطفال. تلاميذها، أبناؤها، جميع أطفال العالم. أكدتُ لها أن كل يوم في حياتها كان بمثابة عيد، لأنها كانت ترى في كل ولادة طفل فرصة جديدة لجعل العالم مكانًا أفضل. في الواقع، كانت تؤمن - وقد اعترفت بذلك صراحةً - أنه إذا اغتنمنا هذه الفرصة مرارًا وتكرارًا، كلما سنحت، فسنشهد تغييرات تدريجية،

خطوة بخطوة. ستخف حدة الحروب والعنف وإساءة استخدام السلطة والفساد، مما يُسهّل حل مشاكل أخرى: الجوع والمرض والفقر، وكل أنواع العلل. لطالما آمنت بهذا. أعتقد أن هذا الإيمان يعود إلى طفولتها وأيام دراستها، وأعتقد أنها تؤمن به إيمانًا راسخًا: أن الأطفال الذين لا يتعرضون للأذى في حياتهم سيجعلون العالم مكانًا أفضل تلقائيًا.

سألتها إن كانت هذه هي نظرتها للعالم، وإن كان الأمر بهذه البساطة حقاً، فأجابت أنها تؤمن بذلك فعلاً. بسيطة، كما قالت، وليست سهلة. لكنها أصرّت على أن هذا لا يعني السماح للفوضى بالسيطرة. أبداً. يجب مساعدة الأطفال وتوجيههم.

أوقفتها عند هذا الحد لأني كنت أعرف مسبقًا آراءها حول العناصر الضرورية لتربية الأطفال وتعليمهم. أشياء مثل ضرورة تعلم الأطفال لغات متعددة، وكيفية الاعتناء بالحديقة، والغناء والموسيقى، وفكرة ضرورة مساعدة الأطفال على اجتياز سنوات تكوينهم بسلامة ودون عوائق، ولكن ليس دون اختبار أو نضج. كانت تقول دائمًا: "بالعناية، كما تُعامل النباتات". لكن قبل أن تبدأ حديثها، أخبرتها أنني أعتبر طريقة تفكيرها نوعًا من الآلية، آلية لطيفة بلا شك، آلية إنقاذ يُنقذ بها الأطفال العالم. آلية بسيطة لعيد الميلاد، كما قلت، رغم أنني

كانت تعلم أنها لا تحب أن يُوصف تفكيرها بأنه آلي. هذا ما كان يعتقده والدي وأختي: أن التكنولوجيا ستساعدنا.

ثم سألتها: هل تحلم بالأحفاد؟ هل تحلم بإنزال كرسي الطعام من العلية؟ لم تكن تعرف. كل ما تتمناه هو سعادة أبنائها، ومساعدة تلاميذها في مسيرتهم، وربما إصلاح بعض الأضرار هنا وهناك. قالت إنها تتمنى أن يكون لديها أحفاد يومًا ما، بالطبع، لكنها الآن راضية بأبنائها.

بينما كانت تتحدث، انزلقتُ تحت لحافي، ثم قامت بلفّه حولي كما لو كنت طفلاً صغيراً. وفجأة، بدأت تغني أغنية "في منتصف الشتاء القارس" بصوت خافت جداً، أشبه بتهويدة.

في منتصف الشتاء القارس

هبت ريح باردة مصحوبة بأنين؛

كانت الأرض صلبة كالحديد،

ماء كالحجر؛

تساقط الثلج، ثلج فوق ثلج،

ثلج فوق ثلج،

في منتصف الشتاء القارس،

منذ زمن بعيد.

غنت أمي الترنيمة كاملةً من البداية إلى النهاية، المقاطع الخمسة جميعها، ولم أستطع إلا أن أغني معها. لطالما غنينا هذه الترنيمة في عيد الميلاد، لذا جلست في سريري وانضممت إليهم. توليت غناء طبقة الألتو، كما أفعل منذ أن يئست أمي من محاولة جعل صوتي يصل إلى طبقات اللحن العالية، وعلمتني بدلاً من ذلك الحفاظ على التوازن في المنتصف. كانت أمي وليسا تغنيان اللحن دائمًا، بينما كان أبي يُصدر بعض النغمات الجهورية في الخلفية، لذا كان عليّ الحفاظ على تماسك الترنيمة في المنتصف، فلا أتداخل مع اللحن ولا مع صوت أبي الجهوري. الآن غنيناها بدون طبقة الجهورية، وبحلول النهاية كنا قد أتقنّا التناغمات تقريبًا.

عندما وصلنا إلى النهاية، قالت ليلة سعيدة وغادرت الغرفة، وبعد فترة وجيزة نهضت وارتديت الفستان الجديد. ثم خلعت فستاني القديم.

انتهيت من ذلك ووضعت الملابس الداخلية الصوفية في حقيبتي.

انتظرتُ حتى ساد الهدوء في المنزل، وظننتُ أنهما غارقان في النوم، ثم تسللتُ إلى غرفتهما لأستمع إلى أصواتهما. كان صوت نومهما مسموعًا، كجوقة غير منتظمة مؤلفة من أبوين كانا يلعبان في عيد الميلاد مع طفليهما البالغين.

وجدتُ مصباحًا يدويًا في خزانة المكانس، فأخذته معي. جمعتُ أغراضي واستعرتُ كتابين من رفوف مكتبتي. تذكرتُ فجأةً أنني قلتُ إنني سأذهب لأخذ بعض الكتب من بروكسل. والآن، هذا صحيح. لقد أخذتُ الكتب من رفوفها، وأنا جالسةٌ على السرير أنتظر. لقد أزلتُ كل آثار زيارتي، ووضعتُ ما تبقى من حلوى عيد الميلاد في علبة بلاستيكية، ثم وضعتها في حقيبتي. أنتظرُ حلول الليل ليمحو كل ذكرى ليومنا الثامن عشر من نوفمبر، وقبل أن يستيقظ أحدٌ سأغادر المنزل.

رقم 404

الآن، وأنا جالس في القطار، أفكر في عائلتي كجوهر صلب ذي حواف هشة. يبدو أن شيئاً ما يتفتت دائماً.

أفكر في ورق جدران باهت. أفكر في سيجارة أمي، التي كانت غالباً ما تبقى مشتعلة بينما هي منشغلة بأمر آخر. الرماد، الذي كان يمتد كإصبع رمادي طويل إلى منفضة السجائر حتى تهب عليه الرياح ويتفتت.

أفكر في مكعبي السكر اللذين لا يزال والدي يذيبهما في قهوته، والرنين الخافت للملعقة الصغيرة ومكعبات السكر في الكوب، وصوت السكر الذي يخفت تدريجياً حتى يختفي تماماً ولا يبقى سوى صوت الملعقة الصغيرة.

أتذكر الحمامات الساخنة، وليزا وأنا في حوض الاستحمام. كان لدينا طلاء خاص بالحمامات، يُستخدم على البلاط المحيط بالحوض، وكان يختلط ويتحول إلى سائل بني اللون، وعندما ننتهي، كنا نسحب السدادة ونترك السائل يتسرب. وفي أحيان أخرى، كنا نأخذ معنا إلى الحمام مجلة مصورة أو كتالوج متجر ألعاب، وعندما نكون

بعد الانتهاء من القراءة، قمنا بإذابتها في الماء: وضعنا صفحة أو صفحتين فوق الماء، فتصبح الورقة لينة، ثم تسيل الألوان وتذوب تدريجياً إلى رقائق رمادية وكتل صغيرة من الورق المبلل.

أتذكر اللغات التي كانت تملأ منزلنا، ذلك التداخل اللغوي، دوامة من الكلمات والعبارات التي يمكن دمجها وتبديلها، لغة ذات حدود مرنة وحرية حركة طالما بقينا داخل جدران منزلنا. لكن عندما كنا نخرج، كانت هناك فواصل. في مدرستنا كنا نتحدث الفرنسية، وعندما كنا نزور إنجلترا كان كل شيء بالإنجليزية. في أرض أحاديي اللغة، كما كانت أمي تقول، حيث تعلمنا بسرعة اتباع قواعد اللغة، لأنه لم يكن أحد يفهمنا حتى نقول "من فضلك" و"شكرًا".

والآن أفكر في صندوق السماد في الحديقة، حيث كانت تُلقى فيه الأغصان والأوراق والزهور الذابلة في الأصص وقشور الخضراوات من المطبخ، لتشكل كتلة متشابكة تغير لونها تدريجياً وتحللت حتى تم تفريغها في النهاية على التربة كسماد بني داكن، لا يزال يعج بالديدان الحمراء النحيلة التي كانت تتلوى بجنون في الضوء.

أتذكر موقد الحطب الذي ركبناه في المنزل. أتذكر حرارته والحطب الذي سرعان ما تحول إلى رماد. أتذكر كومة الحطب تحت الموقد التي كانت تتناقص بعد ساعات قليلة حتى باتت تحتاج إلى إعادة تعبئة. في الشتاء، كان من واجبي جلب الحطب، حزمة واحدة فقط في وقت متأخر من بعد الظهر بعد المدرسة. جذوع كانت تنشر الحرارة في الغرفة وهي تحترق وتتحول إلى مسحوق.

إن كل هذا التفكك هو الذي شكل نواة، عائلة ذات أماكن محددة؛ وهو ما أدى إلى ظهور التقاليد ومكان للعودة إليه، وأفكر في تلك الأيام الضبابية مع توماس، كما لو أن التفكك هو الذي يربط الأشياء ببعضها.

لكنني الآن في القطار، وربما يتجول والداي في أرجاء المنزل وكأن شيئًا لم يكن. غادرت المنزل في الظلام، ولم يكن معي سوى مصباح يدوي ومصابيح الشوارع لتنير طريقي. كان الجو باردًا، لكن ليس برد الشتاء القارس، وسرت عبر الشوارع السكنية، مرورًا بمتاجر الضواحي، وصولًا إلى الطرق الرئيسية وداخل المدينة، حيث استقليت أخيرًا حافلة أوصلتني إلى بروكسل-ميدي.

في المحطة، دخلتُ المقهى الوحيد المفتوح. كان شبه خالٍ حين وصلت، لكن خلال الساعات التالية رأيتُ المحطة تمتلئ تدريجيًا بالمسافرين، بينما كنتُ أغيّر مقعدي بين الحين والآخر، أنتظر حلًا، مخرجًا، رحلة منطقية، لكن الحل الوحيد الذي خطر ببالي كان التوجه شمالًا. كنتُ أتوق إلى الشتاء، لذا في منتصف الصباح تقريبًا، بعد أن خفّ تدفق المسافرين، اشتريتُ تذكرة قطارٍ سيأخذني شمالًا.

لم أعد أستمع إلى المحادثات في القطار لأنني أعرف إلى أين أنا ذاهب، ولا أحد يقول "رحلة الشتاء"، على الرغم من أننا عبرنا الحدود الألمانية منذ فترة.

405

نزلتُ من القطار في كولونيا لأنها كانت المحطة الأخيرة، وبعد نزولي مشيتُ عبر المحطة وخرجتُ إلى ساحة. كانت الكاتدرائية شامخةً على جانبي، وعندما خرجتُ بدأت ساعتها تدق. كانت الساعة الرابعة، والغريب أن الجو كان أدفأ حتى من بروكسل، وفي الساحة أمام الكاتدرائية استقبلتني نسمة عليلة. كان عصرًا بلا مطر، دافئًا جدًا لشهر نوفمبر. دافئًا جدًا لفصل الشتاء على أي حال. في منتصف الساحة توقفتُ فجأة، واستدرتُ، وعدتُ إلى المحطة وركبتُ أول قطار متجه شمالًا. كان متوجهًا إلى بريمن، وعندما وصلتُ إلى محطة بريمن، مشيتُ إلى المدينة ووجدتُ الفندق الذي كنتُ قد نزلتُ فيه بعد أن أوصلتُ صديقي الشاب الحزين إلى السيدة التي ترتدي البيج.

طلبت نفس الغرفة التي كانت لدي من قبل. كان الوقت متأخراً وكنت متعباً جداً للخروج وتناول الطعام، متعباً جداً للتفكير في والديّ، اللذين كانا بلا شك يجلسان متقابلين في المطبخ، في الزاوية، ومكاني على الطاولة ملاصقاً للجدار، وربما كان هناك وعاء من السفرجل على الطاولة ورائحة نوفمبر تفوح في الهواء.

بدلاً من ذلك، تناولت بقايا بودنغ عيد الميلاد، وهو عشاء دسم نوعاً ما، لكن كان هناك شيء مريح في مذاقه، ربما مذاق الرعاية والحنان، كما لو كان لا يزال هناك شخص ما قلق عليّ، مذاق ثقيل لعيد الميلاد والعائلة والسنوات الماضية.

بينما كنتُ أغسل أسناني، لمحتُ نفسي في مرآة المكياج في الحمام، متعبةً ومستعدةً لفصل الشتاء. كانت مرآةً ذات وجهين، وبينما كنتُ واقفةً هناك شاردةً في أفكاري، قلبتها صدفةً. بعد لحظة، رفعتُ نظري فوجدتُ نفسي أنظر إلى وجهٍ مكبّر، ما زال وجهي، لكنه ليس أكبر فحسب، بل أكبر سنًا أيضًا، لأنه عند التدقيق، ظهرت تجاعيد وعيوب صغيرة لم ألحظها من قبل. شعرتُ وكأنها قفزة. من الطفولة إلى الرشد تقريبًا. تكوين أسرة يُسرّع الشيخوخة. أغاني التهويدات وترانيم عيد الميلاد تُسبب التجاعيد.

قبل أن أنام، خلعت الفستان الذي كنت أرتديه، لكنني أبقيت فستاني الجديد طوال الليل. استيقظت مبكرًا هذا الصباح لأن الجو كان دافئًا جدًا للنوم بملابس صوفية، لكن الفستان بقي معي، وكذلك ملابسي الداخلية الصوفية التي كنت قد وضعتها بجانبي على السرير. أنا مستعدة للشتاء، وبعد الإفطار بدأت أخطط لرحلتي شمالًا.

توصلتُ إلى قناعةٍ بأنه لا بدّ لي من الذهاب إلى النرويج، والبحث عن عبّارةٍ تُبحر بي على طول الساحل إلى مكانٍ مُغطّى بالثلوج، وقضيتُ مُعظم يومي أبحث عن مسارات العبّارات. في البداية، بحثتُ عن عبّارةٍ من كيل، لكن لم تكن هناك رحلاتٌ في الثامن عشر من نوفمبر. كان بإمكاني المغادرة في التاسع عشر، لكنني لم أستطع الانتظار. من الدنمارك، كانت هناك عبّارتان، سريعةٌ وبطيئة. كانت البطيئة عبّارةً ليلية. لكن ماذا لو أبحرْتُ طوال الليل؟ هل يُمكن لعبّارةٍ أن تُبحر في الثامن عشر من نوفمبر؟ هل سيتحوّل النهار إلى التاسع عشر؟ هل ستعود السفينة إلى نقطة انطلاقها؟ وهل سأذهب معها؟ إنه سؤالٌ مُعقّد، وكل ما استطاعوا إخباري به في وكالة السفر التي استفسرتُ منها هو أن هناك عبّارةً تُغادر الساعة 6:30 مساءً، يُمكنني اللحاق بها إذا استقللتُ قطار الساعة الحادية عشرة، وسأكون في النرويج صباح التاسع عشر. من حيث المبدأ. كانت هناك في الواقع عبّارة أخرى، عبّارة سريعة، لكنها أُلغيت في ذلك اليوم تحديدًا. فقد هبّت عاصفة مؤخرًا على النرويج، وتضررت العبّارة، وإلا لكانت أوصلتني إلى النرويج قبل منتصف الليل. عُرضت عليّ عدة رحلات جوية، لكنني لا أثق بطائرات الثامن عشر من نوفمبر، ولا بالطائرات عمومًا، كما أنني لا أقود السيارة، لذا قررتُ ركوب القطار بدلًا من ذلك. يمكنني الذهاب به إلى الدنمارك، ومن هناك أتابع رحلتي شمالًا. ستكون الرحلة أبطأ، لكنها لن تكون صعبة، لذا سأستقل القطار شمالًا صباح الغد. أجلس الآن بجوار النافذة في غرفتي بالفندق، إنه وقت الظهيرة، والسماء صافية.

السماء ملبدة بالغيوم، وأنا في طريقي إلى الشتاء. أنظر إلى أسفل الشارع، المحطة قريبة، أستطيع رؤيتها لو فتحت النافذة وأخرجت

رأسي. أستطيع أن أرى الساحة المقابلة، حيث تُعلق الأضواء على الأشجار. تمر الترامات وأسمع أصواتها، تسارعها وتوقفها، أرى سماءً رمادية وأشعر ببرودة في الهواء، مختلفة عن ذلك اليوم الممطر في كليرون، مختلفة عن ذلك اليوم البارد في باريس في نوفمبر، مختلفة عن خريف بروكسل، لعدم وجود رياح، مختلفة عن ظهيرة كولونيا الدافئة للغاية، هناك نسمة باردة في الهواء، ربما إشارة إلى قدوم الشتاء.

لكن لماذا لا أذهب إلى مكان أكثر دفئًا؟ إلى إسبانيا أو إيطاليا، إلى جزيرة يونانية، إلى شاطئ هادئ؟ كان من المفترض أن أتمنى الشمس والصيف بعد كل هذه الأيام الممطرة، لكن ما أريده هو الشتاء. أريد ديسمبر ويناير. أريد عامًا يبدأ فيه التحرك. أريد برد الشتاء وظلامه، لا مجرد يوم واحد من الأمطار وأشعة الشمس الباردة، لا مجرد أيام معتدلة ممطرة، لا مجرد سماء رمادية وبرودة في الهواء.

لا يوجد هنا الكثير من أجواء الشتاء، ولا وجود للثلوج على الإطلاق. إنه وقت الظهيرة. الجو رمادي وهادئ، وليس باردًا بشكل ملحوظ. مباشرةً بعد تناول الفطور هذا الصباح، استقللتُ قطارًا من بريمن إلى هامبورغ. سافرتُ عبر ريف شمال ألمانيا، الذي كان بالكاد يُمكن تمييزه من خلال ضباب الصباح. كانت السماء صافية فوق نيومونستر، ولكن بعد فترة وجيزة، دخلنا في ضباب كثيف لم يُبقِ سوى بضع أشجار متعرجة وعارية تقريبًا تلوح في الأفق على طول خط السكة الحديد. ولكن سرعان ما انقشع الضباب تمامًا، وأنا الآن في الدنمارك، في أودنسه. لقد كنتُ هنا من قبل، منذ بضع سنوات، لحضور مزاد مع توماس، وجلسنا هنا، في نفس المكان الذي أجلس فيه الآن، في مقهى في أقصى زاوية من المحطة. كنا نمضي الوقت، ننتظر قطارنا، وها أنا ذا الآن، أمضي الوقت، أنتظر قطاري. لا بد أنه كان فصل الشتاء عندما كنا هنا، لكنني لا أتذكر متى بالضبط. ربما كان أوائل الربيع أيضًا. كل ما أتذكره هو أن الثلج بدأ يتساقط. كانت لدينا عدة حقائب سفر ملقاة حولنا، لأننا اشترينا كتبًا من المزاد. كان ذلك في بدايات تأسيس دار نشر تي آند تي سيلتر، خلال عامها الأول. كنا نذهب كثيرًا إلى هناك.

كنا نذهب معًا إلى المزادات، ونعود إلى المنزل بحقائب مليئة بالكتب، ليس إلى دار نشر كليرون، بل إلى بروكسل، حيث كان عملنا يقتصر على بعض خزائن الكتب ومكتب في زاوية شقتي الصغيرة، التي انتقل إليها توماس، مع بدايات دار نشر تي آند تي سيلتر. حالفنا الحظ في بعض الصفقات، واكتشفنا شغفنا الخاص بالكتب النادرة. كنت قد طورت تدريجيًا إحساسًا فريدًا - هكذا شعرت على أي حال، كإحساس - أو غريزة معينة على الأقل تجاه الكتب، تجاه الطباعة والورق واللوحات

العلمية، واتضح أن لدينا موهبة في العثور على الكتب المناسبة، وأننا نستطيع إيجاد مشترين، أو بالأحرى: كان توماس يستطيع إيجاد المشترين، الذين سرعان ما أدركوا أننا قادرون على تتبع الأعمال التي يريدونها أو التي لم يكونوا يعرفون حتى أنهم يريدونها. كنا متحمسين، حضرنا المزادات، حملنا الحقائب والأمتعة، وكنا نعلم أننا اثنان، وأننا في هذا معًا، وأن جهودنا المشتركة هي التي جعلت الأمر ينجح، كنا شركة، نسافر ونحب، نشتري ونبيع، عثرنا على أشياء مثيرة للاهتمام، وقمنا أحيانًا بعمليات شراء سيئة استغرقت وقتًا لبيعها، لكن لا بأس بذلك، لأننا كنا معًا في الأخطاء، بغض النظر عمن ارتكبها، تمامًا كما كنا معًا في الاكتشافات المحظوظة.

في المحطة، وجدنا المقهى الذي أجلس فيه الآن على كرسي مريح وأوراقي أمامي. جلسنا على أريكة وأمتعتنا تحيط بنا، وأكواب القهوة وقطعة من الكعك أو شطيرة أو أي شيء آخر أمامنا. كان لدينا متسع من الوقت قبل موعد قطارنا، فنهضنا لننزل إلى الأرصفة التي تقع أسفل منطقة المقهى ويمكن رؤيتها من النوافذ البانورامية الكبيرة للمحطة. وبينما كنا نخرج، نحمل حقائبنا وأمتعتنا، بدأ الثلج يتساقط على القضبان والأرصفة حيث سيصل قطارنا قريبًا.

تساقط الثلج بغزارة، على شكل رقائق كبيرة تدور في كل اتجاه، بتردد بسبب حجمها. لم يكن قطارنا قد وصل بعد، لذا وقفنا عند النافذة، نراقب رقائق الثلج الضخمة وهي تتساقط على الأسطح وقضبان السكك الحديدية. تجمع مسافرون آخرون أيضًا عند النوافذ، ووقفنا جميعًا هناك، نراقب الثلج يتساقط في الخارج ويهبط على مظلات الأرصفة، وعلى القضبان الفارغة، ولا شك على الشوارع المحيطة بالمحطة، على المباني والطرق التي لم نتمكن من رؤيتها بسبب كثافة الثلج.

غطى الثلج الأجواء. وقفنا هناك كما لو كنا داخل وعاء مصنوع من الزجاج، ولكن ليس من تلك الكرات التذكارية التي يتساقط فيها الثلج على مدينة أو مبنى عند هزها، لأن الأمر هنا كان معكوسًا: لقد اهتز العالم الخارجي، بينما بقينا ثابتين وتساقط الثلج خارج المحطة، التي تحولت فجأة من محطة قطار عادية إلى معلم سياحي، مشهد ساحر.

بعد ذلك بوقت قصير، عندما خرجنا، كان الثلج قد توقف، لكن كل شيء كان مغطى ببياض ناصع: سافرنا بالقطار عبر هذا البياض، الذي سرعان ما اختفى مرة أخرى، إما لأن الثلج قد ذاب أو لأننا وصلنا إلى أماكن لم يتساقط فيها الثلج، لا أعرف، لأننا لم نكن نولي اهتمامًا كبيرًا للمناظر الطبيعية حينها. بمجرد أن استقررنا في القطار شبه الفارغ، مع طاولة بيننا، أخرجنا بعض مشترياتنا من حقائبنا. أتذكر أنني كنت

أتصفح كتيبًا صغيرًا بعنوان " De Analysi aquarum frigidarum"، وأتذكر أيضًا نسخة من " Traité des affinités chymiques"، مترجمة من اللاتينية إلى الفرنسية، لكن كلاهما من تأليف كاتب سويدي، بيرغمان أو بيرغسون، على ما أظن. ربما أتذكر هذين الكتابين لأنهما كانا من بين مشترياتنا الخاسرة، وثبت أنه من المستحيل تقريبًا بيعهما. استغرق بيع أول هذه الأعمال عدة سنوات، أما الثاني فلم يُبَع قط، ربما لأنني لم ألحظ أنه كان ينقصه لوحتان كان من المفترض أن تكونا مثبتتين في آخر الكتاب. في النهاية، أهديناه إلى ليزا كهدية عيد ميلاد، بعد أن بدأت دراسة الكيمياء. لا أتذكر عناوين الكتب الأخرى التي اشتريناها، لكنني أتذكرها كأنها مجلدات عُثر عليها بين أكوام الثلج.

لعل هذا هو سبب مجيئي إلى هنا. كنتُ أفكر في الشتاء، لكن لا ثلج اليوم ولا شتاء في الأفق، إلا إذا كانت الشموع على الطاولات تُشير إلى قدومه. يملأ جوّ نوفمبر المكان. حتى أنني أشعر به في الكرسي الوثير الذي لجأت إليه، بعيدًا عن آثار المسافرين، حيث أجلس أُقلّب أوراقي البيضاء وأكتب عن الثلج، لأنني لم أبدأ بعد باستخدام دفتري الأخضر ذي الغلاف القماشي. أكتب بلا سطور ولا اتجاه على كومة صغيرة من الورق، مستندًا إلى حافظة، مع أن الدفتر سيكون أسهل استخدامًا على الكراسي، وعلى طاولات المقاهي، وعلى مقاعد القطار. ومع ذلك، أواصل الكتابة، مدركًا أن أوراقي المتناثرة قد...

يحتوي على أملي الأخير بأن يكون هذا الخلل في الزمن مؤقتًا فقط، والأمل في ألا تُملأ الصفحة التالية أبدًا، لأن الوقت سيعود إلى طبيعته ولن يكون هناك المزيد من أيام الثامن عشر من نوفمبر للكتابة عنها.

لم أعد أؤمن بأن الزمن سيعود فجأة إلى طبيعته، بالطبع، لكن لا يزال عليّ أن أضع هذا الاحتمال في الحسبان. في اللحظة التي أكتب فيها السطر الأول في دفتري، سأكون قد منحت أيام نوفمبر الإذن بالاستمرار، سطرًا تلو الآخر، صفحة تلو الأخرى، حتى يمتلئ الدفتر بأجزاء من ثمانية عشر جزءًا من نوفمبر. هذا عدد كبير من الصفحات، وعدد كبير من الأسطر، ولا أستطيع التفكير في المستقبل البعيد. أريد الهروب من نوفمبر إلى عالم ذي فصول. أريد الثلج والصقيع على العشب، وربما بضعة أيام من الصقيع الشديد، ليس بالضرورة شتاءً قطبيًا أو أكوامًا كثيفة من الثلج، بل ببساطة الشتاء كما أعرفه: أيام باردة وحدائق ببذور جافة وسحابة بيضاء، وليالٍ بسماء باردة مرصعة بالنجوم قد تجلب الثلج في مناسبات نادرة. أريد عواصف يناير والصقيع. أريد برگًا مغطاة بطبقات رقيقة من الجليد تتشقق عند الدوس عليها. ورياحًا عاتية. رياح شتوية عاتية. رياح جليدية. وأريد ثلجًا

كالثلج الذي يتساقط على حديقة سيلتر القديمة، يكفي لتغطية الكراث بطبقة رقيقة من البياض، ويجعل السلق السويسري ينمو طريًا، بقلوب رقيقة مجعدة لا تنمو أكثر حتى يزول الصقيع. والربيع الذي يليه. أريد نسائم ربيعية باردة ورياحًا ألطف. أريد مارس وأبريل وشمس ربيعية منخفضة. أريد ضوء شمس ناعم وأيام عيد الفصح. أريد مايو وهواءً دافئًا. أريد يونيو ويوليو وأغسطس، ولكن فقط إذا أتت بعد الشتاء والربيع. أريد الصيف وشاطئ البحر. أريد أيامًا مشمسة ساطعة وأمسيات دافئة. أمسيات يمكنك فيها الجلوس في الخارج عند منتصف الليل والاستماع إلى الظلام. أريد أواخر الصيف وأوائل الخريف، أريد ضباب صباح سبتمبر، وسماء أكتوبر الصافية وأوراق الشجر المتساقطة، لأن الوقت قد مضى. أريد أن تعود الفصول إلى نصابها، وأن تكون موثوقة، وأن تتحرك بخطوات طويلة وبطيئة عائدة إلى ترتيبها الصحيح.

لا أدري لماذا لم أتحقق من توقعات الطقس قبل نزولي من القطار، كان عليّ أن أعرف أنه لن يكون هناك شتاء على بُعد ساعات قليلة شمالًا، والآن أجلس على كرسيّ في زاوية المحطة، أفكر في الشتاء، لكن عليّ المضي قدمًا، لن أجد الشتاء هنا. أجد أصوات محطة القطار: إعلانات مكبرات الصوت، أزيز آلات القهوة، رنين الأكواب، صوت قطار خافت

أتوقف. أجلس هنا وأرى المسافرين، والمعاطف الخفيفة التي لا تكفي للشتاء، والأوشحة المربوطة بشكل غير محكم، وحقائب الظهر الخفيفة وحقائب الكتف، وكل ما حولي هو نوفمبر، لكنني سأخرج بعد لحظات لأبحث عن قطار متجه شمالًا. لقد اشتريت تذكرة إلى كوبنهاغن، حيث سأغير القطار إلى مالمو، ومن ثم سأكون في السويد، وحينها سأكون حتمًا في طريقي إلى الشتاء. في طريقي إلى ما يشبه ديسمبر، شيء قد يرشدني إلى يناير. وإلى فبراير. آمل ذلك.

في طريقي إلى القطار، ساءت الأمور. لم أكن قد وصلت حتى إلى الرصيف. بالكاد نهضت من مكاني في المقهى حتى انزلقت. ليس لأنني لم ألحظ فرق الارتفاع: درجة تنزل من مكاني المنعزل إلى ردهة المحطة. ربما كان السبب أنني رفعت حقيبتي على كتفي، مما أدى إلى تغيير مركز ثقلي، عندما وطأت قدماي أرضية الردهة، أو هكذا ظننت، لأنني هبطت بشكل خاطئ، وعلقت قدمي بحافة الدرجة، وانثنت ساقي، وفقدت توازني، وانقلبت على قدمي، واستدرت وسقطت، أنا وحقيبتي، على الأرضية الحجرية. لم أُصب بأذى كبير من السقوط، ولكن عندما نهضت اكتشفت أنني لويت كاحلي بشدة لدرجة أنني لم أستطع وضع أي وزن عليه. ساعدني بعض المارة على الوقوف

وأجلسوني بجوار طاولة مرتفعة لأستند عليها. طمأنتهم بأنني بخير، وأنه لا داعي للقلق.

بعد دقائق من التعافي، تمكنت من وضع ما يكفي من وزني على قدمي لأعرج نحو الرصيف رقم 4، حيث كان من المقرر أن ينطلق قطاري. لحسن الحظ، وصلت في الوقت المناسب، ومن خلال النافذة رأيت أن قطاري لم يصل بعد. عبرت إلى السلم المتحرك ونزلتُ به إلى الرصيف، حيث كان قطاري يدخل للتو.

كان لا يزال هناك متسع من الوقت قبل المغادرة، فمشيتُ متعرجًا على جانب القطار باحثًا عن عربتي. تمكنتُ من تحديد موقعها، وسحبتُ قدمي وحقيبتي إلى داخل القطار، ووجدتُ مقعدي قبل أن ينطلق. المقعد المجاور

كانت سيارتي فارغة، لذا رتبت نفسي بحيث كان ظهري إلى النافذة، وأزلت الحذاء من قدمي المصابة ووضعته على المقعد الفارغ.

خلال الساعة التالية، تورم كاحلي بشدة لدرجة أنني اضطررت للتوقف عن محاولة ارتداء حذائي الطبي مجدداً مع اقترابنا من كوبنهاغن. كان الألم شديداً لدرجة أنني فقدت أي فكرة عن مواصلة الرحلة إلى السويد. صعدت السلم المتحرك إلى ردهة المحطة، ومن مكتب الاستعلامات، تلقيت إرشادات إلى صيدلية حيث يمكنني شراء ضمادة وربما بعض المسكنات، وإلى فندق يمكنني قضاء الليلة فيه.

في الصيدلية، التي لحسن حظي كانت قريبة من المحطة، اشتريت مسكنات للألم وضمادة مرنة لقدمي، لكن نصحوني أيضاً بزيارة الطبيب لأن كاحلي، بالنظر إلى حجمه، قد يكون أكثر من مجرد التواء. حذرتني البائعة بينما كنت أحاول دفع ثمن مشترياتي واقفة على ساق واحدة، وحذائي في يدي، من احتمال وجود كسر أو تمزق في أحد الأربطة. على أي حال، من الأفضل إراحة القدم ورفعها، على وسادتين مثلاً. أعطتني رقم هاتف الطبيب المناوب وعنوان قسم الطوارئ.

جلستُ على مقعد منخفض في الصيدلية، ولففتُ الضمادة حول قدمي، ثم خرجتُ إلى الشارع، وسرعان ما وجدتُ الفندق، الذي كان على بُعد دقائق قليلة سيرًا على الأقدام. عبرتُ طريقًا واسعًا، وحددتُ مدخل الفندق، ودخلتُ وتوجهتُ إلى مكتب الاستقبال، وما زلتُ ممسكًا بحذائي، ولكن هذه المرة كانت الضمادة حول قدمي تُفسر الأمر. كنتُ محظوظًا، فقد كانت لديهم بعض الغرف الشاغرة، وبعد أن شرحتُ مرة أخرى مشكلتي مع منتجات التنظيف، استلمتُ بطاقة مفتاح غرفة لم تُشغل منذ يومين بسبب تلف بسيط في السقف نتيجة تسرب مياه. صعدتُ بالمصعد إلى غرفتي، وابتلعتُ حبتين من

مسكنات الألم، واستلقيتُ على السرير وقدمي على وسادة، ونظرتُ إلى بقعة التلف الناتجة عن تسرب المياه، وهي بقعة داكنة في زاوية السقف.

لم أنم جيدًا الليلة الماضية، ولم أتناول الفطور هذا الصباح. عاد الألم، الذي خفّ قليلاً مساء أمس، خلال الليل، ورغم أنني تناولت بعض المسكنات من الصيدلية، فلا أظن أن هناك مفرًا من الذهاب إلى قسم الطوارئ. لم يأتِ الشتاء بعد، ولم أسافر شمالًا.

أو بالأحرى: لم أذهب شمالاً بما فيه الكفاية، والآن أجلس أنتظر مفعول الحبوب. نمتُ بفستاني الصوفي، لكن هذا لا يعني أننا في فصل الشتاء. الجو دافئ هنا، وبعد قليل سأخلع هذا الفستان، وأخرج الفستان القديم من حقيبتي، وأذهب إلى قسم الطوارئ.

اضطررت للانتظار قليلاً، ولكن ليس بالقدر الذي توقعه موظف الاستقبال في الفندق، والآن عدت إلى غرفتي في الفندق، وقد تم وضع ضمادة جديدة لي، بالإضافة إلى بعض المعلومات المفيدة.

استقللت سيارة أجرة إلى قسم الطوارئ، وقضيت ساعتين في غرفة الانتظار، وبعد فحص سريع، جلست في ممر طويل أنتظر دوري لإجراء الأشعة السينية. لم يعتقد الطبيب أن قدمي مكسورة، لكنه قال إنه يجب فحصها من باب الاحتياط.

على أحد الكراسي الأخرى في الممر الطويل، جلست امرأة في مثل سني تقريبًا، أو ربما أكبر قليلًا، مع طفل أصيب. انقلبت دراجة المرأة المخصصة لنقل البضائع عندما ضغطت على الفرامل عند إشارة المرور الحمراء، فسقط ابنها من الصندوق الأمامي وانحشرت يده تحته. صرخ صراخًا مدويًا، أعلى مما سمعته منه طوال سنوات عمره الخمس. قالت إنه لم يبكِ كثيرًا من قبل، لكن هذه المرة بكى بشدة، وخافت أن يكون قد كسر يده، فذهبت بدراجتها مباشرة إلى قسم الطوارئ، الذي لم يكن بعيدًا، والآن يجلسان هناك، مثلي، في انتظار إجراء صورة أشعة سينية. توقف الصبي عن البكاء، لكن يده كانت متورمة، فجلسنا هناك مع إصاباتنا، نتبادل الحديث عن تجاربنا. كان الصبي يتحدث الإنجليزية، فقد التحق بروضة أطفال دولية عندما كانت والدته تدرس في هولندا، وقد أبدى فجأة اهتمامًا كبيرًا بكاحلي المصاب. هل بكيت عندما حدث ذلك؟ لماذا لم أذهب مباشرة إلى قسم الطوارئ عندما أصبت؟ وهل جلستُ فعلاً وقدمي مرفوعة على مقعد القطار؟ نظر إلى والدته، التي من الواضح أنها لا تسمح للأطفال بوضع أقدامهم على المقاعد. أكدتُ له أنني خلعتُ حذائي أولاً، فأومأت والدته موافقةً. كانت تعمل في مجال الأرصاد الجوية، وكانت

تصطحب ابنها إلى الروضة قبل ذهابها إلى عملها في معهد الأرصاد الجوية عندما وقع الحادث.

تحدثنا قليلاً عن الطقس وسعيي لقضاء أيام أكثر برودة، ولدهشتي وجدت نفسي أخبرها أنني أعمل في شركة إنتاج أفلام، وأنني أبحث عن مواقع تصوير محتملة لفيلم سيُصوّر في نوفمبر من العام المقبل، ويتضمن مشاهد من فصول مختلفة. قلتُ إن مشاهد الخريف ستُصوّر في فلاندرز، لكنني الآن أتجه شمالاً للعثور على مواقع لمشاهد الشتاء. يجب أن تكون أماكن ذات احتمال معقول لتساقط الثلوج في نوفمبر.

لدهشتي، صدّقت قصتي، وبما أننا كنا ننتظر على أي حال، أخرجت حاسوبها المحمول من حقيبتها وبدأت تبحث عن الثلج. وجدت بقعتين في السويد والنرويج، وبعد دقائق قليلة، عندما استُدعي ابنها لإجراء أشعة سينية، طلبت مني الانتظار حتى عودتها. بعد ذلك بوقت قصير، استُدعيتُ أنا أيضًا وأُجريت لي أشعة سينية على قدمي. لم يكن هناك كسر، لكن كاحلي كان ملتويًا بشدة. توقعت أن يستغرق شفاؤه عدة أسابيع، ولم يكن بوسعي فعل الكثير سوى إراحته قدر الإمكان. وُضع ضماد جديد على قدمي، ثم وُضع فوق الضماد حذاء بلاستيكي لأتمكن من الخروج حتى بدون حذاء.

لم يُصب ابن خبيرة الأرصاد الجوية بأي أذى، وبما أنها أبلغت مكتبها مسبقًا أنها لن تحضر إلى العمل ذلك اليوم بسبب الحادث، اقترحت أن نذهب إلى مقهى ونلقي نظرة فاحصة على فصول السنة. كانت قد وعدت ابنها بآيس كريم. قلتُ إنني متأكد من إمكانية ترتيب ذلك، واقترحتُ أن آخذهما لتناول الغداء.

بعد ذلك بوقت قصير، كنا نجلس في مقهى نتناول القهوة والسندويشات والآيس كريم لابن خبيرة الأرصاد الجوية. بعد أن انتهينا من سندويشاتنا، وبعد أن أكلت خبيرة الأرصاد الجوية نصف آيس كريم ابنها، بدأت بالبحث عن توزيع تساقط الثلوج في الدول الاسكندنافية وإحصائيات الثلوج في شهر نوفمبر. أرتني عددًا من المواقع الإلكترونية التي يمكنني استكشافها بنفسي لاحقًا. قالت إنه إذا كان لديّ ذاكرة فلاش، فبإمكانها نقل كل ما وجدته إليها، ويمكنني متابعة الأمر من هناك. قلتُ لها إنني لا أملك ذاكرة فلاش، لكن يمكنني الخروج وشراء واحدة، وربما آخذ ابنها معي. لقد رأيت متجرًا للألعاب في طريقنا إلى المقهى، وفكرتُ أننا قد نجد هدية له أثناء عملها.

كان الصبي متحمساً جداً للذهاب إلى متجر الألعاب، فأمسك بيدي دون تردد وأخبر والدته أننا سنذهب لنلقي نظرة على الألعاب. وافقت،

مع بعض التردد، وغادرنا المقهى وسرنا في الشارع إلى متجر الألعاب الصغير، كنت أعرج وهو يمشي ويده ملفوفة بضمادة.

في طريقنا إلى هناك، تحدثنا عن رياض الأطفال، وأخبرني بلغة الأطفال الإنجليزية عن الاختلافات بين رياض الأطفال الهولندية والدنماركية. أخبرته عن روضة الأطفال البلجيكية التي أرتادها، ثم تطرقنا إلى أن كلمة "رياض الأطفال" في الأصل كلمة ألمانية تعني "حديقة الأطفال". وسرعان ما انخرطنا في حديث مطول عن حدائق الأطفال، وعن الحدائق المخصصة للأطفال، ولماذا يمكن تسمية روضة الأطفال بحديقة.

بعد جولة في متجر الألعاب، فاجأني الصبي باختياره مرش ماء أحمر اللون بنقاط بيضاء بدلاً من إحدى علب مكعبات البناء أو مجسمات الألعاب البلاستيكية الكثيرة. أضفتُ مجرفة صغيرة وأربع بذور خضراوات، وضعها له البائع المساعد في حقيبة تسوق. بعد زيارة متجر إلكترونيات قريب، عدنا إلى المقهى. كان معي الآن ذاكرة فلاش، وفكرتُ للحظات في شراء حاسوب محمول، لكن ربما لم يكن بإمكاني الاحتفاظ ببياناته، فتراجعتُ عن الفكرة.

بعد ذلك بوقت قصير، عندما عدنا إلى المقهى، نظر ابن خبير الأرصاد الجوية - الذي كان يحمل حقيبة متجر الألعاب بعناية في يده المُضمّدة، وإبريق الري في الأخرى - إلى والدته وكأنه غير متأكد مما ستقوله عن هذه الهدية. كانت سعيدة للغاية لرؤيته يستخدم كلتا يديه دون ألم، وابتسمت لرؤية إبريق الري. أخبرتني أنهم يُنشئون حاليًا حديقة مطبخ مشتركة في الفناء الخلفي للمبنى الذي يسكنون فيه.

أعطيتها ذاكرة الفلاش، فأطلعتني على تفاصيل الرسوم البيانية لدرجات الحرارة والملفات التي جمعتها. لقد وجدت عدة أماكن شهدت تساقط الثلوج في نوفمبر من كل عام على مدى السنوات الخمس الماضية. عادةً، كان عليك التوجه شمالًا لمسافة بعيدة للتأكد من وجود الثلج، ولكن في الوقت الحالي، كان هناك بعض الثلج بالفعل في جنوب السويد. في ذلك الصباح بالذات، كان هناك ثلج على الأرض في لوند، على بعد أميال قليلة من الداخل. بوصة واحدة،

قالت، لكن درجة الحرارة ارتفعت منذ ذلك الحين، لذا كان الثلج سيذوب بحلول نهاية اليوم. وشهدت ستوكهولم أمطارًا، ثم صفاءً للسماء وصقيعًا في الليل. لم يكن هذا أمرًا غير معتاد، لكنه لم يكن شيئًا يمكنني الاعتماد عليه. إذا أردت التأكد من وجود الصقيع والثلج، فسيتعين عليّ الذهاب إلى أقصى الشمال، ولكن من وجهة نظر الأرصاد

الجوية البحتة، لا ينبغي أن تكون هناك مشكلة في إيجاد مواقع مناسبة.

كما اطلعت على أحوال الطقس في فصلي الربيع والصيف. ووجدت إحصائيات لمناطق مختلفة، بالإضافة إلى بعض خرائط الطقس الدقيقة. كانت الاحتمالات كثيرة. بالنسبة لمشاهد الربيع، اختارت أماكن تشهد عادةً هطول أمطار غزيرة، وبالتالي لا تكون جافة جدًا، لكنها لم تستطع الجزم ما إذا كانت أي منها ستكون رطبة بما يكفي لإضفاء جو الربيع. بالطبع، يمكن السفر إلى نصف الكرة الجنوبي، حيث قد يكون الربيع في نوفمبر. كان جنوب إنجلترا خيارًا أكثر وضوحًا. فقد كانت هي نفسها في كورنوال في إجازة، حيث كان طقس الخريف دافئًا لدرجة أن مربي الأغنام بدأوا في جلب حملانهم إلى العالم في منتصف الخريف بدلًا من حملان الربيع التي تفضل الطبيعة إنتاجها. وقالت إن الحقول كانت تنبض بجو ربيعي تقريبًا، مع كل تلك الحملان حديثة الولادة.

كان الطقس الصيفي متوفراً في عدة مناطق جنوباً. وقد حددت بعض المواقع التي تتمتع بما يعتبره سكان شمال أوروبا طقساً صيفياً نموذجياً: دافئاً نسبياً، مع سطوع الشمس، وبعض الغيوم المتفرقة، ودرجة حرارة مياه تقارب 19 درجة مئوية. وقد حددت منطقتين في جنوب إسبانيا اعتقدت أنهما مناسبتان لهذا الطقس. وتشير التوقعات الحالية إلى ليالٍ معتدلة وأمسيات هادئة، وكانت على يقين تام بإمكانية إيجاد بعض المواقع الصيفية.

لم تستطع ضمان أن طقس العام المقبل سيتبع النمط الإحصائي، لكنه سيكون بمثابة دليل إرشادي على الأقل. شكرتها. قلت لها إنها لا تدرك مدى أهمية هذه المساعدة، وأخبرتها قليلاً عن الفيلم. قلت إن القصة تمتد على مدار عام، من خريف إلى خريف، وتروي حكاية رجل تُرك وحيدًا بعد وفاة زوجته، لكنه استمر في زراعة الخضراوات بنفس الكمية التي كان يزرعها في حياتها. يتناول الفيلم الأشخاص الذين التقاهم في مساعيه لتوزيع فائض إنتاج حديقته. كنا بحاجة إلى استخدام حدائق من الفصول الأربعة، لكن لم يكن لدينا سوى أسبوعين لتصوير المشاهد الخارجية، لذلك كان علينا..

التكيّف مع تقلبات الطقس. أراد خبير الأرصاد الجوية معرفة ما إذا كنا سنعرض خضراوات في مراحل نمو مختلفة في مواقع التصوير، وكيف سنحلّ هذه المشكلة. قلتُ إننا لم نقرر بعد، لكن ربما نستطيع الحصول على بعض الخضراوات وزراعتها عندما نكون جاهزين لتصوير المشاهد. لا أدري من أين أتت أكاذيبي. لم أكن أكذب قط، لكن ها أنا ذا، أُصوّر فيلمًا لم يكن موجودًا.

لحسن الحظ، بدأت خبيرة الأرصاد الجوية بعد ذلك بالتأمل في علاقتنا الغريبة بالفصول. تحدثت عن الفصول الفلكية والفصول المناخية، وعن تقسيم السنة التقويمية إلى فصلي الربيع والصيف، وعن دهشة الناس عندما لا تتوافق الظواهر الجوية مع التقويم، على الرغم من أن الجميع يعلم أن أي محاولة لمزامنة الطقس مع إمكانية التنبؤ بالكواكب والتقاويم هي محاولة عبثية.

لكنها لم تكن تعتقد أن الفصول يمكن اعتبارها ظواهر جوية. قالت إن درجة الحرارة والهطول ظواهر جوية، كالبرد والحر، والأمطار الغزيرة والجفاف. أما الفصول؟ فقد رأتها أقرب إلى الظواهر النفسية. الذاكرة تتراكم، والصور النمطية المقبولة، وربما تجمعات من التجارب والمشاعر. يتساءل الناس عما إذا كان الصيف سيحل قريبًا، رغم أننا في منتصف يوليو، لمجرد أن الصيف كان باردًا. وأضافت أنه يُتوقع من عالم الأرصاد الجوية تقريبًا تقديم توقعات لأحوال جوية محددة في أوقات محددة من السنة، صيف حقيقي، وشتاء حقيقي. وكأنك لم تُنجز عملك حتى تُقدم نوعًا معينًا من الطقس. ألن يكون لدينا شتاء هذا العام؟ وكأن الفصول مفهومٌ ما نحمله معنا، ربما منذ الطفولة، مع ثلج الشتاء وشمس الصيف. أو ربما ليس هذا هو الحال. ربما لا توجد الفصول البشرية إلا في الأفلام أو في ألبومات صورنا، خاصةً إذا كان لديك أطفال. لقد فعلت ذلك بنفسها: التقطت صورًا للفصول النموذجية. لاحظت أنها تلتقط المزيد من الصور عندما ترقى الفصول إلى مستوى توقعاتنا: صور للثلوج في الشتاء والشمس الساطعة في الصيف، ويوم حار على الشاطئ، وأوراق الشجر الحمراء والصفراء وطفل يرتدي حذاء مطري في الخريف - ودائمًا ما تلتقط صورًا بالصنادل في الصيف، حتى في الصيف الذي كانت فيه معظم الأيام أيامًا مناسبة لارتداء الأحذية المطرية. كما لو أننا

كان لدينا نماذج للفصول، وعندما تتطابق جميع العناصر، نلتقط صورة. وكأنّ دقة توقيت الطقس حدثٌ بحدّ ذاته. قالت: "إذا كان الشتاء في فيلم، فلا بدّ من وجود قليل من الثلج، أو الصقيع. حتى لو كانت أحداث الفيلم تدور في جنوب أوروبا، فستكون هناك رشة من البياض، لتُعلمنا بقدوم الشتاء".

أنا أيضاً، لم أكن أحتاج إلا إلى قليل من الثلج. رشة من البياض. ما يكفي فقط لكي لا يبقى الخريف. بعض رؤوس الزهور الذابلة المغطاة بالثلج أو الصقيع ستكون كافية. شجرة عارية ترسم ظلالها على خلفية سماء المساء. بضعة صفوف من الكراث تتناثر عليها بقع بيضاء، وربما دفيئة مغطاة بالثلج. برك ماء مغطاة بطبقة رقيقة من الجليد تتشقق عند الدوس عليها، هكذا قلت.

بدا هذا الأمر مسلياً لها. نظرت إلى الصبي الذي صعد إلى حجرها وفتح الصندوق الذي يحتوي على أكياس البذور. تحدثنا عن الربيع واخضرار الحقول. لكن في الواقع، كما قالت، تُزرع معظم الحقول في الخريف، وتنبت البذور وتخضر الحقول حينها، ومع ذلك نربط الخريف بالحقول البنية وكل النمو الأخضر بالربيع.

أخبرتهم أن بعض البذور الموجودة في أكياس الصبي يمكن زراعتها الآن. إذا زرعوا بذور القرنبيط في أصص في الخريف، يمكن نقل الشتلات إلى الأرض لاحقًا ليحصلوا على قرنبيط مبكر. إذا حالفهم الحظ، سيتمكنون من قطف القرنبيط قبل أن تفقس اليرقات وتأكله كله. إذا كان لديها شرفة، فيمكنها وضع النباتات هناك بمجرد أن تنبت، أو يمكنها وضعها في الفناء الخلفي وتغطيتها في الشتاء إذا كان الجو باردًا جدًا. تذكرت أنني أنقل إحدى نصائح جد توماس في البستنة. كان دائمًا يزرع القرنبيط في الخريف. لم يبدُ ذلك منطقيًا لخبير الأرصاد الجوية. قلت: نعم، حقًا، يمكنك ذلك. خطر لي أن الجو في كوبنهاغن الآن دافئ تقريبًا كما كان في كليرون عندما كان سيلتر صغيرًا، على الرغم من أن نوفمبر قد يكون متأخرًا بعض الشيء. كانت زراعة القرنبيط في الخريف مُدرجة في خطة البستنة الخاصة به في الحظيرة، وقد رأيناه أنا وتوماس يتفقد أواني النباتات المغطاة خلال فصل الشتاء، لكننا لم نجرب ذلك بأنفسنا بعد. من الصعب زراعة البذور عندما تكون الطبيعة في حالة ركود.

بعد أن تبادلنا بعض الكلمات عن الحدائق والشتلات وشرفة ستستخدمها لزراعة القرنبيط، ناولَتني خبيرة الأرصاد الجوية ذاكرة التخزين الخاصة بي واستعدت للمغادرة. ساعدت ابنها في إدخال يده المُضمَّدة في كم معطفه. كان من الواضح أنها شعرت بالارتياح لأنه لم يُصب بأذى أكبر، وقالت إنها تأمل أن تتحسن قدمي قريبًا. بعد دقيقة، في الشارع، ودّعناها وشكرتها مجددًا على مساعدتها وذكّرتها بالقيادة بحذر. لم يكن عليهم الذهاب بعيدًا، في الواقع كنا نقف عند التقاطع الذي وقع فيه الحادث، وكان منزلهم على بُعد مسافة قصيرة في الشارع، كما أخبرتني، قبل أن تُريني الطريق إلى موقف الحافلات حيث يمكنني ركوب حافلة إلى وسط المدينة.

بينما كنت أنتظر الحافلة، شممتُ رائحة شتوية خفيفة. لم تكن السماء تمطر، لكن الهواء كان رطباً. شعرتُ بالبرد وأنا أرتدي ملابسي بدون فستاني الصوفي، وقدمي مغطاة بضمادة وحذاء بلاستيكي فقط. عندما صعدتُ إلى الحافلة، خطر لي أن الطقس هنا ربما كان أشبه بيوم من أيام ديسمبر في بروكسل أو كليرون. كان الظلام يخيّم، وشعرتُ بالفعل أن صديقي خبير الأرصاد الجوية قد دلّني على طريق الشتاء.

عدتُ إلى غرفتي في الفندق، وأخرجتُ ذاكرة التخزين من حقيبتي. ثقتي بالتكنولوجيا في الثامن عشر من نوفمبر ضئيلة، ولا أملك أي أمل كبير في العثور على أي بيانات على ذاكرة التخزين غدًا. لحسن الحظ، يوجد جهاز كمبيوتر في ردهة الفندق، وبعد قليل سأحمل دفتري الأخضر إلى الطابق السفلي، وأستخرج المعلومات التي أحتاجها من ذاكرة التخزين، وأدوّنها. ليس لفيلم، بل للفصول التي تنتظرني في مكان ما في الثامن عشر من نوفمبر.

رقم 408

عندما استيقظت هذا الصباح ونزلت إلى ردهة الفندق، وجدتُ، كما توقعت، أن ذاكرة الفلاش فارغة تمامًا. كنت قد أمضيت معظم المساء على جهاز الكمبيوتر في الفندق، ونسخت جميع المعلومات المهمة في دفتري الأخضر. في مكتب الاستقبال، تمكنت من الحصول على نسخ مطبوعة من رسوم بيانية لدرجات الحرارة وجداول تساقط الثلوج، طويتها ووضعتها في الدفتر. ولضمان سلامة بياناتي، نمتُ وكل هذه الأشياء، بما فيها ذاكرة الفلاش، تحت وسادتي. كانت الذاكرة لا تزال هناك عندما استيقظت.

لكن تبين أنها فارغة. وكما كان متوقعاً، كان دفتر الملاحظات لا يزال موجوداً، مليئاً بالملاحظات والتدوينات، مع وجود نسخ مطبوعة مطوية من الجداول والرسوم البيانية مطوية في الجزء الخلفي منه.

كانت قدمي لا تزال متورمة ومؤلمة، وتناولت فطوري وأنا أرتدي حذاءً طبيًا في إحدى قدميّ والضمادة في الأخرى. بعد أن انتهيت، عدت إلى غرفتي، وخلعت الضمادة، وتوجهت متعرجًا إلى أقرب متجر أحذية، حيث اشتريت زوجًا من الجوارب السميكة وحذاءً طبيًا أكبر من مقاسي بمقاس واحد. يحتوي الحذاء على سحابات وأربطة، ومع ارتداء جورب صوفي في إحدى القدمين وترك سحاب الحذاء الآخر مفتوحًا، كان مقاسه مناسبًا تمامًا. وهكذا أصبحت الآن مستعدًا للشتاء. أسير ببطء، وأعرج، لكنني لا أشعر بالبرد أو البلل، وغدًا سأواصل رحلتي شمالًا.

409

عندما استيقظت هذا الصباح، كان التورم قد انخفض قليلاً، والآن أستطيع إغلاق سحاب حذائي. أمشي ببطء، وأربط رباط حذائي بشكل غير محكم، لكنني أستعد لفصل الشتاء، وبعد أن حزمت حقيبتي وتركت حذائي القديم في خزانة الفندق، توجهت بخطوات متثاقلة إلى المحطة، حيث اشتريت تذكرة إلى لوند.

لقد حجزت بالفعل غرفة فندق شاغرة، بعد أن تحدثت إلى موظف الاستقبال بعد الساعة الخامسة بقليل هذا الصباح وطلبت المساعدة في حجز غرفة في فندق في لوند مع وقت تسجيل الوصول في الساعة السابعة صباحًا. ثم، بعد الساعة السابعة بقليل، طلبت من موظف الاستقبال الذي وصل حديثًا في الصباح المساعدة في تأخير تسجيل وصولي إلى لوند حتى منتصف الصباح، لذلك يمكنني الآن أن أكون متأكدًا تمامًا من أن غرفتي لن تكون مشغولة عندما أستيقظ في الثامن عشر من نوفمبر.

تحدث خبير الأرصاد الجوية عن تساقط الثلوج صباحًا، ولكن عندما وصلتُ قبيل الظهر بقليل، كان الثلج قد ذاب تقريبًا. لا بأس، فأنا أشعر ببرودة في الهواء، إنه هواء الشتاء، وأتوقع تساقط الثلوج مجددًا صباح الغد. شققتُ طريقي بحذر عبر الشوارع المبتلة، ورأيتُ بقعًا صغيرة من الثلج في إحدى الحدائق. فكرتُ في ديسمبر ويناير. إذا أحصيتُ الأيام، سأصل إلى الحادي والثلاثين من ديسمبر.

أجلس في غرفةٍ تُطلّ على أسطحٍ خاليةٍ من الثلج، لكنني أنتظر الثلج. أنتظر الشتاء. بصبرٍ، لأني أعلم أنه قادم. في داخلي

لقد كتبت في دفتر الملاحظات الأخضر بتاريخ 31 ديسمبر، قد يكون هذا كذباً، كذبة بيضاء، كذبة شتوية، لكنني أكتبه هنا فقط، على ورقة، وبعد قليل سأخرج لشراء زجاجة شمبانيا وسأحتفل بأكاذيبي البيضاء الصغيرة وأتمنى عاماً جديداً مع الشتاء والربيع والصيف.

رقم 410

استيقظتُ على الثلج. رأيته حالما فتحت عيني: أبيض، يكاد يكون مائلاً للزرقة، يتسلل ضوءه من النافذة، والأسطح خارج نافذتي مغطاة بالثلج. غرفتي في الطابق الرابع من فندق صغير في وسط المدينة، وكنت أرى الثلج من سريري لأني لم أغلق الستائر. نهضتُ لأحضر دفتري، ثم عدتُ إلى تحت اللحاف وكتبتُ الأول من يناير. كتبتُ ثلجًا وشتاءً. كتبتُ السويد ولوند، عنوان فندقي ورقم غرفتي. كتبتُ أن الثلج كان يغطي الأسطح، وبعد أن خرجتُ إلى المدينة، كتبتُ عن البرد والشوارع المبتلة التي كان الثلج يذوب عليها بينما كنتُ أتجول ببطء مرتديًا حذائيّ الكبيرين قليلاً، اللذين كنتُ قد وضعتهما في حقيبة عند أسفل سريري طوال الليل. لم أكتب أنهما كانا في حقيبة، لكنني كتبتُ عن مكان بيع القفازات وعن وجود مقهى يُقدم النبيذ الساخن.

لقد وجدتُ طريقي إلى الشتاء. إنها حياة جديدة. حياةٌ بفصولها. ليس عامًا أكثر صدقًا، يتحرك في أعماق يومي. إنه عامٌ يسير بالتوازي مع الثامن عشر من نوفمبر. أعلم أنني أبني شيئًا ما. بناءً. أحجيةً أُركّبها من

القطع التي أجدها. لكنني لا أكتب هذا في دفتري الأخضر. أكتب عن كل الأشياء التي تجعل أيامي أيام شتاء، وهناك صفحاتٌ كافية في الدفتر لأكتب عن الشتاء والربيع والصيف والخريف. لم أعد أؤمن بأنني سأستيقظ فجأةً على زمنٍ عاد إلى طبيعته. لكنني أؤمن بالفصول. رقيقة، منزلية الصنع. ليس الثامن عشر من نوفمبر هو اليوم الذي أحمل فيه دفتري الأخضر. أو على الأقل، ليس الثامن عشر من نوفمبر فقط. إنه أيضًا يوم رأس السنة. كان عيد الميلاد. كان هناك طائر وبطاطا مشوية وكعكة عيد الميلاد وحلوى عيد الميلاد، والآن هو يوم رأس السنة، وكانت ليلة أمس ليلة رأس السنة. لم يكن من السهل الحصول على الشمبانيا في

مساء نوفمبر، لكنني فعلت ذلك، وفي دفتر ملاحظاتي الأخضر كتبت اسم مطعم يبيع الشمبانيا الجاهزة، لأنني لم أجد متجرًا يبيع الشمبانيا، وكتبت nyårsafton، لأن هذا ما يسمى ليلة رأس السنة باللغة السويدية.

رقم 416

أشعر بمرور الوقت. أجد أماكن تُذكّرني بشهر يناير. بشهر يناير كما أعرفه. يناير في كليرون، ويناير في بلجيكا، ويناير في شمال أوروبا. لا أحتاج إلى الكثير من الثلج. رشة خفيفة. وقد رأيتُ ذلك بالفعل. أجد يناير في المتاجر. أجد أطباق يناير. أتناول الحساء، أو أشرب شاي التفاح والقرفة.

فجأةً أدركتُ أن هذه هي طبيعة حياتي، عامًا بعد عام. وأن كتاب فصولي هو دليلي، رفيقي في رحلتي، مرشدي. وأن ما أبنيه هو مستقبلي. إذا أردتُ مستقبلًا، فلا بد لي من سنوات، وإذا أردتُ سنوات، فلا بد لي من فصول. بدون فصول، لا وقت. إذا أردتُ فصولًا، فسأضطر إلى بنائها بنفسي. إذا أردتُ مستقبلًا، فسأضطر إلى بنائه بنفسي. أجمع القطع معًا، شظايا صغيرة من الفصول، وأدوّنها جميعًا في دليلي: مكونات الفصول.

الأمر ليس كحديقة. لا أزرع شيئًا، ولا أسقي، ولا أحصد. الأمر ليس كمنزل. لا أقطع الأشجار، ولا أكسر الحجارة، ولا أحرق البلاط، ولا أبني جدرانًا، ولا أضع القرميد. أجد عناصر جاهزة، قطعًا صغيرة للبناء الموسمي، وأجمع المعلومات في دفتري الأخضر، وأفكر في الأدوات، في المفكات، ومفاتيح ألين، والصواميل والبراغي بمختلف أحجامها، وأفكر في المسامير والبراغي، وفي الغراء والأسمنت، وأجمع القطع، وربما أستطيع البناء لمدة عام.

وإذا نجحت هذه الفكرة، فسأمتلك آلةً تُحاكي الفصول، هذا ما أسعى إليه. أتخيل نفسي أتنقل بين هذه الفصول، أعود إليها، وسأحتاج إلى الشتاء والربيع مجدداً. أتخيل نفسي أصنع صيفي الخاص، وأسعى نحو نموذجٍ ونمطٍ أعيش وفقهما. يغمرني شعورٌ غريبٌ بالحماس. هناك ما أتطلع إليه: إلى الربيع الذي سأصنعه بنفسي. لكن عليّ أولاً أن أعيش الشتاء. يجب أن تتلاءم الأمور. وفي الربيع، سأتطلع إلى الصيف.

424

ما زلتُ أسافر شمالًا، نحو البرد ونحو فبراير. أملأ دفتر فصول السنة بمعلوماتٍ وافية. أجدُ ثلجًا، ليس كثيرًا، لكن الجو باردٌ هنا، والشتاء ليس مجرد ثلج. ستوكهولم في نوفمبر شتاءٌ حقيقي. لا يوجد ثلجٌ هنا كما كان في لوند، رغم أنني الآن أبعد شمالًا، لكن المطر هطل ليلًا، تبعه صقيع، وإذا استيقظتُ باكرًا، أجدُ حدائقَ تتخللها ممراتٌ، وعلى هذه الممرات بركٌ صغيرة، وعلى بعضها طبقةٌ رقيقةٌ من الجليد. أستطيعُ أن أغرس قدمي في الجليد بصوت طقطقةٍ خافتة، وأتجولُ على العشب، مُصدرًا أصواتًا ناعمةً كصوت الصقيع، وأمشي بحذرٍ على العشب في حذائيّ الكبيرين قليلًا.

لا تزال قدمي تؤلمني، لكن التورم قد خفّ، والآن أرتدي جوارب صوفية سميكة في كلتا قدميّ، لأن الصوف يليق بالشتاء. والشتاء يليق بالصوف. والشتاء يليق بالأحذية الشتوية الثقيلة، وقد وجدتُ الشتاء المناسب لأحذيتي. فهي ترافقني في الحديقة، وتجتاز برك الماء الشتوية، وتسمح لي بالمشي بها قدر استطاعتي.

عندما لا أكون أسير في صقيع الصباح، مرتدياً حذاءً شتوياً، عبر البرك المتجمدة، أذهب إلى دور السينما الشتوية وأقرأ كتباً شتوية. لقد وجدت مكتبةً تضم كتباً إنجليزية، ووجدت مكتبات تبيع قصصاً شتوية، وأحياناً أصادف أفلاماً تحمل عناوين شتوية، فأجلس في عتمة الشتاء مرتدياً حذائي الشتوي لساعتين، ثم أعود إلى الخارج فأجد الشتاء لا يزال قائماً.

أدوّن كل شيء في دفتر فصولي. أكتب عناوين الكتب والأفلام، وأسماء الفنادق، وأرقام الغرف الشاغرة. أكتب كلمات بلغة الشتاء، وأقول لنفسي إنني أستطيع تعلّم السويدية، وأنني سأعود مرارًا وتكرارًا، وأنني سأحتاج إلى التحدث بلغة الشتاء. لقد اكتشفتُ أن درب التبانة يُسمى في السويدية "شارع الشتاء"، Vintergatan. يُطلق عليه هذا الاسم طوال العام، حتى في نوفمبر، لكنني لا أكتب نوفمبر في دفتر فصولي. أكتب نوفمبر على أوراق بيضاء سأعيدها إلى حقيبتي بعد قليل. هناك

ستبقى مع أوراق نوفمبر الأخرى، داخل غلاف من الورق المقوى الأسود، وخارج هذا الغلاف يكمن الشتاء.

427

ما الذي أغفلته؟ إشعال النار في المدفأة في غرفة المعيشة. لذا، وجدت غرفة معيشة بها مدفأة وحطب وأعواد ثقاب، وأشعلت النار.

ما الذي أفتقده؟ أفتقد شتاءً تكسوه طبقة رقيقة من الثلج في حديقةٍ فيها الكراث والسلق. لذا أبحث عن حديقة. أبحث عن منزلٍ خالٍ. أجد ألحفةً وبطانيات، وفي الصباح أستطيع أن أطل على حديقةٍ تكسوها طبقة رقيقة من الثلج.

ما الذي أفتقده؟ أحيانًا أفتقد الربيع، لكن لم يحن وقته بعد. عليّ الانتظار. تركت معطفي القديم، الخفيف جدًا، على طاولة المطبخ في المنزل الخشبي الذي مكثت فيه يومين، واشتريت معطفًا شتويًا دافئًا بدلًا منه، لأنني الآن أعيش الشتاء. شتاء حقيقي. شكرًا لكِ يا خبيرة الأرصاد الجوية.

J446

الآن لا أشبع من الشتاء. لم يعد يكفيني أن يشبه الشتاء كما أعرفه. لا أستطيع الاكتفاء بثلوج عابرة، مجرد رذاذ خفيف. أبحث عن جوهر الشتاء، عن الشتاء الكامل، عن الشتاء المركز. أسافر عبر الجبال، أصعد شمالاً، وأسلك طرقاً ضيقة حيث تراكمت الثلوج وكأنها ستبقى. أتأمل المناظر الطبيعية وأدوّن أسماءً في دفتري. مكاناً تلو الآخر. اسماً تلو الآخر. أسجل أسماء الشوارع والمطاعم. أكتب عناوين البيوت المهجورة ووصفات أطباق الشتاء في كتابي.

رقم 451

هذه أيام شتوية هادئة. أستيقظ على الصمت. الشتاء الآن في فنلندا، وقد دخلت في سبات شتوي. سافرت شمالًا، وأشعر ببرد سيبيريا، مع أنني لا أعرف لماذا يُوصف البرد هنا بأنه سيبيري، فهو فنلندي، وأبحث عن قواميس وأحاول تعلم لغات شتوية جديدة في منزلي، حيث لا يسكنه أحد والجو بارد، وأتدثر تحت الأغطية.

والبطانيات والبقاء ساكنين. بيتو يا فيلتيت. الألحفة والبطانيات. تالفي يا لومي. الشتاء والثلج.

أرى نفسي أعود إلى هنا عامًا بعد عام، أقضي الشتاء هنا، وفي كل عام أكتسب المزيد من الكلمات. سأجد كلمات للوسائد والملاءات وباقي أغطية الأسرة، وللأسرّة والكراسي، وللمطابخ بكل ما فيها: الأطباق

والسكاكين والشوك والأواني، سأجد كلمات للمنازل، وللأسقف والمداخن، سأضيف الأبواب والنوافذ إلى لغتي الشتوية، سأضيف الغابات والطرق والمدن، كلمات جديدة كل عام، لغة تنمو وتزدهر في البرد والثلج، وسيأتي الشتاء، ثم الربيع والصيف والخريف من جديد، وسأعود لأجد المزيد من الكلمات. شيء ما ينمو. بدأت أتخيل مستقبلًا. شكرًا لكِ يا لغة الشتاء.

J456

أتناول طعام الشتاء وأشتري ملابس الشتاء. أتنقل من مكان إلى آخر، ببطء، لكن ليس ببطء شديد، لا أطيل البقاء أبدًا، لأنني إن فعلت، أدركت أن لغتي ليست الشيء الوحيد الذي ينمو. وحشٌ ينمو أيضًا. ليس هذا ما أكتبه في كتاب فصولي. أنني ألتهم عالمي. أن عليّ الرحيل، كي لا أبتلع عالمي. أنني وحشٌ متنقل، وحش الشتاء.

رأيتُ حساءً شتوياً يُحذف من قائمة طعام أحد المطاعم لأنني تناولته هناك لعدة أيام متتالية. ورأيتُ أماكن فارغة في سوبر ماركت كنتُ قد أخذتُ منها مرطبانات من الرنجة، وخبز الجاودار، وعبوات من الجبن. أجد أماكن أخرى، وأُغيّر عاداتي الشتوية، وأتحوّل إلى الخبز الأسمر لأنه متوفر بكثرة في المتاجر، وأجد أنواعاً مختلفة من الجبن ومتاجر أكبر يصعب فيها معرفة أنني كنتُ هناك. أشقّ طريقي عبر شهر فبراير، وقد اتجهتُ شمالاً، وأواصل السفر، أسافر بالحافلة والقطار. أتحرك. ببطء ولكن بثبات خلال فصل الشتاء.

كلما اتجهت شمالاً، كلما قصرت الأيام. أستيقظ صباحاً، وأقضي يومي الشتوي، وقبل أن أدرك ذلك، يكون اليوم قد انتهى.

462

ربما سافرتُ بعيدًا جدًا في فصل الشتاء. أنا الآن في النرويج. استقللتُ القطار ووصلتُ إلى بلدة صغيرة، لكن الفندق المحلي كان مغلقًا، ولم أكن أرغب في البحث عن منازل خالية. في مقهى صغير بوسط المدينة، قدّم لي رجل مسنّ ذو لحية رمادية يرتدي مئزرًا شايًا ساخنًا وفطيرة بروكلي، وأخبرني بوجود نُزُل خارج المدينة، على بُعد حوالي عشرين دقيقة، حيث يُمكنني الحصول على سرير للمبيت. عرض عليّ الاتصال بهم والتأكد من وجود غرف شاغرة. وبالفعل، كانت هناك غرف شاغرة، وعندما انتهيتُ من طعامي، اتصل بسيارة أجرة. كانت السائقة امرأة ودودة تتحدث الإنجليزية والفرنسية بطلاقة تقريبًا، فقد أمضت عامين في تولوز في شبابها.

انطلقنا بالسيارة خارج البلدة التي لم يمضِ على وجودها سوى دقائق معدودة حتى تقلصت إلى بضعة منازل متناثرة، ثم اتجهنا نحو الطريق السريع. تحدثنا في الغالب عن الطقس، عن الشتاء الذي أصبح أكثر اعتدالًا والعواصف التي ازدادت ضراوة. أخبرتني سائقتي أن عاصفة شديدة بشكل خاص قد اقتلعت أشجارًا في المنطقة مؤخرًا. أشارت إلى الريف المجاور حيث كانت العديد من الأشجار ملقاة على الأرض وجذورها مكشوفة. أخبرتها أن عاصفة أخرى قد ضربت شمال فرنسا، لم تكن بنفس شدة العاصفة السابقة، لكن كمية هائلة من الأمطار هطلت، وكان هناك خطر حدوث فيضانات. وفي كليرون سو بوا، حيث أعيش، كما قلت، شهدنا في الماضي فيضانات في الأراضي المنخفضة على طول النهر.

بعد العاصفة، تساقطت الثلوج، كما أخبرني السائق. لحسن الحظ، تمكنوا من إزالة الأشجار المتساقطة قبل ذلك، وإلا لكان من الصعب على كاسحات الثلج المرور. لم يكن الطريق عريضًا جدًا، لكنه كان قد تم تنظيفه، وكان هناك متسع لحركة المرور وللثلوج المتراكمة على جانبه. مررنا بغابة كانت تفسح المجال أحيانًا لجدار صخري، ثم امتداد آخر للغابة. كان هناك حاجز أمان على الجانب الآخر من الطريق، وخلفه لمحتُ منحدرًا شديدًا بين الحين والآخر. كان الطريق مستقيمًا تقريبًا طوال معظم الرحلة، ولم أشعر بالارتفاع إلا عند وصولنا إلى منعطف.

كنا قد قطعنا نصف الطريق تقريبًا، وكنا نسير بسرعة كبيرة. من الواضح أن سائقتي كانت تعرف المنطقة جيدًا، وأظن أنها أرادت إنزالي والعودة إلى المدينة بأسرع وقت ممكن. شعرتُ أن لديها زبائن آخرين ينتظرون في المدينة، وأنها أخرت موعد اصطحابي المقرر لتوصيلي إلى دار الضيافة. أظن أن سيارتها هي الوحيدة في المنطقة. على أي حال، كنا نسير بسرعة، نتحدث عن فرنسا وبلجيكا، بعض الكلام بالإنجليزية، لكن معظمه بالفرنسية. ربطتُ حزام الأمان وجلستُ في المقعد الخلفي وحقيبتي بجانبي، أنظر حولي بقلق بعض الشيء لأني لم أكن يومًا من محبي السفر بالسيارة، ولا أحتاج إلى السرعة.

مررنا ببعض السيارات، ليس بالكثير، لكن الطريق لم يكن خالياً تماماً. صادفنا شاحنات وسيارات سيدان وشاحنة نقل أخشاب. كان الطريق السريع مُغطى ببقع بيضاء من الثلج، متماسكة وناعمة، معظمها على جانبنا من الطريق، وكنا نشعر باهتزاز طفيف كلما مررنا فوق إحداها، لكن هذا لم يدفع سائقي إلى تخفيف السرعة إطلاقاً، حتى عندما ظهرت شاحنة كبيرة زرقاء اللون أمامنا، قادمة نحونا على امتداد مستقيم، وخلفها موكب طويل من السيارات.

فجأة، وبينما كنا نعبر جدارًا صخريًا على يميننا، اصطدمنا ببقع ثلجية كبيرة، وقبل أن نصل إلى مستوى الشاحنة، انزلقت سيارة الأجرة، وانحرفنا عن مسارنا، وسمعنا صرخة من المقعد الأمامي في اللحظة نفسها التي ضغطت فيها السائقة على الفرامل، صرخة، أو بكاء، كما أظن، نابعة من أعماقها، عميقة ومفعمة بالخوف. بدأت سيارتنا ترتجف وتتمايل ذهابًا وإيابًا، ولم أشعر إلا بالرعب ونحن نقفز ونصطدم فوق امتداد الجليد والثلج والإسفلت الوعر، خارجين عن السيطرة وفي خطر دائم من الاصطدام مباشرة بالشاحنة الزرقاء التي كانت على بعد أمتار قليلة أمامنا.

من الواضح أن سائقتي فقدت السيطرة على سيارتها، التي كانت تنزلق على الطريق. اقتربت الشاحنة أكثر فأكثر حتى أصبحت تُهيمن علينا بضخامتها الزرقاء، بينما كنا نرتجف ونتصادم داخل سيارة تُهددنا في أي لحظة بالاصطدام بها. وفجأة، تجاوزتنا الشاحنة، وخلفها مباشرةً موكب السيارات، يمرون من جانبنا واحدة تلو الأخرى، بينما واصلت سيارتنا سيرها في مسارها، لا تزال ترتجف، لكنها بقيت على الجانب الأيمن من الطريق. لا بد أن كل هذا لم يستغرق أكثر من بضع ثوانٍ، ورغم أنني لا أعرف كيف

ربما، أنا متأكد من أنني رأيت وجوه السائقين الآخرين، ورأيت الرعب في عيونهم من خلف نوافذ سياراتهم أثناء مرورنا بجانب بعضهم. لا بد أنه كان واضحًا أن سيارتنا خارجة عن السيطرة، أو ربما أتخيل فقط تعابير وجوههم.

عندما تجاوزتنا الشاحنة وصفوف السيارات، كنا قد استقررنا على أرض صلبة، وتوقفت سيارة الأجرة عن الاهتزاز، واستعاد سائقي السيطرة عليها. أصبح الطريق خالياً من الثلج، ولم تكن هناك سيارات أخرى في الأفق.

كانت الفرامل هي السبب، هكذا قالت سائقتي وهي تلهث حالما تجاوزنا جدار الصخور ودخلنا طريقًا ترابيًا يمر بين أشجار الصنوبر. كانت تكافح لالتقاط أنفاسها ولم أستطع النطق بكلمة. ثم كررتها: الفرامل هي التي أنقذتنا.

كان من الممكن أن ينتهي شتائي في لحظة، لكننا الآن متوقفون تمامًا. مرت جميع السيارات وبقينا وحدنا بين الأشجار. قالت سائقتي إن اختراعًا أنقذنا، وبعد أن استعادت أنفاسها، شرحت أن السيارة مزودة بنظام فرامل خاص. لأنها لم تكن هي من تقود السيارة، بل كان نظام الفرامل التلقائي للطوارئ هو الذي ضمن بقاءها على الطريق. ضغطت على الفرامل عندما انزلقت السيارة، ولكن بفضل نظام الطوارئ هذا،

لم تتعطل الفرامل وتدفعنا مباشرة إلى مسار الشاحنة، أو إلى السيارات التي خلفها، أو إلى الجدار الصخري بجانبنا، أو عبر الطريق إلى أسفل ذلك المنحدر الشديد. لهذا السبب بقيت السيارة على مسارها، لأن نظام الفرامل تولى زمام الأمور. أعتقد أن الصدمة هي التي دفعتها للحديث عن ميكانيكا السيارة، حتى لا تضطر إلى الحديث عن مدى الرعب الذي شعرت به.

في الواقع، قالت بعد أن نزلت من السيارة وتفقدتها، إن حادثًا وقع على طريق غابي عبر الحدود في السويد هو ما ألهم مهندسًا ألمانيًا لاختراع نظام الكبح الطارئ في سيارتنا. انزلقت سيارته على طريق جليدي وحاول الكبح. لو كانت هناك شاحنة أمامه، لما تمكن من اختراع نظامه. بدلًا من ذلك، دارت سيارته حول نفسه وانتهى به المطاف في خندق على جانب الطريق. ثم شرعت في وصف تفصيلي للتكنولوجيا الكامنة وراء نظام الكبح هذا ومراحل تطويره المختلفة.

لقد مرّت بتجربة مماثلة خلال فترة عملها كسائقة تاكسي، لكنني أعتقد أنها أدركت أن التفاصيل التقنية لم تكن مفهومة بالنسبة لي. ليس الأمر أنني لم أكن مهتمًا، ولكن كل ما كان يدور في ذهني هو تلك السيارة الزرقاء الضخمة التي كانت تندفع نحونا، وواجهتها العريضة التي كنا سنصطدم بها وجهًا لوجه لولا مساعدة ذلك المهندس.

بعد فترة وجيزة، كانت سائقة التاكسي مستعدة للقيادة مجددًا. سبق لها أن واجهت موقفًا أنقذها فيه نظام الفرامل من الانحراف عن الطريق، لكن ليس مع شاحنة قادمة نحوها، كما قالت، وخلفها موكب من السيارات. أما الآن، فكنا متجهين إلى دار الضيافة، التي لا تبعد سوى بضعة كيلومترات. وبالمصادفة، كانت ابنة عمها تعمل هناك. اسمها سوزان. نشأتا كلتاهما في المنطقة، شمالًا قليلًا. عاشت سوزان أيضًا في فرنسا، في تولوز. كانتا هناك معًا. بالمناسبة، اسمها جانيت. أخبرتها أن اسمي تارا. لم تظن أن اسمي يبدو فرنسيًا أو بلجيكيًا. شرحت لها أن والدتي إنجليزية. لم أظن أن اسمها يبدو نرويجيًا أيضًا، لكنني لم أقل ذلك.

وصلنا إلى دار الضيافة، بعد أن خفّت حركة المرور بشكل ملحوظ، ونزلتُ من السيارة في ساحة أمام مبنى خشبي أحمر، وشعرتُ بارتياح كبير. كانت ساقاي لا تزالان ترتجفان قليلاً، ولاحظتُ أن سائقتي كانت تسير بحذر شديد أيضاً عندما نزلت ودخلت معي لتحية ابنة عمها.

حرصتُ على أن تُمنح لي غرفة لم تُستخدم مؤخرًا، وأنا الآن أجلس على طاولة صغيرة، أنظر إلى غابة صنوبر حيث اقتلع العاصفة بعض الأشجار. أكتب على ورقتي، لا في دفتري الأخضر. لم أكتب عنوان دار

الضيافة في الدفتر. لا أظن أنني سأعود إلى هنا. تمنيتُ الشتاء، وها هو الشتاء قد حلّ. لديّ ثلج، بل أكثر من مجرد رذاذ، الثلج في كل مكان. هناك ثلج على الممرات خلف دار الضيافة وعلى الجبل الممتد لأميال وأميال، لكنني لن أذهب أبعد من ذلك، ربما أكون قد ذهبت بعيدًا جدًا.

470

أرغب في التوجه نحو الربيع. لكنها مناورة صعبة. أشعر وكأنني أقود سفينة ضخمة. لقد سيطرت عليّ آلة الفصول، وقادتني إلى مزيد من الشتاء، وضبطت نفسها على كميات هائلة من الثلج. أحاول التوقف، والكبح، لكن الأمر ليس بهذه السهولة.

عادةً ما يأتي الربيع من تلقاء نفسه. تشعر ببعض البرد، وتتوق إليه، وفجأةً يطلّ علينا، بنعومة في الهواء، وصباحات مشرقة. أما الآن، فالربيع شيءٌ عليّ أن أبنيه، لكن يبدو أن الشتاء قد أثّر فيّ بشدة، لذا أجلس هنا في بيت الضيافة وسط الثلج. لا أستطيع الرحيل، فالشتاء يُقيّدني في سكونه المُطبق.

في منتصف الليل، حوالي الساعة الثالثة، يبدأ تساقط الثلج، أحيانًا قبل ذلك بقليل، وأحيانًا بعده. هناك ساعة على الطاولة بجانب السرير، راديو قديم، الراديو معطل، لكن الساعة تعمل وأرقامها مضيئة. فقدت هاتفي منذ زمن طويل، واعتدتُ العيش بدون ساعات، لكنني هذه الأيام أستيقظ على تلك الأرقام المضيئة وعالم صامت. لا توجد رياح، ويخطر ببالي أن الصمت هو ما يوقظني، غياب الصوت. لا بد أن السبب هو تساقط الثلج، لكنني لا أفهم، كيف يمكن للثلج أن يكتم الأصوات في حين أن كل شيء صامت بالفعل؟ يبدو الأمر كما لو أن الثلج مضاد للصوت، كما لو أنه يلقي بطبقة إضافية من الصمت على كل شيء، ينخفض مستوى الصوت إلى ما دون الصفر، وأنا أستلقي في سريري، لا أسمع شيئًا تقريبًا، حتى صوتي اختفى. لكن ليس لفترة طويلة، لأنني حينها أتنفس الصعداء ثم أسمع نسيمًا خفيفًا جدًا، وحفيفًا في قمم الأشجار، وأسمع أصوات أشخاص في الممر، وأصواتًا خفيفة خارج غرفتي.

كل صباح، بعد تناول فطوري، أجلس في ردهة الفندق. أخبر موظفة الاستقبال التي بدأت عملها للتو أنني وصلت متأخرًا الليلة الماضية، وربما لم يتم تسجيلي بعد. أجلس هناك أقرأ قليلًا، ثم أنهض وأخرج. إلى العراء. إلى البياض. إلى كمية الثلج الهائلة. أتجول في الغابة، على طول مساراتها، وأصعد التل. أفكر في المسارات عبر الغابة قرب كليرون، في السهول الممتدة على طول النهر، وفي ألوان الخريف، لكن المسارات هنا منحدرة، وتصعد التل.

أنزل المنحدر، وفي كل صباح أصعد، ثم أستدير وأعود أدراجي إلى الأسفل، كما لو كنت أتدرب على الالتفاف.

اليوم، وسط كل هذا البياض، عثرت على كنيسة. كنت قد فقدت وجهتي، على ما أعتقد، وكدت أضل الطريق، لكن الكنيسة كانت تقع في مكان مرتفع، فنظرت إلى أسفل نحو الوادي، وفي الأفق لمحت مبنى يشبه دار الضيافة التي أقيم فيها.

شعرتُ بالارتياح لعدم ضياعي، فخرجتُ في نزهة حول فناء الكنيسة. حاولتُ فتح باب الكنيسة، لكنه كان مغلقًا، فتخليتُ عن الفكرة وتجولتُ بين شواهد القبور. لم تكن هناك آثار أقدام على الممرات، كنتُ الوحيد الذي وطئ الثلج المتساقط حديثًا. لمحتُ بعض المنازل في الجوار، لكن لم أرَ أحدًا، أو على الأقل لم أرَ أحدًا على قيد الحياة، لأنني فكرتُ فجأةً في جميع الجثث الراقدة تحت شواهد القبور. منحني ذلك شعورًا غريبًا بالسلام. شعورًا بأنني لستُ وحيدًا. كان هناك أناسٌ قريبون، يرقدون في توابيت أو في جرار. كانت أجسادنا في حالاتٍ مختلفة، بعضها رماد، وبعضها عظام، وبعضها لا يزال عليه لحمٌ وجلدٌ وملابسٌ تغطي الجلد، لكننا جميعًا من نفس المادة. كانت لهم أسماء. رأيتها على شواهد قبورهم. كانت العديد من الشواهد منحوتةً بشكلٍ جميل، بأسطحٍ مصقولة، وبعضها مزينٌ بإطاراتٍ حول الأسماء أو برسوماتٍ صغيرةٍ مغطاةٍ بالثلج في الأعلى. كانت بعض المعالم أصغر حجماً وأبسط تصميماً، بينما كانت أخرى أكبر حجماً وأكثر خشونة في النحت، تقع بين الصخر وشواهد القبور. لكن جميعها كانت تحمل أسماءً، ومعظمها يحمل تواريخ ميلاد ووفاة.

جعلتني تواريخ الوفاة أشعر بالوحدة مجددًا. كان لدي تاريخ ميلاد. كان لدي اسم: تارا سيلتر، هذه أنا. لكن لم يكن لدي تاريخ وفاة. ليس بعد. كان من الممكن أن يكون تاريخ وفاتي هو الثامن عشر من نوفمبر، فقد نجوت بأعجوبة من حادث، وربما كان سيكون الثامن عشر من نوفمبر، لكنني كنت على قيد الحياة، أنقذني نظام فرامل خاص، وتوقفت. لكن كان بإمكاني أن أتسبب في موت سائقي معي. كان بإمكاني أن أتسبب في موت جميع سائقي السيارات المذهولين. كان من الممكن أن نكون جميعًا هنا. لمجرد أنني أردت الشتاء والثلج. لقد اقتحمت يومهم الثامن عشر من نوفمبر. كان عليّ أن أكون حذرة، قلت لنفسي. أعرف بالفعل أنني أترك أثرًا. أستهلك عالمي. أتعرض للحروق والتواء الكاحل. لكنني أيضًا أعرض الآخرين للخطر. أخرجهم من يومهم الثامن عشر من نوفمبر. من روتينهم. أخاطر بقتل شخص ما. لا

أتخيل أن العالم سيُصلح نفسه، وأنني إن ضللتُ الناس عن مسارهم، سيستيقظون ببساطة في الصباح التالي. عليّ أن أكون حذرًا. أنا خطر

على محيطي، أقول لنفسي وأنا أتجول في الثلج. أجرّ الناس معي على طول المسارات الثلجية.

لكن ليس هنا، في الثلج، في فناء الكنيسة. لقد تجولتُ في ثلجٍ طري، لم أترك أثراً، لم أكن في الطريق، لم أُلحق أي ضرر. أو يكاد. تركتُ آثار أقدام، لكن الثلج سيمحوها عندما يبدأ بالتساقط ليلاً.

472

أخلد إلى الفراش مبكرًا كل مساء، وأغفو سريعًا. أستيقظ في منتصف الليل، وإذا لم يكن الثلج قد بدأ بالتساقط، أبقى في فراشي أنتظر. الأصوات الوحيدة خافتة جدًا: حفيف خفيف بين قمم الأشجار، وصوت سيارة عابرة في البعيد، ثم فجأةً، يختفي كل صوت. أقول لنفسي إنني أعرف ما سيحدث. إنه الثامن عشر من نوفمبر يعود، يختفي كل صوت، ثم يبدأ الثلج بالتساقط.

473

كل يوم، في وقت مبكر من بعد الظهر، بعد عودتي بوقت طويل من تجوالي، تدخل شاحنة إلى ساحة دار الضيافة. إنها زرقاء، وأظن أنها الشاحنة التي كدنا نصطدم بها أنا وجانيت. لست متأكدًا تمامًا، فهي تابعة لشركة نقل محلية ولديها عدد من الشاحنات، لذا قد لا تكون هي نفسها، لكنني أعتقد أنها هي. يُوصل السائق البضائع إلى المطبخ، ويترك منصة نقالة من صناديق الكرتون عند باب المطبخ، ثم ينطلق مجددًا في وقت أعتقد أنه يتوافق مع وقت لقائنا على الطريق. لا بد أنه هو. لم أرَ وجهه من سيارتنا، فقط كابينة الشاحنة الزرقاء الكبيرة التي تقترب منا بسرعة.

أقضي عادةً فترة ما بعد الظهر في الردهة، أقرأ أو أفكر في كيفية المضي قدمًا. لقد توقفتُ تمامًا. فرملة مفاجئة، والآن لا أستطيع التقدم أكثر بمفردي. أحتاج إلى قوة حصانية، إلى مركبة، لتنقلني خارج هذا الشتاء.

لمساعدتي على الالتفاف. أتأمل الشاحنة الزرقاء، والآثار التي تتركها في الساحة الأمامية: غداً قد أسأل إن كان بإمكاني الحصول على توصيلة.

475

كنت قد جهزت أغراضي قبل أن أجلس في الردهة مع كتابي، وكنت أقرأ عندما دخل سائق الشاحنة. سألته إن كان متجهاً جنوباً وسيمر بمحطة قطار، وإن كان كذلك، فهل يمكنني أن أستقل معه؟ قال لي: أهلاً بك. كنت أنوي أن ينزلني عند محطة القطار في أقرب مدينة، لكنه كان متجهاً جنوباً أكثر، وسيعبر خط بيرغن، كما قال، وسيكون من السهل عليّ أن أتابع رحلتي من هناك.

بينما كان يُفرغ البضائع للمطبخ، أخذت حقيبتي ودفعت حسابي في مكتب الاستقبال. وضعت الكتاب الذي كنت أقرأه على رف في الردهة حيث يمكن للنزلاء أخذ الكتب التي تركها النزلاء السابقون. كان هذا الكتاب واحدًا من كتابين أخذتهما من مكتبة والديّ. أخذت الكتاب الآخر من حقيبتي ووضعته مع كتابين آخرين كنت قد انتهيت من قراءتهما منذ مدة على الرف قبل أن أركب سيارة الأجرة الزرقاء. بعد دقائق، وبعد أن تأكد السائق من إغلاق الأبواب، أدار الشاحنة في الساحة الأمامية وانطلق بها إلى الطريق متجهًا جنوبًا.

شعرتُ بالأمان داخل الشاحنة. من كابينة القيادة، استطعتُ أن أُلقي نظرةً على الريف. كان لديّ رؤية جيدة للطريق، ورأيتُ السيارات تسير تحتنا: عائلات، وأزواج، وسائقين منفردين محاصرين في سيارات صغيرة. لستُ متأكدًا لماذا شعرتُ بالأمان، أعني أنه كان من الممكن أن ننحرف عن الطريق، أو أن نسقط من فوق السد، أو أن تنقلب الشاحنة، لكن ذلك لم يحدث.

من موقعي المرتفع بجوار السائق، استطعتُ أن أُطلّ على الأشجار، التي بدت هشةً للغاية الآن بعد أن اقتلعتها الرياح العاتية، نباتات رقيقة متناثرة على الأرض، قذفتها العاصفة هنا وهناك. أخبرني السائق عن العاصفة، وصفها بعاصفة خريفية، لكن لا بدّ أنها كانت عاصفة ربيعية هي التي اقتلعت تلك الأشجار، لأنني أسافر نحو الربيع، وقد بدأتُ من جديد في جمع شتات عامي. أفكر في شهر مارس، وقد كتبتُ عنه.

عاصفة في كتابي الأخضر. لقد بدأت أبحث عن علامات الربيع، وفي الجنوب، عندما نزلنا من التلال، كان هناك بالفعل تساقط أقل للثلوج.

أخبرتُ السائق بتجربتي في سيارة الأجرة. لم أقل إن شاحنته هي التي كادت تصطدم بنا، لأنه لا هو ولا جانيت سيتذكران الحادث، لكنه شرع بعد ذلك في شرح المزيد عن أنظمة الفرامل أكثر مما كنت أعرفه. قلتُ إنني أشعر بالأمان في الشاحنة، وهي مرتفعة فوق الطريق، وإنني لا أحب السيارات العادية - سيارات السيدان، والسيارات العائلية: صناديق فولاذية صغيرة بوعودها الكاذبة بالأمان.

بعد بضع ساعات، توقفنا للاستراحة، وأصرّ السائق على مشاركتي غداءه المُعدّ مسبقًا: خبز الجاودار مع الرنجة المخللة ولحم الضأن الملفوف البارد مع الشمندر المخلل. أخبرته أنني أحب الرنجة، وخبز الجاودار أيضًا، وأنني الآن أحب لحم الضأن الملفوف البارد مع الشمندر المخلل. قال إنه طعام منزلي الصنع، من صنع زوجته. كانت تحرص دائمًا على أن يكون لديه ما يكفيه من الطعام أثناء سفره. قد يغيب لأيام متواصلة، وقد يضطر لقيادة السيارة عبر أوروبا، ليس كثيرًا، ولكن

عندما يفعل ذلك، يكون لديه ما يكفيه من الطعام طوال الرحلة. وبهذه الطريقة، كان يشعر وكأنه ما زال يتناول الطعام مع عائلته.

عندما وصلنا إلى المدينة التي كنت سأستقل منها القطار، عرض عليّ أن يوصلني إلى المحطة، لكنني رفضت العرض ونزلت من الشاحنة عند المنعطف. لم أرد أن أعطل مساره، فشكرته على توصيلته وسرتُ إلى المدينة على جانب الطريق بينما اختفت الشاحنة في الأفق.

كان آخر قطار قد غادر بالفعل، لذا حجزت في أقرب فندق، واستأنفت رحلتي الموسمية. لقد دوّنت عنوان الفندق في دفتر رحلاتي الموسمية، وكتبت عن بوادر الربيع ومواعيد القطارات إلى بيرغن.

أشعر بزخمٍ ما. أنا متأكدة من أن الربيع قادم، ومع بيضي المخفوق في الفندق تناولتُ الثوم المعمر، الذي يُسمى "غريسلوك" باللغة النرويجية، وله نكهة ربيعية خفيفة. لكنني لا أريد استعجال العام. لن أذهب إلى المطار لأحصل على هواء الربيع خلسةً، فهو ينتظر.

ذلك الربيع يصبح ربيعاً، لذا أنتظر في فندقي حتى يحين وقت الذهاب إلى المحطة، أنتظر بوادر الربيع الصغيرة، وذوبان الجليد وأياماً أكثر دفئاً.

476#

استقللتُ قطار الصباح إلى بيرغن لأكتشف أن الشتاء لم ينتهِ بعد. سرعان ما امتدت أمامنا مناظر طبيعية خلابة، بيضاء تتخللها بقع رمادية متناثرة: كنا نصعد بثبات عبر أرض صخرية مغطاة بالثلوج. ولكن عندما وصلنا إلى مشارف بيرغن، متأخرين ساعتين عن الموعد المحدد، لم تعد المناظر بيضاء، وتحولت الثلوج إلى مطر.

كان في مقصورتي طالبان أجنبيان، على ما يبدو في طريقهما لمقابلة مالك العقار الذي سيستأجرانه. من المكالمة الهاتفية التي كان يجريها أحدهما، فهمت أنهما يخططان لاستئجار غرفة في وسط المدينة، أو غرفتين كما اتضح لاحقًا. كان لديهما موعد مع مالك العقار، لكنهما لن يتمكنا من الحضور الآن. كان الطالب الذي يتحدث على الهاتف يفهم اللغة النرويجية بوضوح، وكان يدون التفاصيل ويترجمها لرفيقه. سمعتهما يتفقان على معاينة الغرفة في اليوم التالي. سيكون المالك هناك في العاشرة صباحًا، ولكن إذا وصلا مبكرًا، سيجدان المفتاح على الرف فوق الباب الداخلي. كانت الغرفة شاغرة ويمكن الوصول إليها عبر مخرج الطوارئ. عادةً ما يكون الباب الخارجي مفتوحًا. ولضمان عدم حدوث أي مشكلة، قام الطالب الذي يتحدث النرويجية بتهجئة العنوان للآخر، الذي قام بدوره بتدوينه. فعلتُ الشيء نفسه. دوّنتُ

العنوان في دفتر ملاحظاتي، لأنه خطر لي أنه إذا لم ينتقلا إلى الغرفة حتى التاسع عشر من الشهر، فيمكنني استخدامه حتى ذلك الحين.

في محطة بيرغن، كانت هناك خريطة كبيرة للمدينة. حددتُ شارعي بسرعة على الخريطة، وعلى مقعدٍ خالٍ بجانبه، وجدتُ مظلةً مهجورة. نظرتُ حولي بحثًا عن صاحبها، لكن لم يكن هناك أحدٌ تقريبًا، فأخذتها معي. كانت مظلةً مزينةً بالزهور. لم يسبق لي أن امتلكتُ مظلةً مزينةً بالزهور. مظلةٌ مزينةٌ بأزهار الربيع، فكرتُ في نفسي وأنا أخرج إلى المطر.

لم يكن العثور على العنوان صعبًا، وسرعان ما وجدت نفسي واقفًا عند أسفل سلم طوارئ رمادي اللون مصنوع من الفولاذ. صعدت الدرج، وبالفعل، كان هناك في الأعلى باب زجاجي غير مُغلق يؤدي إلى ممر به خمسة أبواب سوداء، وعلى الحافة فوق باب أحدها - أول باب عند الدخول - كان هناك مفتاح يُناسب قفل ذلك الباب. لم يستغرق الأمر وقتًا طويلًا لأستقر في الغرفة، التي كانت في الواقع غرفتين صغيرتين مع مطبخ صغير في نهاية إحداهما. كان الأثاث الوحيد عبارة عن مرتبتين قابلتين للطي مكدستين في زاوية، ففرشتهما، وشغّلت التدفئة، ولففت معطفي حولي، وسرعان ما غفوت.

خلال الليل، تحول المطر إلى ثلج. استمر تساقط الثلج طوال الليل، وفي هذا الصباح استيقظت على أسطح بيضاء. جلست على حافة النافذة وتأملت كل هذا البياض الذي كنت أتوق حقًا إلى الهروب منه.

بينما كنت جالساً هناك، عاد المطر يهطل، وبعد فترة وجيزة سمعت أول تساقط للثلوج من السطح. وبعد لحظات، انزلقت كتلة أخرى مصحوبة بصوت رطب حاد يتردد صداه في الجدار خلفي. شعرت بحركة الثلج كرجفة خفيفة في ظهري حيث كنت أجلس على حافة النافذة أحدق في أسطح المنازل، حيث كانت كتل الثلج الرطب تتساقط وتتكدس في الشوارع.

صوت انزلاق الثلج عن الأسطح يُنبئ بقدوم الربيع، ولا شك لديّ في أن الربيع على الأبواب، فمع أن أمطار الخريف هي التي تُسبب انزلاق ثلوج الليل عن السطح، إلا أن أصوات الربيع هي التي تتبادر إلى ذهني. أتخيل الثلج وهو ينزلق من السطح ويسقط في حديقة سيلتر القديمة. هذا هو الصوت الذي أسمعه، وأتذكر يومًا ربيعيًا في كليرون، ربما كان لا يزال في فبراير ولم يكن الربيع قد بدأ بعد، أو ربما كان في مارس، لكن بعد أيام من الثلج والصقيع، ذاب الجليد فجأة. كان والد توماس يزورنا. لا بد أن ذلك كان بعد انتقالنا إلى المنزل مباشرة، لأنه لم يعد منذ ذلك الحين.

كنا في المكتب، الذي كان غرفة نوم والد توماس عندما كان صبيًا. كان يتقاسمها مع أخيه، عم توماس، وكان والداهما ينامان في الغرفة المجاورة. وقفنا هناك، نستمع إلى

كان الثلج يتساقط من السطح بينما كان والد توماس يخبرنا عن فصل الشتاء في كليرون.

لقد قال للتو شيئًا عن الثلج في حديقة سيلتر العجوز، وكيف كان هو وشقيقه يلعبان في أكوام الثلج التي انزلقت من السطح، على الرغم من أن والده - سيلتر العجوز، كما كان يسميه - قد منعهما من اللعب هناك بسبب كتل الجليد الطويلة المتدلية من المزراب، الحادة والمستعدة للسقوط، عندما انكسرت فجأة كتلة جليدية ضخمة وضربت الأرض بجوارهما مباشرة.

ضحك توماس. ليس على القصة، التي لم يسمع منها إلا نصفها، بل على وصف والده لوالده بـ"سيلتر العجوز". "آه، لكنه الآن أصبح سيلتر العجوز"، قال توماس. ابتسمتُ ابتسامةً خاطفة، لكن كان من الواضح أن هذا خطأ. غضب والد توماس بشدة، فاستدار وظل غاضبًا طوال اليوم. لم تعجبه الفكرة. لم تعجبه فكرة مرور الوقت. لم تعجبه فكرة التقدم في السن. لم تعجبه فكرة أن يكون توماس هو سيلتر الشاب. لقد ذهب إلى السوق ذلك الصباح مع توماس، ولم يُعجبه ذلك. أن يمشي بجانب ابنه البالغ. لأن ذلك يعني أنه أصبح عجوزًا، وهو لا يريد أن يكون كذلك.

الآن، بينما ينزلق الثلج عن السطح، أسمع صوت الربيع، وأفكر في الربيع والصيف والخريف، ولا أمانع مرور الوقت.

479

أبحرْتُ من بيرغن هذا الصباح قبل أن يبدأ الثلج بالتساقط من على السطح، والآن أنا في طريقي عبر بحر الشمال. دوّنتُ مواعيد مغادرة العبّارات في دفتر فصول السنة، وأشعر بها مجدداً: مرور الفصول. أسمعها وأنا على سطح السفينة، أزيز المحركات، وحبل يضرب جانب السفينة مراراً وتكراراً.

اختفت أضواء الميناء خلفنا بينما أبحرنا في ضوء الصباح الرمادي. كانت الرياح قوية نوعًا ما. لا تزال هناك نسمة خفيفة، لكنها ليست قوية، ولا توجد عاصفة في الأفق، أتوقع رحلة بحرية هادئة. لقد راجعت منحنيات وتوقعات الأرصاد الجوية. أتوقع قدوم الربيع، وأنا أرتدي ملابس مناسبة للربيع. أشعر بالبرد عندما أصعد إلى سطح السفينة مرتديًا سترتي الخفيفة.

وجدتها في متجر للملابس المستعملة في بيرغن، لونها رمادي فاتح مع لمسة خضراء. قد لا تتناسب تمامًا مع مظلتي المزهرة، لكنها ذكّرتني بالربيع، فتركت معطفي الشتوي في المتجر. اشتريت حذاءً قصيرًا، وأسافر بخفة وروح ربيعية. ربما أكون متفائلة بعض الشيء، لكنني متجهة إلى أماكن ذات طقس معتدل، ونسائم عليلة، ولمسة خضراء.

C482

وصلتُ عند الغسق. استغرق الأمر بعض الوقت قبل أن نتمكن من النزول، ثم اضطررتُ للمرور عبر مراقبة الجوازات والهجرة، وعندما وصلتُ أخيرًا إلى قطاري، واجه صعوبة في التشغيل، لذا لم ينطلق إلا في وقت متأخر من الليل. حاولتُ أن أتخيله كظلام ربيعي لطيف، لكن الوقت كان متأخرًا وغفوتُ في القطار.

وصلنا إلى لندن في الصباح الباكر، وخرجتُ مباشرةً للبحث عن فندقٍ فيه غرفة شاغرة. لم يكن هناك ثلجٌ في الشوارع، ولا مطر. لم يكن الجو باردًا ولا دافئًا. كان هناك ضوءٌ وضجيجٌ في المدينة المظلمة. كانت المحلات مفتوحةً والناس في الشوارع. حاولتُ أن أتخيل الربيع، لكن لم يكن أحدٌ يرتدي ملابس توحي باقترابه. قلتُ لنفسي إن ضوء النهار قد يحمل بعضًا من بشائر الربيع، ولم يستغرق الأمر وقتًا طويلًا لأجد فندقًا فيه غرفة شاغرة يمكنني دخولها فورًا.

لم أجد الربيع إلا في اليوم التالي. أو بالأحرى، في اليوم التالي وجدت كل شيء. دخلتُ عدة متاجر، أبحث عن علامات الربيع، في البداية ببهجة وفضول، ثم انتابتني الحيرة والذهول، وفي النهاية كدتُ أُصعق من الفوضى الموسمية التي رأيتها. لستُ متأكدة مما حيّرني أكثر: الرفوف المكدسة بالفاكهة والتوت والخضراوات من كل فصول السنة ومن كل أنحاء العالم، أم تنوّع التغليف. تجوّلتُ بين الرفوف والخزائن، والصناديق وأكوام المنتجات. رأيتُ عبواتٍ من جميع الأشكال: سداسية، ومربعة، ومستطيلة صغيرة، وبيضاوية كبيرة، وأكواب متوسطة الحجم بأغطية بلاستيكية شفافة مقببة، وأحواض مربعة ذات زوايا حادة. كانت هناك صوانٍ مسطحة من البلاستيك والورق، وسلال غريبة الشكل، وأكياس مثقوبة تسمح بدخول الهواء أو خروجه. كانت هناك عبوات طويلة بها سيقان الراوند، وأصص صغيرة من الأعشاب التي استمرت في النمو على الرف.

ضوء الربيع الساطع. كانت هناك صفوفٌ لا تُحصى من الفاكهة المُغلّفة، أكياسٌ وصوانٍ بأنواعٍ مُختلفة من آليات الإغلاق، بسحاباتٍ وأزرارٍ وأربطةٍ مطاطيةٍ صغيرة. مررتُ بسلالٍ صغيرةٍ من التوت الأزرق والتوت الأحمر والفراولة مُرتبةٍ على وسائد ناعمة. رأيتُ أكياسًا صفراءَ

مليئةً بالليمون، وأخرى برتقاليةً مليئةً بالبرتقال، وثالثةً خضراءَ مليئةً بالليمون الأخضر، وكيسًا واحدًا عنابيًا من العنب الأحمر. كانت هناك أرففٌ كاملةٌ من الفاكهة المُقطّعة، وصوانٍ بلاستيكيةٍ شفافةٍ مليئةٍ بجميع أنواع الفاكهة بكل شكلٍ يُمكن تخيّله: مُقطّعةٌ إلى مكعباتٍ أو أصابع، أو شرائحَ أو مثلثاتٍ أو كراتٍ صفراءَ أو خضراء. كانت هناك خضراواتٌ في أكياسٍ وعلبٍ كرتونية، مُقطّعةٌ إلى شرائح رفيعةٍ أو مبشورةٍ أو مُقطّعةٍ إلى مكعباتٍ أو حلقات. كانت هناك أحواضٌ من السلطات المُختلطة، كاملةً مع الصلصة والزينة والشوك والملاعق، جميعها مُعبأةٌ بعنايةٍ في أكياس، وتجولتُ في المكان عاجزًا تمامًا عن الاختيار. لقد نسيتُ ما يُناسب الربيع.

تذكرت الربيع في حديقة سيلتر القديمة. أزهار الربيع المبكرة، وأعواد الثوم المعمر الصغيرة التي تشق طريقها من الأرض، والبقدونس من الخريف الذي بدأ ينبض بالحياة ويستعد للنمو لفترة قبل أن يذبل فجأة. السلق السويسري الذي ذبل في ظلام الشتاء وبدأ الآن ينبت من جديد من قلبه الأخضر الداكن؛ الكراث الأخير، الذي أصبح ذابلاً قليلاً بعد شتاء في الحديقة، والذي كان لا بد من قطفه قبل فوات الأوان؛ البصل في الحظيرة؛ البطاطس، إن وجدت، وسرعان ما تتفتح أولى براعم الراوند، وتظهر براعم السبانخ، والخرشوف الناجي، وأوراقه المدببة تنبت من النباتات التي أنهكها الشتاء بينما تتحلل البقايا الرمادية البنية من العام الماضي على الأرض من حولها، وبعد ذلك الهليون الأخضر: أولاً أصغر البراعم التي نبتت ذاتياً، وبعد بضعة أسابيع، السيقان الطويلة ذات اللون الأخضر الباهت، المزيد والمزيد منها، حتى منتصف الصيف، عندما تُترك لتستمر في النمو لتصبح شجيرات طويلة ذات لون أخضر داكن.

تذكرت السوق في كليرون. المتسوقون يرتدون معاطف الربيع الفضفاضة، وربات البيوت وكبار السن يفتحون سلالهم لوضع الفاكهة والخضروات السائبة فيها في طبقات غير منتظمة، تعلوها أكياس ورقية بنية اللون من العنب؛ وشباب وشابات يحملون حقائب تسوق مطبوعة، ومارة يحملون أكياس بلاستيكية تصدر صوت حفيف.

لم أضع شيئًا في سلتي. جررتها خلفي، تتأرجح على عجلاتها المتهالكة، عاجزًا عن اتخاذ قرار. تنقلت من متجر إلى آخر ككائن حي.

أشعر بالحيرة من شدة الضوء الساطع، وأشعر بالتمزق بين بحثي عن الربيع وألوان الفصول الأربعة.

في النهاية، كانت الكلمات هي التي أنقذتني، فتوجهتُ إلى صندوق الدفع حاملةً سلةً مليئةً بأسماء الربيع: خضراوات الربيع، وبصل الربيع،

وعلبة بلاستيكية من حساء الربيع. غادرتُ المتجر وأنا أحمل كيساً صغيراً مليئاً بنفحات الربيع، ليس كثيراً، لكنه يكفي لأشعر أنني أسير على الطريق الصحيح.

عدت إلى غرفتي وتناولت حساء الربيع، كان بارداً وبلا طعم محدد، ثم وضعت خضراواتي في حقيبتي وسألت موظف الاستقبال عن كيفية الوصول إلى الجنوب، باتجاه الربيع.

497

انتهى الشتاء. الجو هنا معتدل. هواء الربيع، أقول لنفسي وأنا أقود دراجتي على الطرق المبتلة تحت المطر الخفيف. مطر الربيع، لا أقطع مسافات طويلة، أعيش يومي بيومه. لقد اعتدت على الطرق وحركة المرور. اعتدت على البيوت التي أستأجر فيها غرفة ليوم أو يومين. اعتدت على المطابخ والمواقد والثلاجات. أقطع خضراوات الربيع بسرعة بسكين حاد من الدرج. وجدت الفجل والسبانخ، ووجدت أيامًا مشمسة بلا ثلج، مع نسيم عليل، وبالأمس وجدت كرسيًا في سقيفة الحديقة، لذا يمكنني الآن الجلوس تحت أشعة الشمس - ليس لفترة طويلة وأنا أرتدي معطفي الربيعي، ولكن هناك المزيد من أشعة الشمس في انتظاري إذا سافرت جنوبًا.

أتنقل بدراجتي من بلدة صغيرة إلى أخرى، على طول طرق ضيقة، ماراً بحقول خضراء. صحيح أن بعضها لا يزال ذابلاً، لكن في كثير منها بدأت براعم جديدة بالظهور. أشعر بنسيم الهواء العليل الرطب يلامس بشرتي. يكفي هذا، بلا شك، لنسمي هذا الربيع.

في أول منزل أقمت فيه، وجدت دراجة في مخزن الأدوات. بقيتُ أتردد حولها لبضعة أيام، ثم أخرجتها من المخزن، ودهنتُ السلسلة بزيت وجدته على رف، واشتريت حقائب جانبية وأربطة مطاطية لتثبيت حقيبتي على رف الأمتعة. كنتُ أتجول بها في الحي، ثم عثرتُ على معطف واقٍ من المطر وحذاء مطاطي كبيرين بعض الشيء، فتركتُ ملابسي الصوفية الدافئة مكان المعطف. ركوب الدراجة يُدفئك، وتعتاد على المطر والدفء. أركب دراجتي في نسيم عليل وتحت أشعة الشمس الخافتة. إذا هطلت أمطار خفيفة، أرتدي ملابس خفيفة.

أرتدي المعطف الواقي من المطر، وإذا اشتد المطر ألجأ إليه لفترة، وهكذا أتقدم ببطء وحذر خلال فصل الربيع.

ما زلت أحتفظ بمظلتي المزهرة. إنها ملفوفة في حقيبتي، ولدي الآن أيضاً أغطية لحقائب سرجي لأنني أحب ركوب الدراجة تحت مطر الربيع، وأحب السماء المتغيرة، مع ومضات من أشعة الشمس تفسح

المجال للغيوم، وأحب الطرق الحصوية وأوقات ما بعد الظهر التي أقضيها في ركوب الدراجة عكس اتجاه الريح.

أدوّن أسماء المدن والطرق في دفتر فصول السنة. أركب دراجتي على طول مسارات الدراجات وأعبر الجسور الصغيرة التي تنقلني فوق الأنهار والقنوات. أبحث عن بوادر الربيع وأطهو أطباق الربيع في مطابخ غريبة. أجد بيوتًا مهجورة في الثامن عشر من نوفمبر. أدوّن عناوين البيوت المهجورة وأطباق الربيع في دفتري. أجد متاجر على طول الطريق حيث يمكنني التزود بالمؤن، وأكتب أن الربيع قد حلّ وأن الحقول خضراء. أكتب عن أدوات إصلاح الإطارات والسلاسل التي تنفصل فجأة، وعن متاجر الدراجات التي تحتوي على مضخات هواء خارجية يمكنك استخدامها عندما تكون مغلقة.

٥٠٤

تسارعت الوتيرة، والأيام تمرّ سريعًا. أكتب أبريل في دفتر فصولي. أسافر جنوبًا وأفكر في عطلات الربيع، وأفكر في عطلة عيد الفصح في إنجلترا، وأفكر في ليزا وطقسها الصيفي. أفكر في توماس، ثم أزيد من قوة دواسات الدراجة، أشعر بالعرق على ظهري تحت معطف المطر وعلى قدميّ في حذائي المطاطي الكبير. وهكذا أتقدم، فتصبح الأمور أسرع قليلًا، عليّ التركيز على التلال، أنزل بسرعة، وأشق طريقي صعودًا، وهذا ما يمنعني من التفكير.

أتأمل المشهد وأدوّن الأسماء في دفتر فصولي. مكانًا تلو الآخر. اسمًا تلو الآخر. أكتب عن الريح التي تداعب شعري، والمطر الذي يلامس وجهي، وبرودة يديّ على مقود الدراجة.

508

في أول أحد بعد أول بدر بعد الاعتدال الربيعي، يحلّ عيد الفصح. لكن ليس لديّ أيام أحد، ولا بدر ولا اعتدال. فكيف لي أن أحتفل بعيد الفصح؟ ومن الذي يبتدع مثل هذه الأمور أصلاً؟ من الذي يبتدع أعياداً تتبع حركة الشمس والقمر والكواكب؟ لا يمكن أن يحكم السماء عامي، لأن السماء ثابتة لا تتغير، عليّ أن أجد ربيعي في الحقول وعلى الدروب، عليّ أن أجد عيد الفصح في المتاجر. أبحث عن طقس عيد الفصح، لكن طقس عيد الفصح قد يكون أي شيء. أتذكر البرد في أبريل، أتذكر شمس عيد الفصح وأمطاره في حديقتنا في بروكسل. أتذكر عيد الفصح في إنجلترا، أتذكر الأيام الدافئة والصقيع الخفيف.

أجد عيد الفصح محفورًا في ذاكرتي. أتذكر بيض عيد الفصح. أنا وليسا على سجادة. لا بد أنه كان حفلًا عائليًا في منزل خال أمي، ربما بمناسبة

عيد ميلاد، أو ذكرى زواج، ربما لجدّي وجدّتي - كل ما أتذكره هو البيض. كنا قد سألنا أنا وليسا إن كان بإمكاننا استعارة بعض ألعاب ابنة عمي، لكن ذلك لم يكن ممكنًا، فأخرجت أمي بعضًا من كتبنا من حقيبتها، وكنا نجلس على السجادة نقرأها عندما أتت إلينا عمتنا بسلة صغيرة. في السلة أربع بيضات جميلة، ربما خشبية وثقيلة نوعًا ما. أتذكر وزن البيض في يدي وألوانها، كانت مطلية، على ما أظن، باللون الأصفر والرمادي الفاتح والأخضر، بنقوش دقيقة.

قالت عمتي مبتسمةً لنا: "هذا لكِ". ناولَتني إياها لأني كنتُ الأكبر، لكنها كانت مُخصصةً لنا نحن الاثنتين، إذ نظرت إلى ليزا التي أشرق وجهها لرؤية البيض الجميل، ثم نظرت إليّ وأنا آخذ السلة منها، مُبتهجةً بهذه الهدية الرائعة. في تلك اللحظة، جاء ضيفٌ آخر ليُلقي التحية على عمتنا، فاختفت وسط الزحام في غرفة المعيشة.

بعد لحظات، بينما كانت ليزا تُخرج البيض من السلة، قفزتُ فجأةً لأن فكرةً خطرت ببالي: لقد نسيتُ القاعدة الأساسية. هرعتُ إلى عمتي، التي كانت تقف تتحدث مع رجلٍ لا أعرفه، وقلتُ لها بلهفةٍ: شكرًا لكِ يا عمتي كيت، شكرًا جزيلًا لكِ. نظرت إليّ باستغراب، فشكرتها مرةً أخرى على البيض اللذيذ الذي أحضرته.

أعطتنا البيض في السلة الصغيرة. نظرت إليّ للحظة ثم انفجرت ضاحكة.

قالت وهي تنظر إلى رفيقتها التي كانت تضحك معها: "لم أكن لأعطيكِ إياها لتحتفظي بها. لم تكن البيضات هدية. ما الذي جعلني أظن ذلك؟ كانت فقط لنلعب بها"، قالت لي بينما كنت أتراجع. ربما كان شعوري بخيبة أمل عندما علمت أن البيضات الجميلة ليست لنا، أو ربما كان شعورًا بالحرج من سوء فهمي، أو ربما، أكثر من أي شيء آخر، كان ضحكهما المشترك هو ما جعلني أشعر بهذا الإحراج، لكن مهما كان السبب، فقد زال السرور، وفي تلك اللحظة رأيت عمتي تتبادل نظرة أخرى مع الرجل الغريب، نظرة تحمل الكثير من المعاناة، مع رفعة خفيفة لحاجبيها، وهو أمر كانت تفعله عادةً إذا ارتكبنا خطأً، إذا خلط أحدنا بين الفرنسية والإنجليزية، أو إذا نسينا قول "من فضلك" و"شكرًا" عندما كنا نزورها.

كانت ليزا لا تزال جالسة على الأرض وفي يدها بيضة، أما أنا فقد فقدت اهتمامي. أخبرتها أن البيض ليس لنا، لكنها مع ذلك رأت أنه جميل. شعرتُ أنها استغرقت وقتًا طويلاً جدًا لتفقد اهتمامها هي الأخرى، لكنها في النهاية ملّت من اللعب به. وضعنا السلة بحرص شديد على حافة النافذة وخرجنا إلى الحديقة لنبحث عن ابنة عمنا.

لاحقًا، في القطار، أخبرت والديّ عن سلة البيض الملونة الصغيرة، وحاولت أمي تفسير ردة فعل عمتي. ربما لم نسمعها جيدًا. ربما قالت: "هذه لكِ لتلعبي بها". لكنني كنت أعرف أنها لم تقصد ذلك. ربما، كما قالت أمي، هي نفسها من حصلت على سلة البيض الصغيرة من الضيف الذي كانت تقف بجانبه. ربما كانت تحاول تدارك الموقف، فلا تريد أن يظن أنها أعطت هديته لشخص آخر. ربما، ربما، قال أبي، ولم نتحدث عن الأمر مجددًا.

عندما غيّرنا القطارات في لندن، اختفى والدي وسط الزحام، ثم عاد بعد دقائق ومعه بيضتان كبيرتان من الشوكولاتة مغلفتان بورق أصفر لامع. أتذكر كيف حملت بيضة عيد الفصح بحرص شديد عندما استأنفنا رحلتنا. كانت كبيرة جدًا على يديّ، ويصعب حملها. كانت ليزا صغيرة جدًا على حمل بيضتها، لكنني حملت بيضتي برفق إلى القطار وجلست بها أمامي على الطاولة الصغيرة، وعندما وصلنا إلى محطتنا

عند وصولي إلى وجهتي، حملتها من القطار مرة أخرى دون أن تنكسر. لم أعد أتذكر متى أكلت بيضتي. لا أتذكر مذاقها، ولا حتى صوت الغلاف الأصفر عندما فتحتها. لا بد أن المذاق والصوت كانا حاضرين، لكن كل ما أتذكره هو رحلة القطار تلك والبيضة الصفراء الكبيرة أمامي.

رقم 512

لم يُضفِ عيد الفصح الذي استحضرته في ذاكرتي أي جديد إلى بحثي عن الربيع. ولم يُقرّبني من الربيع أيضاً وجود كعكات عيد الفصح في السوبر ماركت أو محلات بيع مناديل المائدة الخاصة بعيد الفصح وأرانب الشوكولاتة الصغيرة في أكياس بلاستيكية صفراء. وبينما كنت أواصل رحلتي بالدراجة حاملاً غنائمي في حقائب السرج، خطر لي أن الأمر يبدو يائساً بعض الشيء. وأن هذه الأشياء لا علاقة لها بعيد الفصح أو الربيع. إنها مجرد أدوات. شيء أضعه في دفتري الأخضر إلى جانب عناوين عيد الفصح، وعلامات الربيع، ودرجات الحرارة، وساعات سطوع الشمس.

513#

ومع ذلك، فجأةً، أجد الريح تدفعني من الخلف. أنطلق على مسارات الدراجات الحصوية، وأعبر الجسور، وأسير بمحاذاة القنوات، وتشرق الشمس، وتبدأ دورة الفصول بالعمل، ولا يهم إن كان يومًا من أيام نوفمبر. لا يهم إن كان ربيعي مبنيًا من دعائم غريبة. أنا أُدفع للأمام في عامي. أواصل التبديل مع كذبات ربيعي، كذبات خضراء صغيرة، أو صفراء. يتخلى عني يوم نوفمبر، يفقد قبضته، لقد ابتعدت عنه. لقد تغلبت على سماء نوفمبر الجامدة، التي لا تحمل عيد الفصح، كانت

السماء ملبدة بالغيوم الليلة الماضية، لكن شمس الربيع مشرقة اليوم، وأنا أسير جنوبًا.

رقم 519

وفجأة، ظهرت أمام عيني: حملان حديثة الولادة في حقل في كورنوال. تذكرت خبيرة الأرصاد الجوية - كانت محقة. هناك حملان عيد الفصح هنا. واصلت ركوبي، ولم يكن هناك حقل واحد فقط، بل عدة حقول. نعاج مع حملانها الصغيرة. توقفت مندهشًا. الجو ليس باردًا هنا، بل دافئ جدًا. إنه الربيع.

لقد حان الوقت. انعطفتُ عن الطريق وسرتُ بدراجتي على طول حافة الحقل، ثم رأيتُ لافتةً كُتب عليها "مزرعة الربيع وفندق المبيت والإفطار". فكرتُ في "الربيع الفائق"، جوهر الربيع، ربيع مُركّز، وسجّلتُ دخولي.

526

ليس من السهل التمسك بالربيع. فهو يفلت من بين يدي بمجرد أن أتوقف عن الحركة. أجلس بجوار النافذة في كوخي خلف مزرعتي الربيعية، ومن هنا أستطيع رؤية النعاج مع صغارها في الحقل. هناك حظائر ممتلئة بجمال الربيع، والأغنام تلد، والأبقار تلد، والمراعي خضراء، وهناك مروج وحقول مزروعة ببذور الشتاء.

لكن ثمة شيء مفقود. لا أكتب هذا في كتابي، لكنني أكتبه هنا. شيء ما في الهواء أو في مكان ما بداخلي. أحاسيس وروائح، أو ربما أصوات. دويّ تغريد الطيور في الصباح، ورائحة النباتات النامية. يبدو الهواء خفيفًا جدًا، ربما ينقصه شيء من الأشجار المتفتحة حديثًا، خضرة في الجو، كيمياء الربيع، غبار حبوب اللقاح، لا أدري، لكن حتى لو كانت الحقول خضراء، يصعب استحضار إحساس الربيع.

لا أكتب في كتابي أنه لا ربيع في الهواء، ولا أصوات من السماء. إنه ليس شيئًا يُرى، لكنني أستطيع أن أشم رائحة الفراغ. أستطيع أن أسمعه. لا غناء.

في الصباح، طرقتُ باب المزرعة ودخلتُ الكوخ. تظاهرتُ بأنني وصلتُ للتو وتركتُ دراجتي في الفناء. بعد فترة وجيزة، وصلت عائلة شابة. جاؤوا لرؤية حملان الربيع في نوفمبر وجميع العجول الصغيرة. اصطحبنا صاحب المزرعة في جولة وشرح لنا طريقة عملهم. قال إنه من الأنسب ترك الأغنام والأبقار تلد في الخريف. قالها صراحةً، "العجول". ربما لمصلحة أطفاله الثلاثة في سن المدرسة. أما نحن، فتحدث إلينا عن الولادة الجماعية، وولادة الحملان في الخريف، ومزايا

التربية المنظمة. إنها مسألة إدارة الوقت والعمالة. بعد انتهاء موسم حصاد التوت والفواكه، وزراعة الخريف، لا يزال هناك الكثير من العمال الموسميين. وهذا يعني وجود أيادٍ إضافية للمساعدة في رعاية الأغنام والماشية، والطقس معتدل بما يكفي.

لكي تلد هذه الحيوانات خلال أشهر الخريف، يكون لديها الوقت الكافي للنمو خلال فصل الشتاء وتكون جاهزة لفصل الربيع.

خلف المنزل الريفي عدد من الحظائر التي تضم المزيد من النعاج والحملان التي تظن أن الربيع قد حلّ. توجد خيول للإيجار، فاستأجرتُ حصانًا، مخلوقًا وديعًا، وانطلقنا في جولة عبر الغابة، جولة هادئة وجميلة، لكن هذه غابة خريفية. لا أستطيع الحفاظ على أجواء الربيع.

543

تركتُ الدراجة في سقيفة حديقة في بليموث. وضعتُ حقائب السرج وحذائي المطاطي في زاوية السقيفة، لكن ما زلتُ أحتفظ بالمعطف الواقي من المطر. استقللتُ عبّارة، والآن أنا في قطار متجه نحو الصيف. أشعر بتغيير. تُساعدني النباتات على التأقلم. أفكر في الهليون، وفي الراوند، وفي الفراولة المبكرة. أنا مُستعد للصيف، وأنا في طريقي إليه. أتوق لأشعة الشمس، ومُفعم بالترقب. لا أحتاج إلى أيام حارقة، فقط صيف لطيف مع بعض الشمس وأصوات الشاطئ.

أفكر في أختي. لقد فكرت في اصطحابها معي طوال الصيف، والذهاب لرؤيتها وإخبارها بكل شيء: حزم حقيبة والانطلاق.

ثم أفكر في توماس. أتذكر نظراته. شعور دفء بشرته وأيام الصيف. يخطر ببالي أنني أستطيع الذهاب إلى كليرون، وأنني أستطيع الذهاب لإحضاره، وأنه قد يأتي مسافراً معي في النهاية، وأننا نستطيع السفر معاً إلى الصيف.

أتذكر خطواته على الدرج في ظهيرة صيفية. صرير الخشب مع كل خطوة. لقد عاد من مكتب البريد. أسمعه يصعد إلى الطابق العلوي ليرتب المكتب، ويضع بعض الكتب جانبًا. أصعد أنا أيضًا، لدينا عملٌ لننجزه، ولكن سرعان ما ينتهي بنا المطاف في الغرفة المجاورة على السرير.

أعلم، مع ذلك، أنه لن يأتي معي. لا يمكنني استخدام الصيف كذريعة. سيقول لي إن عليّ أن أجد الصيف بنفسي. لن أذهب لأحضر أحدًا، ولا حتى أختي. سأصل إلى هناك وحدي. كيف لي أن أطلب منهم المجيء معي؟ كيف لي أن أجرّهم إلى ليلة رأسي؟

562

لقد وجدتُ الصيف. صيف نوفمبر. أو بداية الصيف على الأقل. على شاطئ قرب مونبلييه. الطقس هنا دافئ، والشمس مشرقة في منتصف النهار. أدون درجات الحرارة وساعات سطوع الشمس في دفتر فصول السنة، وأكتب أن عدد السياح قليل لأن الموسم ما زال في بدايته. هذا يعني، مع ذلك، أنه ليس من الصعب إيجاد كوخ صيفي شاغر، ولا توجد مشكلة في الحصول على طاولة في مقهى صيفي.

أقيم في منزلٍ خالٍ على شاطئ البحر، وفي الصباح أتناول الفراولة في مطبخي وأنا أستمتع بإطلالة الشاطئ. أشتري الهليون والسمك الطازج، وسرعان ما سأرحل باحثًا عن أيامٍ أكثر دفئًا. لم أعد بحاجةٍ إلى معطف المطر، لذا طويته ووضعته في خزانةٍ تحت الدرج مع المظلة، وعندما أصعد الدرج إلى غرفة نومي المطلة على الماء، أسمع صوتًا خافتًا جدًا من دواسات الدرج تحت قدمي، صريرٌ صيفيٌّ خفيف.

وجدتُ بطانيات ووسائد صيفية. أخذتها إلى الشرفة ونمتُ هناك ليلتين. عليها بقع عفن، وكان الجو باردًا عند استيقاظي، ورطب في الصباح، لكن مع ذلك صرّ الدرج عندما حملتُ الوسائد والبطانيات عائدًا إلى غرفة النوم، ليس صريرًا مزعجًا، ليس صرير الصيف المعتاد، لكن الشمس تتسلل من النافذة، وقريبًا سأسافر على طول الساحل، لأنني الآن مستعدٌّ للدفء. للشمس، للرمال، لليالي الصيف.

578#

ليس من الصعب أن تجد أجواء الصيف في نوفمبر. تتبع سيل الناس المتشوقين للصيف، وكلما اتجهت جنوبًا، ازداد عدد الناس على الشاطئ وفي المتنزهات. كثر الناس وقلة الملابس.

أفكر أكثر في الأجساد الآن وقد حلّ الصيف. أفكر أكثر في الجلد، في الأيدي والأقدام والأذرع والأرجل، الآن وقد أصبحت أراها في الشارع. الأجساد على الشاطئ تُذكّرني بتوماس. أستحضره في الصورة. أتذكر أن الأجساد قد تكون عارية، وتوماس

يبدو الأمر كذلك، لأن الملابس قد اختفت. بالنسبة لي، يمكن لرواد الشاطئ الاحتفاظ بأذرعهم وأرجلهم، ولكن إذا واصلت التفكير، فسيتولى توماس زمام الأمور.

لا أستطيع أن أتجاهل وجوده. كأنه لا يجلس في منزل ما بينما أستمتع بأشعة الشمس وأراقب المصطافين. لا أستطيع أن أجلس في مقهى وأتحدث إلى أحد رواد الشاطئ، ثم أدعوه إلى منزلي، وأجلس معه في شرفتي، ونتناول النبيذ، ثم آخذه إلى فراشي. هذا مستحيل، لأني أعلم أنه عاجلاً أم آجلاً سيتحول إلى توماس أمام عيني.

1584

راقبتُ المنزل. مررتُ به صباحًا ومساءً. بيتي. بيتي الصيفي. يقع في مكانٍ منعزلٍ قليلًا على أحد الشوارعِ المؤدية إلى الشاطئ. لم يكن هناك أحد، فعدتُ في اليوم التالي. لم أجد مفتاحًا، فبحثتُ تحت أحواض الزهور وفي سقيفةٍ في مؤخرة الحديقة، وفي النهاية تمكنتُ من الدخول بالقوة. لم يكن الأمر صعبًا، فقد وجدتُ نافذةً في قبو المنزل من الخلف، على الجانب المواجه للحديقة، وشرفةً عليها طاولةٌ وكرسيان، جاهزةٌ لاستقبال الصيف.

أظن أن أحداً لم يسكن هذا المنزل منذ زمن طويل، لكنني أسكنه الآن. كانت أثاثات الحديقة موضوعة هناك وكأنها تنتظرني. لم يكن من الصعب فتح النافذة والتسلل إلى القبو.

كان المنزل صالحًا للسكن، لكنه مغبر. على طاولة المطبخ، كانت هناك مجموعة من المفاتيح، وعندما صعدت إلى الطابق العلوي، عرفت أن هذا المنزل سيكون بيتي حتى نهاية الصيف. كان ذلك صوت الدرج. شعرتُ بالراحة، وفي دفتر فصولي كتبتُ أنه الصيف. كتبتُ عناوين الفنادق الإسبانية، وكتبتُ عن محطات القطار والحافلات، وكتبتُ أسماء البلدات الصغيرة والشوارع، والآن كتبتُ عن منزلي. أنه أصفر. وأن السوق في الساحة مفتوح في الصباح، وأنني ما أحتاج إلا أن أخرج من باب منزلي وأتجه نحو المدينة، فأكون على بُعد خمس دقائق من بهجة الصيف.

592

لأول مرة يخطر ببالي: أن توماس محقٌّ حين يقول إن عليّ إيجاد مخرجٍ بنفسي. قال: "بحسّك الدقيق للتفاصيل". لا أدري إن كان هناك مخرجٌ أصلاً، لكنني ألاحظ التفاصيل، أجزاء الأجساد، التفاصيل البشرية. إصبع قدمٍ كبيرٌ تنبت منه بعض الشعيرات الداكنة، قدمٌ في صندل. أنظر إلى الأرض تحت الطاولة المجاورة في المقهى. ألاحظ مؤخرة رقبةٍ أمامي في القطار المتجه إلى بلدةٍ مجاورة. يدٌ، أو يدان في الواقع، تعملان معاً، تربطان أحد القوارب في الميناء. تدور الأيدي في رقصةٍ معقدةٍ، ويُربط القارب. أقفُ أنظر إلى البحر، وأفكر في سؤاله إن كان بإمكاني الإبحار معه حين يغادر، لكن هل يُمكن الإبحار حتى الثامن عشر من نوفمبر؟ لا أدري، لكنني أعلم أن الصيف أمامي. ربما لا ينبغي أن أطلب أكثر من ذلك.

دخلتُ المدينة وجلستُ في مقهى. لفت انتباهي رجلٌ أمامه جريدة، كان يضغط بإصبعه على جسر نظارته، يُعيدها إلى مكانها. ثم رفع رأسه.

رأيته يبتسم، لكن سرعان ما اختفى ذلك الشعور، فأخرجتُ كتابي من حقيبتي.

رفعتُ شعري وبحثتُ عن فستان صيفي بلا أكمام. لقد طال شعري، وفي الصباح ذهبتُ إلى المدينة لأقصّه. شعرتُ بخفةٍ عندما رأيتُ شعري يتساقط على الأرض تحت الكرسي. هذا شيءٌ فقدته، قلتُ لنفسي، شعري وأملي. هذا شعرٌ لمسه توماس. سقط على الأرض وكُنس. الآن لم يبقَ على رأسي سوى شعرٍ قصيرٍ كشعر يوم الثامن عشر من نوفمبر.

605

في المساء، أخرج للتنزه في المدينة. ليس في ليلة واحدة فقط، بل في ليلة تلو الأخرى، وبعد يومين أعود مجدداً. أرقص، ولا أتحدث كثيراً لأن الموسيقى صاخبة. نتحدث لغات مختلفة، لكن بجمل بسيطة تكاد الموسيقى تطغى عليها.

أُبعثر شعري وأقول: لقد فقدتُ شعري وأملي. نتحدث الإنجليزية. شعري وأملي، أقولها وأواصل الرقص. في الليلة التالية أقولها بالألمانية، ثم بالفرنسية، ولكن لا جدوى من تلك العبارة. شعري وأملي. شعري وأملي.

أرقص، أدور وأتمايل، وأتذكر أيامي في كليرون. أشعر بشعور غريب من جديد، أقول لنفسي. شعور بالفرح واليأس في آنٍ واحد. أحتسي كوكتيلات مع مكعبات ثلج، أرقص، وأتبادل الأنخاب مع رواد السهر بينما أتناول الزيتون الكبير وفلفل غينديلا الباسكي. أرقص مع النساء، ولكن في الغالب مع الرجال. الغرفة مليئة بالتفاصيل، وألاحظها جميعاً.

كل الإشارات. أستشعر سلسلة من الإشارات، التي كادت أن تُنسى، وهي تتفاعل. من ذراعيّ وساقيّ. من أصابعي التي لا تستطيع مقاومة لفّ ما تبقى من شعري. أعدّل فستاني، نقرأ ما يدور في أذهان بعضنا، نقترب، ثم نبتعد. أحتسي كوكتيلات لاذعة مع رجل يرمق يدي بنظرات خاطفة، ولا أدرك إلا لاحقًا أنه يبحث عن علامة خاتم. هناك خاتم أفتح لونًا قليلًا على إصبعه، فأسأله إن كان خاتمه في جيبه. نعم. يُريني إياه، فأخبره أنني وتوماس لم نرتدِ خواتم قط. لم نشعر أن الإشارات ضرورية. تفصيل زائد، أقول. هو من يخبرني أن ما نتناوله هو فلفل غينديلا الباسكي. لقد عاش في نافارا، ويحاول أن يعلمني كيف أقولها باللغة الباسكية: أنني فقدت شعري وأملي، لكن الأمر صعب للغاية، فأنا أتلعثم في نطق الكلمات، لذا نتحدث بدلاً من ذلك عن اللغات ما قبل الهندو-أوروبية، ولكن ليس إلا لاحقاً، عندما نتجول في الظلام.

يدور حديثنا في حلقة مفرغة. لقد أخبرته عن الثامن عشر من نوفمبر، لكنني أستطيع أن أقول إنه لا يصدقني.

في وقت متأخر من المساء، عدتُ إلى منزلي. كنتُ أرتدي حذاءً يُصدر صوت طقطقة في الظلام، طقطقة، طقطقة، كما يقولون. تعثرتُ، لكنني لم أتوقف. كنتُ أعلم أنني إذا أحضرتُ أحد الساهرين إلى منزلي، فسأتصل برقم توماس. أرسلتُ إشاراتي إلى الفراش وجلستُ في الظلام خلف المنزل.

تتجه عيني نحو الداخل، نحو صورة توماس، ثم تعود إلى الخارج. نحو سماء الليل، لأنني رأيت السماء ليلاً.

ليس لديّ تلسكوب، لكن الليل حالك. أتعرف على عدد من أصدقائي من حديقة كليرون. أسمع أصواتًا، عداءان ليليان يركضان بخطى ثابتة أمام سياجي، مع أنني لا أراهما لأن الشجيرات المحيطة بالشرفة تحجب الطريق عن نظري. طفل يبكي، وامرأة بصوت عجوز تحاول تهدئته. يمر رجل وامرأة منغمسين في حديث شيق. ثم تمر مجموعة، وبعدها امرأتان تنفجران فجأة في الضحك.

أسمع جميع لغات الصيف، تمتزج مع بعضها البعض، أسمع الإسبانية والإنجليزية والألمانية، ثم أسمع الفنلندية، وبعد ذلك بقليل، لغة آسيوية، ثم لغة إسكندنافية. أعتقد أنها النرويجية.

#631

لم أعد أخرج ليلاً. أكتفي بالسماء والمارة. أكتفي بأصوات الصيف، واللغات، والنجوم في الليل. زرت المرصد المحلي ورأيت أجزاءً من قمر عملاق رمادي باهت، أكبر من أن أتخيله.

أصغي إلى الأصوات، إلى الكلمات والموسيقى. خلال النهار، أتجول في أرجاء المدينة، أدخل المتاجر وأتجول جيئة وذهابًا على شاطئ الحصى القريب من منزلي. أجمع قطعًا مختلفة الألوان من زجاج البحر وأضعها في مرطبان زجاجي شفاف على حافة نافذتي. لقد مكثت هنا مدة طويلة حتى أنني أعرف الكثير من زوار المدينة في الصيف، من الباعة في المتاجر إلى النادلين في المقاهي، ورغم أنهم لا يعرفونني، إلا أن هذا يجعلني أشعر وكأنني في بيتي. أتشبث بالصيف وأصغي إلى لغات الصيف. ألتقط الكلمات التي تُشبه نطق كلمة "صيف"، وأكتبها في دفتري، وإذا سمعت أحدهم يقول "هدايا عيد الميلاد" (Weihnachtsgeschenke)، أغادر مسرعًا. أفكر: جوهر الصيف، ذروة الصيف، صيف مُركّز، وفي طريقي إلى منزلي أحاول أن أقول

"وقت الصيف" (Wahljahreszeit)، لكن الكلمة تُعقّد لساني رغم أنني أبذل قصارى جهدي لمواكبة الإيقاع أثناء سيري.

0.639

أستعدّ لنهاية صيفي. أفكّر في الخريف. أفكّر في المنزل في كليرون، في مطر الخريف، لكنّني لا أشتاق إليه. لا أشتاق لأصوات المنزل، ولا للمطر على السطح، ولا للماء في الأنابيب. لا أحلم بالعودة. إلى صرير مقبض الباب. إلى الرسائل والطرود التي تسقط على أرضية الردهة. إلى الفنجان على الصحن. إلى الدخان المتصاعد من المدخنة. إلى العصفور على الشجرة، ويد على الجدار، وظلاله في المطر قرب السياج.

أفتقد خطوات توماس على الدرج، لكنني أفتقد خطواته على درج الصيف، لا على درج نوفمبر. لا أفتقد توماس في الثامن عشر من نوفمبر، ولا أفتقد المنزل في كليرون.

يوجد في منزلي درج، ويصدر صريراً عند صعودي أو نزولي، ولكن هذا كل ما في الأمر. عندما أستلقي في سريري ونافذتي مفتوحة على الليل، يسود الصمت أرجاء المنزل. لا يصدر أي صرير، ولا أحد يصعد أو ينزل الدرج.

649

أتجه ببطء شديد نحو أواخر الصيف، نحو الشمال. كان هناك حزن خفيف في صوت الطقطقة المعدنية وأنا أدير المفتاح في الباب الأمامي، لكنني الآن في طريقي. تركت المفتاح خلف كومة صغيرة من الطوب في سقيفة الحديقة لأنني سأعود. هذا ما أفكر فيه. سأعود، لأنني صنعت الصيف، وسيعود الصيف من جديد. أجمع ذكرياتي الصيفية الزاهية، والآن أغلق الأبواب وأتجه نحو أواخر الصيف ونحو الخريف. نحو نوفمبر، نحو أيام نوفمبر الحقيقية، لكن ذلك الوقت لم يأتِ بعد، ولا أدونه في دفتر فصولي، لأنني أريد أواخر الصيف ولياليه الباردة.

أتجه نحو مدن أواخر الصيف، وأفكر في شوارع الخريف. لقد دوّنت اسم مدريد في دفتر فصولي، وسافرت شمالًا، ودرست جداول الأرصاد الجوية، ووجدت منازل أواخر الصيف على حاسوبي في الفندق، والآن أشعر بالتغيير، بحركةٍ ما، بحزنٍ واعٍ. لقد انتهى الصيف، أسيرُ وسترتي على ذراعي، ربيعي

أصبحت السترة الآن سترة خريفية. لست بحاجة إليها اليوم، ولكن عندما تحجب الغيوم الشمس سأكون مستعداً.

J654

ثمة ارتعاش، نوع من الذعر الصامت. أتوق إلى سبتمبر. أتوق إلى أماكن تُشعرني بأجواء سبتمبر في كليرون، صباح ضبابي، نسمة باردة في الهواء، أيام تخلصت من دفء الصيف. هناك ملابس أكثر في الشوارع، وجلد أقل. هناك سترات وأحذية هنا. ألجأ إلى الداخل، أشعر بقلقٍ ما، لكن لا شيء يحدث. ذهبتُ مساء أمس إلى المسرح، لكن كل ما رأيته أناسٌ محاصرون في مكانٍ ما، على خشبة المسرح. يتجولون بقلقٍ لكنهم لا يجدون مخرجًا.

655

هنا هدوءٌ تام. إنه الصباح، وأنا أجلس على مقعدٍ بجانب قناة، لكن لا حركة تُذكر. أُحدّق في الماء، البنيّ الراكد. أو بالأحرى، يكاد يخلو من الحركة. يجري الماء ببطءٍ شديدٍ لدرجة أنك تحتاج إلى تثبيت نظرك على ورقةٍ سقطت على السطح لتشعر بحركتها، ثم تتحرك الورقة، حركةً طفيفةً للغاية.

توقفت آلتي عن العمل. أعتقد أن شهر سبتمبر قد حلّ، وهناك ورقة شجر على الماء، وكل شيء على وشك التوقف تمامًا.

في كتابي عن الفصول، كتبتُ عن شهر أغسطس المعتدل وأوائل سبتمبر. كتبتُ عن أركاشون وبوردو ولاروشيل. تتبعتُ ساحل المحيط الأطلسي واتجهتُ شمالاً. دوّنتُ مواعيد القطارات والفنادق، كل الأشياء التي أدوّنها عادةً، ومع ذلك أشعر وكأن عامي قد توقف تماماً.

658#

لستُ من هواة السفر. أنتقل من مكانٍ لآخر بين الحين والآخر، لكن هذا ليس سفراً. ببساطة، أنتقل قليلاً إلى الشمال. أحاول أن أستشعر عبق شهر سبتمبر.

أشتري التفاح والإجاص. أشتري العنب والتوت. أطلب أطباق الخريف وأشدّ سترتي حول جسدي.

أقرأ عن الشتاء والربيع والصيف في كتابي عن الفصول. أكتب عن سبتمبر وأفكر في بياض الشتاء وألوانه الزاهية، وبصل الربيع الأخضر، وزرقة الصيف العميقة، وصباح أغسطس الذهبي، وكل درجات البني والأحمر والرمادي، لكن أكاذيبي تتلاشى شيئًا فشيئًا، فهي رمادية باهتة وبيضاء وألوان الباستيل، لكنها تزداد شفافية يومًا بعد يوم. أشعر دائمًا بنوفمبر، لكنني أكتب عن سبتمبر. في متحف، أتأمل بعض الأكواب الرومانية، الملونة، المعتمة. هكذا هي الأمور. أصبحت أكاذيبي طبقة رقيقة من الزجاج. يمكنك الرؤية من خلالها، تحمل مسحة لونية، طبقة

رقيقة من الماضي، من آثار الزمن، مجرد لمسة من الصبغة، لكنني أستطيع رؤيتها: هذه الأكواب مليئة بنوفمبر.

667

ثم فجأة، وجدتُ نفسي في سبتمبر. سبتمبر غير المتوقع. خارج النمط الإحصائي، لأنني تذكرت فجأة أيامي الدافئة للغاية في كولونيا. كنتُ متجهاً نحو الشتاء، وكان الهواء في الساحة خارج المحطة دافئاً جداً، لكنني الآن أشعر بسبتمبر، لأن الشوارع تنبض بهواء سبتمبر.

نزلتُ من القطار وسرتُ إلى ساحة الكاتدرائية، حيثُ بدت الكاتدرائية شامخةً على جانبي. في زيارتي الأخيرة، تمنيتُ لو كان ديسمبر ويناير، وقد أثّر عليّ البرد، أما الآن فلا أشعر إلا بنسمةٍ عليلةٍ في الهواء. 63 درجةً ونسيمٌ عليل.

في الساحة، استقبلتني نسمة عليلة. دخلت الكنيسة، وتأملت ألوان نوافذها الزجاجية الملونة في الضوء الخافت، ثم سطعت الشمس للحظة، فأضاءت الكاتدرائية بأكملها بضوء ساطع متلألئ. غمرت الألوان كل زاوية، عالية ومنخفضة، تتراقص على السقف والجدران وفي ظلال الأرض، قبل أن تتلاشى من جديد. ضوء هادئ. ألوان سبتمبر.

#671

زال قلقي، وتأقلمت مع هذا اليوم من شهر سبتمبر. وجدت فندقًا، وأتجول في المدينة. انتهى الصيف، وحلّ الخريف، تنهيدة هادئة، ويوم لطيف.

أشعر بالراحة عندما أجلس على مقعد وأتأمل أوراق الشجر الصفراء. أشعر بالراحة في الشوارع والمقاهي. لا أجد صعوبة في مرور الأيام. أُسلي نفسي بمشاهدة الأفلام والمسرحيات وحضور الحفلات الموسيقية. يجذبني فضول هادئ إلى المتاحف والمعارض. أدون كل شيء: شارع هبت فيه الرياح فجأة، معرض أسرني لساعات ثم عاد بي في اليوم التالي، ركن دافئ في مقهى أقرأ فيه كتابًا. كل هذا يُشير إلى الخريف، خريف خفيف وفضولي. دائرة تُغلق. أُوسع آفاقي. لقد وصلت إلى سبتمبر وسأستمر حتى أكتوبر، وعندما أصل إلى نوفمبر، يُمكنني البدء من جديد: عام، نموذج، آلة مواسم مفتوحة يُمكنني ركوبها مرارًا وتكرارًا.

682

كنتُ أخشى ذلك، لكنني لم أتوقع حدوثه حقًا. لا أعرف لماذا. أعني، لماذا لم أكن مستعدة؟ كان عليّ أن أتوقع ذلك. سرقة. سرقة حقيبة

عادية. لكن حقيبتي ليست مجرد حقيبة. حقيبتي هي كل شيء. كل ما أملك. إذا ضاعت، سأضيع. تقريبًا. لكنها عادت. كل شيء عاد. تقريبًا. كل ما أحتاجه عاد. لكن الخوف ما زال يلازمني. لم يختفِ، حتى بعد أن استعدت حقيبتي. لذا الآن لديّ الخوف والحقيبة معًا، وأحملهما معي. لكن كتابي عن الفصول لم يعد معي.

وصلتُ إلى دوسلدورف لأجد نفس الطقس المعتدل الذي اعتدتُ عليه في كولونيا. هناك مرتفع جوي في مكان ما شرق المدينة. كنتُ أُسمّي هذا الشهر سبتمبر، لكنني ذهبتُ بحثًا عن أكتوبر. بحثًا عن سماء صافية وهواء أكثر برودة، وعندما راجعتُ بيانات الأرصاد الجوية على حاسوبي في فندقي في كولونيا، وجدتُ أن السماء ستكون صافية في دوسلدورف.

وصلتُ إلى دوسلدورف قبل يومين. لاحظتُ في محطة كولونيا ازدحامًا كبيرًا بالركاب، أكثر من المرات السابقة. كانت الساعة حوالي الثانية بعد الظهر، وركبتُ أول قطار إلى دوسلدورف، ولكن بعد أن استقررتُ في مقعدي، أدركتُ أنني في قطار محلي يتوقف في كل محطة ليلتقط الركاب. لم يكونوا ركابًا عاديين، بل كانوا مشجعي كرة قدم في طريقهم إلى دوسلدورف. لم يكونوا وقحين أو صاخبين، بل على العكس، كانوا مهذبين وودودين. كانوا ثملين قليلاً ويتبادلون الأنخاب. كان الجو صاخبًا ومبهجًا، ومربكًا بعض الشيء لمن ليس من مشجعي كرة القدم، بل مجرد مسافر في سبتمبر متجه إلى أكتوبر.

عُرضت عليّ علبة بيرة، فقبلتها بترددٍ طفيف. فكرت: بيرة سبتمبر ومباراة سبتمبر، لكنني أعتقد أن ذلك كان لتجنب الخروج عن الموضوع. نادرًا ما أرى مثل هذه الاحتفالات في القطار، ولا بد أن رحلاتي السابقة من وإلى كولونيا كانت في وقت متأخر من بعد الظهر، لأني لم أتذكر وجود أي مشجعين لكرة القدم أو احتفالات أو بيرة في أيام أخرى من الثامن عشر من نوفمبر.

كان ركاب القطار في طريقهم إلى مباراة بين فريق دوسلدورف المحلي وفريق آخر من كولونيا على الأرجح، وكان هناك مشجعون من كلا الفريقين على متن القطار. ساد جو من الحماس قبل المباراة، لكن الأجواء كانت ودية للغاية، رغم اختلاف انتماء المشجعين وارتدائهم أوشحة بألوان مختلفة: الأحمر والأبيض لأحد الفريقين، والأسود والأحمر للآخر.

كانت مباراةً حاسمةً على ما يبدو. مسألة صعود أو هبوط، لكن لم يكن أحدٌ يعلم لمن ستكون النتيجة. في غضون ساعتين، سيُحسم الأمر، وسيكون بعض هؤلاء الركاب في الجانب الفائز، وبعضهم في الجانب

الخاسر. سينتقل بعضهم إلى سلسلة أو قسم آخر، أو أيًا كان اسمه، بينما سيهبط آخرون. أو سيبقى بعضهم في الأعلى، وآخرون في الأسفل. لم أكن متأكدًا تمامًا من مغزى نتيجة هذه المباراة التي بدت مصيرية، لأنني لم أكن أعلم أنها ستُقام في الثامن عشر من نوفمبر.

كان القطار مكتظًا، والناس يتمايلون في الممرات، وبعضهم يجلس على الأرض عند الباب، وكانت الأرض نفسها ملطخة ببرك صغيرة من البيرة، برك من الألفة، كما لو أن البيرة هي ما يربط الفصيلين ببعضهما البعض.

ربطتنا الروابط ببعضنا البعض. فرفعت علبة البيرة، تارةً إلى جانب وتارةً إلى الآخر، وشربتها حتى آخر قطرة بينما ازداد القطار ازدحامًا، وبدأت أتساءل إن كان عليّ أن أفسح مقعدي لأحد ركابي الأكثر ترنحًا، ولكننا وصلنا إلى دوسلدورف، وفي المحطة تدافعنا من القطار، وتدفقنا على طول الرصيف ونزولًا على الدرج. كان صف من رجال الشرطة ينتظر في قاعة المدخل، وعندها فقط بدأت أشعر ببعض الانزعاج. لم يكن واضحًا تمامًا ما إذا كانت الشرطة تتوقع شجارًا أم مجرد مزاح، فأسرعت إلى وسط المدينة بينما انتشرت حشود مشجعي كرة القدم في الشوارع أو بدأوا يبحثون عن وسيلة نقل إلى الملعب حيث ستقام المباراة.

كانت ظهيرة مشمسة في دوسلدورف. ربما كان الجو أبرد قليلاً من كولونيا، وأقل غيوماً. وبينما كنت أسير في المدينة باحثاً عن شهر أكتوبر وغرفة فندق شاغرة، شعرت بنشوة خفيفة من الغموض الذي يكتنف الموقف: أن هناك شيئاً أجهله عن الثامن عشر من نوفمبر، وأن هناك مفاجآت صغيرة قد تكون مخبأة فيه، وأن هناك بعض الإثارة ما زالت باقية. شعرت بنشوة مفاجئة من اللذة لجهلي هذا، ليس لأني ظننت أنني أعرف كل شيء عن الثامن عشر من نوفمبر، بل لأني كنت أعرف الكثير، وكان هناك أيضاً الكثير مما يمكنني تعلمه لو أردت، ولكن في تلك اللحظة بالذات، لم يكن هناك سبيل لمعرفة أي شيء عن نتيجة المباراة. لم تكن لدي أدنى فكرة. كنت مبتدئاً في عالم كرة القدم في الثامن عشر من نوفمبر.

فكرتُ للحظة في الانضمام إلى المرح. قلتُ لنفسي: سأذهب إلى مباراة كرة قدم لأول مرة في حياتي، لكنني سرعان ما تراجعتُ عن هذه الفكرة لأن إيجاد فندقٍ للمبيت لم يكن بالأمر الهين. استفسرتُ في عددٍ من الفنادق القريبة من المحطة، لكن الفندق الخامس فقط، وهو فندق صغير يبعد عشر دقائق سيرًا على الأقدام من المحطة، حيث من غير المرجح أن يقيم فيه الكثير من مشجعي كرة القدم، كان لديه غرف شاغرة.

في ذلك المساء، تابعت المباراة على التلفاز في حانة قريبة من الفندق. فاز الفريق المضيف، وبدا أنه سيصعد إلى الدرجة الأعلى، لكن هذا الفوز لم يتحقق إلا في الوقت الإضافي، الذي شهد توترًا متزايدًا في الحانة، مع أنني كنت قد بدأت أفقد اهتمامي. بدا أن جميع من يشاهدون المباراة على الشاشة الكبيرة من مشجعي الفريق المضيف، وعندما أُطلقت صافرة النهاية، انفجرت الحانة فرحًا، لكن بعد أن شربت بعض المشروبات...

بعد العديد من التهاني، بدأت أشعر بالنعاس بسبب البيرة، فانسحبت بهدوء وعدت إلى الفندق.

استيقظتُ أمس وأنا أعاني من صداع خفيف. عدتُ إلى النوم، ثم استيقظتُ مجدداً بعد الظهر بقليل. خرجتُ واشتريتُ شطيرة لا تُناسب أجواء أكتوبر من مكان قريب، وفي منتصف الظهيرة، بعد أن سطعت الشمس، تجولتُ في المدينة. وبينما كنتُ أسير، شعرتُ باقتراب موعد المباراة، وكدتُ أشعر بالهدوء يُخيّم على المدينة من حولي، وخفّت حركة المرور، ويبدو أن معظم سكان المدينة قد ذهبوا إلى المباراة أو لجأوا إلى منازلهم. رأيتُ أجهزة التلفاز تعمل في بعض المقاهي ومطاعم البيتزا التي مررتُ بها، وكان بعض المشجعين يرتدون أوشحة أو قمصاناً بألوان الفريق المضيف، واقفين أمامها، عدا ذلك لم يكن من الممكن معرفة من يُشجع أي فريق. أظن أن معظم المشجعين الذين يرتدون ألوان الفريق قد ذهبوا إلى الملعب لمشاهدة المباراة مباشرة.

تجولت في أرجاء المدينة، ونزلتُ درجًا حجريًا يؤدي إلى نهر الراين، ثم واصلتُ سيري بمحاذاة النهر. لم يكن هناك الكثير من الناس. بعض الأشخاص أو الأزواج يجلسون هنا وهناك على الجدار الحجري على رصيف الميناء، وفرقة جاز تعزف في أحد المطاعم العائمة، فجلستُ على كرسي بلاستيكي أسود تحت أشعة الشمس، واحتسيتُ بيرة بينما كان بعض رواد المطعم يتناولون غداءهم المتأخر على طاولة قريبة.

وجدت نفسي أفكر أنني قد اكتسبت ذوقًا للبيرة، ثم وجدت نفسي أفكر في مهرجان أكتوبر. هل سيكون مهرجان أكتوبر هو مهرجاني القادم؟ هل ستكون محطتي الأخيرة قبل حلول نوفمبر من جديد؟ وتساءلت عما إذا كان بإمكاني العثور على حفلة لحضورها. مهرجان أكتوبر لأشخاص لم يسبق لهم أن التقوا من قبل، لأنني لم أكن متأكدًا من أنني سأُضم تلقائيًا إلى الحفلة كما حدث في القطار مع مشجعي كرة القدم.

بعد قليل، واصلتُ سيري على طول ممشى النهر، متأملاً السفن والجسور ورصيف الميناء الطويل ذي الحجر الرمادي. لستُ متأكدًا إن

كان ذلك بسبب عدم انتباهي، أو لأنني كنتُ أجلس أحتسي الجعة تحت أشعة الشمس، أو ربما كان مجرد مزيج من عوامل عشوائية، لكن فجأةً مرّ بي رجلٌ على دراجة، وسمعتُ صوت خشخشة دراجة قديمة بسلسلة صدئة أو عجلة تصطدم بجدار.

أحد واقيات الطين. ربما كان الصوت هو ما شتت انتباهي، لأنه قبل أن أستوعب ما يحدث، أمسك حقيبتي التي كانت على كتفي، وانتزعها من يدي بعنف، كما شعرت، وبينما كنت أتراجع متعثرة، تمكن من خلعها عن ذراعي بمهارة وسرعة لم أتمكن معها من الرد. كل ما رأيته أنه كان يرتدي ألوان الفريق المضيف، وشاحه وقبعته، وكانت الأخيرة مشدودة فوق أذنيه. بالإضافة إلى ذلك، كان يرتدي سترة بغطاء رأس زرقاء داكنة وبنطال رياضي داكن اللون بخط أبيض رفيع على جانبه، كان واضحًا تمامًا عندما - وما زالت حقيبتي في يده - استدار أمامي واختفى صاعدًا منحدرًا يؤدي من الممشى إلى وسط المدينة.

صرختُ خلفه وانطلقتُ في أثره، لكنه كان قد اختفى قبل أن أصل إلى المنحدر. نظرتُ حولي في الشارع وأنا ألهث لالتقاط أنفاسي، لكن يبدو أنه اختصر الطريق عبر حركة المرور الخفيفة عند إشارة المرور الحمراء واختفى في أحد الشوارع الضيقة على الجانب الآخر من الطريق.

كنتُ في حالة صدمة ويأس، وشعرتُ وكأنني عارٍ بدون حقيبتي. خطر ببالي أن يحدث شيء كهذا، لكنني استبعدتُ ذلك. فحقيبتي كانت بالية ومتهالكة، ولا تبدو وكأنها تحتوي على أي شيء ثمين، كما أنني بالتأكيد لا أبدو كشخص يحمل أشياءً ثمينة. ولأسباب أمنية، أحمل دائمًا بطاقة ائتمان إضافية في جيب سترتي، لكنني لم أرَ ضرورة لاتخاذ أي احتياطات إضافية سوى تقسيم نقودي ووضعها في أماكن مختلفة. عادةً ما أحمل ملابسي وأغراضي الأخرى معي أو أتركها في غرفتي بالفندق خلال النهار، ونادرًا ما يختفي شيء. لطالما اعتقدتُ أنه إذا سُرقت محفظتي أو حقيبتي، فستعود إلى المكان الذي سُرقت منه، لذا حتى لو تعرضتُ للسرقة، فسيكون حل الجريمة سهلًا، إذ من المؤكد أن اللص سيُعثر عليه بالقرب من مسرح الجريمة مرارًا وتكرارًا، يومًا بعد يوم.

لكنني الآن شعرتُ بضياعٍ تامٍّ بدون حقيبتي. تجولتُ جيئةً وذهاباً على طول رصيف الميناء، أبحث في المنطقة المحيطة بمكان الحادث، رغم أنني رأيتُ اللص يفرّ بحقيبتي. ومن هناك، واصلتُ البحث في الاتجاه الذي سلكه اللص، أبحث في مداخل الأبواب وصناديق القمامة في الشوارع المجاورة، لكن حقيبتي لم تكن في أي مكان، وفي النهاية...

لم يكن أمامي خيار سوى العودة إلى فندقي. لكن قبل ذلك، وللتأكد، عدت إلى المطعم على الكورنيش وسألت إن كان أحد قد رأى اللص أو حقيبتي، لكن لم يستطع أحد هناك مساعدتي في البحث.

لم أجد أي أثر لحقيبتي في طريق عودتي إلى الفندق، ولم يكن أمامي خيار سوى الانتظار لمعرفة ما إذا كانت ستعود إليّ. بدا لي أن التصرف الأمثل هو مواصلة يومي والعودة إلى المكان الذي حدث فيه الأمر لاحقاً.

أخبرت موظفي الاستقبال أن حقيبتي قد سُرقت، وبما أنه قد يكون بداخلها إيصال من الفندق، طلبت منهم أن يراقبوا أي حقيبة أو محفظة تشبه حقيبتي يتم تسليمها. واقترحوا عليّ أن أبلغ الشرطة عن السرقة.

وجدت صعوبة في النوم الليلة الماضية. في البداية، واجهت صعوبة في النوم، وعندما غفوت أخيرًا، كنت أستيقظ بين الحين والآخر، وفي كل مرة أستيقظ فيها، كنت أنهض وأبحث في غرفتي عن حقائبي المُعادة. لكن حقيبتي لم تعد. لم تكن بجانب سريري عندما استيقظت بعد أن نمت ساعتين كاملتين، ولم تظهر خلال فترة ما بعد الظهر. لم أسلمها في مكتب الاستقبال، ولم تكن تنتظرني في الشارع أو في أي من الأماكن الأخرى التي بحثت فيها: صناديق القمامة في الفندق، وغرفة الملابس خلف مكتب الاستقبال، ودورات المياه بجوار غرفة الإفطار.

قمتُ هذا الصباح بجولتي الأولى في الشوارع، ومع اقتراب موعد سرقة الحقيبة، تجولتُ مرة أخرى في نفس الشوارع. كلما رأيتُ شخصًا يرتدي وشاحًا أو قبعةً تحمل شعار الفريق المحلي، وكلما لمحتُ شخصًا يرتدي بنطالًا رياضيًا أو سترةً ذات قلنسوة، كنتُ أقترب وأُلقي نظرةً أخرى، لكن لم يكن أيٌّ منهم يُشبه سارق الحقيبة الذي كان يستقل الدراجة، ولم أرَ أي دراجة قد تكون ملكًا له. دخلتُ العديد من المقاهي ومطاعم البيتزا، لكنني لم أرَ في أيٍّ منها شخصًا يُشبه سارق حقيبتي.

لاحقًا، عدتُ إلى المطعم على الممشى، وطلبتُ هذه المرة فنجان قهوة، لكنني لم أرَ أحدًا قريبًا يُشبه سارق الحقيبة، بل لم أرَ أحدًا يرتدي وشاحًا أو بنطالًا رياضيًا، ولا حتى راكب دراجة. في نفس وقت الأمس تقريبًا، نهضتُ وسرتُ على طول الممشى مرة أخرى، وحواسي في حالة تأهب قصوى، لكن ما زلتُ

لم أجد أي دليل أتبعه. في النهاية استسلمت وجلست على مقعد مطل على النهر. لم يحدث شيء، فقررت العودة من نفس الطريق.

اتضح أن هذا كان قرارًا صائبًا، فبينما كنت أمرّ بين طاولات المطعم، لمحتُ حقيبتي فجأةً بجوار طاولة أبعد قليلًا عن مكاني. كانت مُسندةً على أصيص زهور، كما لو أنني نسيتها بنفسي عند مغادرتي. هرعتُ لأخذها وسألتُ النادل الذي خرج من المطعم في تلك اللحظة حاملًا طلب غداء، بلهفة، إن كان قد رأى أحدًا يترك الحقيبة. حاولتُ أن أشرح له أنها سُرقت، وسألته إن كان قد رأى رجلًا على دراجة، لكنه لم يرَ شيئًا. أما الزوجان اليابانيان اللذان كانا ينتظران طعامهما، فلم يُدليا إلا بتصريحٍ مفاده أنهما رأيا شخصًا يحمل حقيبة، لكنهما ظنّا على ما يبدو أنني أناٍ من فعل ذلك. وهذا صحيحٌ بالطبع، لأنني كنت قد استعدتها للتو، لكنني لا أعتقد أن هذا ما قصداه.

ولتجنب تعقيد الموقف أكثر، شكرتهم جميعًا بسرعة وانصرفت حاملًا حقيبتي قبل أن يتساءل أحد. نظرت حولي، لكن لم يكن هناك ما يثير الشك، فعدتُ مسرعًا إلى الفندق.

فور وصولي إلى غرفتي، فتحت حقيبتي. لحسن الحظ، كانت محفظتي وبطاقة ائتماني لا تزالان فيها، إلى جانب معظم الأشياء التي لم أتركها في غرفتي بالفندق. هززت محتويات الحقيبة على الأرض لأجد بعض الأشياء الأخرى التي نسيت وجودها فيها، ولكنها بدت سليمة أيضاً. عملة رومانية من فئة السسترتيوس، قلمي من صالون لوميير، كيس يحتوي على ثماني قطع من الكراميل، جورب صوفي فقدتُ جوربي الآخر منذ زمن، والذي لا بد أنه كان في قاع الحقيبة منذ الربيع، وأنبوب ماسكارا قديم جاف.

وجدتُ في أحد الجيوب الأمامية ذاكرة الفلاش التي اشتريتها من كوبنهاغن، مغطاةً بالفتات والوبر من الحقيبة. وفي جيب آخر، كان المصباح اليدوي الذي وجدته في خزانة المكانس الخاصة بأمي. كان جواز سفري موجودًا أيضًا، لكن النقود التي كانت في محفظتي، حوالي ألف يورو، قد سُرقت. اختفى دفتر فصول السنة أيضًا، وكذلك الأوراق والنقود التي كانت مدسوسة في آخره.

لا أعرف ما حدث. من الصعب إيجاد تفسير منطقي، لكنني أفترض أن اللص أخذ المال واحتفظ بدفتر الفصول، ربما لأنه ظن أنه يحتوي على معلومات قيّمة. أظن أنه بدا غريبًا بكل تلك التفاصيل عن الفصول، والعناوين، وأسماء الشركات، وخطوط السكك الحديدية، ورسوم بيانية لدرجات الحرارة، وما إلى ذلك، ووجود كل هذا المال قد يوحي لأحدهم بإمكانية جني المال من هذه الملاحظات الغامضة. لكن هذا لا يفسر كيف عادت حقيبتي إلى المطعم. تفسير آخر محتمل هو أن دفتر الفصول لم يعد له أي معنى. أخذ اللص المال، وألقى الحقيبة بجانب أصيص الزهور، واختفى دفتر الفصول ببساطة بين ليلة وضحاها.

أجد الأمر غريباً، لكنني أكتفي بفكرة أن دفتر الفصول والنقود لم يعودا مهمين بالنسبة لي. كأنهما ليسا ملكي ويمكنهما الاختفاء ببساطة. لكن لماذا يُفضّل الاحتفاظ بدفتر يحتوي على ملاحظات ستة أشهر تقريباً على الاحتفاظ بجورب شتوي تائه؟ يبقى هذا لغزاً.

شعرتُ بالارتياح والحيرة في آنٍ واحد، فأعدتُ ترتيب حقيبتي. كان الأهم، كما فكرت، هو أنني استعدتُ حقيبتي. أما تفسير سلوك الأشياء الجامدة فيمكن تأجيله.

بعد فترة وجيزة، أدركتُ أن مفاتيحي مفقودة أيضًا، مفتاح المنزل في كليرون ومفتاح الغرفة رقم ١٦ في فندق دو ليسون. انتابني قلقٌ طفيف على توماس، لكن اسمه غير مذكور في دفتر ملاحظاتي، كما أن عنوان منزلنا غير مدون في أي مكان. لا يوجد أي ذكر لفندق دو ليسون فيه أيضًا، وعنوان الفندق غير مكتوب على المفتاح، لذا سيكون من الصعب العثور على أبواب بأقفال تناسب هذه المفاتيح. المجلد الذي يحتوي على ملاحظاتي موضوع على الطاولة بجانبي، إلى جانب دفتر الملاحظات الذي دوّنت فيه جميع أيامي وبعض الكتب التي تركتها هناك عندما خرجتُ أمس. هذا يُريحني، لأنه على الرغم من أنني لم أعد أملك دفتر ملاحظاتي الأخضر ذي الغلاف القماشي، إلا أنني ما زلت أملك كل ما أحتاجه.

ومع ذلك، لا تزال أفكاري تدور حول كيفية تمكن اللص من الاحتفاظ بمسروقاته، وماذا سيحدث لها إن تخلص منها؟ هل أخذ النقود والمفاتيح وكتاب المواسم؟

ثم ألقيتُ بالحقيبة في المطعم، أم أنها عادت من تلقاء نفسها؟ وكيف اختفى دفتر فصول السنة؟ هل أصبح بلا فائدة؟ شيء لم أعد أحتاجه؟ لا أدري. أعلم أن كل شيء محاط بمنطقة رمادية، وأن توقف الزمن هذا يفوق فهمي. لكن حقيبتي عادت. هذا ما أفهمه. لا يهم المال، يمكنني دائمًا سحب المزيد من الصراف الآلي. وربما لا يهم دفتر فصول السنة أيضًا. لقد ضاعت فصولي، ولكن هل أحتاج إلى فصول؟

ربما ستختفي الأشياء التي لا أحتاجها. أفكر في المفاتيح المفقودة. ربما هذا ما يقلقني. لكن لا حيلة لي في الأمر. ربما هي إشارة إلى أنه لا ينبغي لي العودة. لا أعرف. لكنني أعرف أنه الخريف، في الحقيقة إنه نوفمبر. ليس سبتمبر ولا أكتوبر. إنه نوفمبر. الثامن عشر من نوفمبر. يوم معتدل في دوسلدورف، حيث يشرب مشجعو الفريق المضيف والفريق الزائر الجعة معًا، حيث يخسر الفريق الزائر ويتجول مشجعو الفريق المضيف على الدراجات، يسرقون الحقائب. ربما يجب عليّ الانضمام إلى الفريق الخصم. ربما يجب عليّ أن أتعايش مع العالم كما

هو وأتقبل أنه لن يكون هناك مهرجان أكتوبر أبدًا، وأنه لم تعد هناك مهرجانات، لا عيد ميلاد، لا رأس سنة، وأنني لن أرى الشتاء أو الربيع مرة أخرى، لا عيد فصح، لا صيف. فقط نوفمبر ونوفمبر.

على أي حال، لستُ في مزاجٍ للاحتفالات. ولا لشرب البيرة، ولا للتجمعات التي يشرب فيها الناس البيرة ويتبادلون الأنخاب ويسرقون حقائب بعضهم البعض.

رقم 701

ليس لديّ أي مشكلة مع شهر نوفمبر، على الرغم من ذلك. ليس بعد أن تخلصتُ من وهم الفصول. ليس كما يبدو نوفمبر هنا: دافئ بالنسبة لهذا الوقت من السنة، مع شمس ساطعة في منتصف الظهيرة، ونسيم عليل، ولا حاجة لي للسفر بحثًا عن الفصول. لا أشعر بأي رغبة في السفر، ولا أتمنى شيئًا. كل ما أفكر فيه هو أنني على وشك إنهاء عامي الثاني، أو بالأحرى، أنني أتجول في زمن لا وجود فيه للسنوات، لأنني أعرف جيدًا: لم أختبر الفصول، ولستُ أبحث عن مواقع لتصوير فيلم. الفصول ليست مشاهد أو مواقع. ولا يمكنك بناء عام من شظايا نوفمبر. بالطبع لا يمكنك.

709

مع ذلك، ثمة بصيص أمل. أملٌ بأن هناك مخرجًا من يومي في نوفمبر. وأن تقسيم حياتي إلى فصول قد أفادني. وأنني اقتربت من عامٍ أفضل. وأنني سأتمكن من تجاوز الثامن عشر من نوفمبر عندما أصل إلى نهاية العام مرة أخرى. وأن حياتي في فصولها قد تساعدني في إيجاد مخرج.

لا أدري لماذا يصعب عليّ التوقف عن التفكير بالسنوات، ولا أدري لماذا أتشبث بهذا الأمل الضئيل. ما أستطيع تأكيده هو أن الأمل قد يطرق بابي أحيانًا، ضيفًا نادرًا وغير مرحب به دائمًا. لقد حاولتُ صنع آلة للفصول، وحاولتُ إعادة السنة إلى بدايتها. ألم أفعل كل ما بوسعي لأعود إلى الماضي؟

T721

لكنني لا أصدق هذا لفترة طويلة. لا أعتقد أنه من الممكن تسريع عام كامل. لا أظن أنني سأنتقل إلى أيام جديدة من شهر نوفمبر، أو أنني سأتمكن من تسريع الأمور والانطلاق في رحلة نوفمبر: السابع عشر، الثامن عشر، التاسع عشر، العشرون.

أظن أنني سأظل أستيقظ على الثامن عشر من نوفمبر. على زمنٍ بلا فصول. زمنٍ بلا أيامٍ ولا شهور، بلا أعيادٍ ولا مناسباتٍ ولا تقاويم ولا

تواريخ. إنه أمرٌ مزمنٌ ولا حيلة لنا فيه. أتجوّل في الشوارع، أنا في نوفمبر، لقد فقدتُ فصولي. وداعاً للفصول. أهلاً نوفمبر.

0.733

وها قد انقضى العام. عامٌ من الفصول، هكذا أقول لنفسي، لكنها لم تكن فصولًا. كانت حطامًا، انتُشل من سيل أيام نوفمبر. لا يمكنك إعادة بناء عام مهما تابعت بدقة رسوم الأرصاد الجوية وحساباتها، ولا يمكنك بناء عام من شظايا نوفمبر. هذا مستحيل. أحاول ألا أفكر في الأعوام. ليس الأمر سهلًا، لكنني سأفكر الآن في الأيام. أيام نوفمبر المعتدلة التي

يتكرر الأمر مراراً وتكراراً. ويأتي الصباح، ويأتي المساء، ويأتي الليل، ثم يعود الصباح من جديد. في نفس اليوم.

عامان في الثامن عشر من نوفمبر. 733 يومًا، وغدًا 734، وبعد غد 735. إلى متى؟ حتى أموت؟ لكنني لست ميتًا. إنه نوفمبر. أنا في دوسلدورف. لماذا أنا هنا؟

738

أنا هنا بسبب مرتفع جوي صغير شرق المدينة. الطقس هو ما دفعني للمجيء. أنا هنا لأن الجو لا يمطر، ولا يتساقط الثلج. إنه يوم من أيام نوفمبر، لكنه لا يُشعرني بأجواء الخريف. إنه يوم عادي، دافئ بما يكفي لألا أشتاق للصيف. بلا مطر، بلا قسوة الشتاء. نسمة عليلة تهب في الشوارع، وفي حوالي الساعة الثالثة تشرق الشمس، لكنها ليست شمس الشتاء، ولا أشعة الربيع الرقيقة، ولا شمس الصيف الحارقة، إنها مجرد شمس.

لقد وجدتُ مكانًا لا يُذكّرني بكلايرون سو بوا تحت المطر، أو بتوماس بلا مظلة. مكانٌ لا يُشعرني بالحنين إلى شتاء حديقة سيلتر القديمة، بالصقيع وطبقة رقيقة من الثلج. مكانٌ لا يدفعني للتجول في المتاجر، باحثًا عن بوادر الربيع. لقد وجدتُ مكانًا لا يُذكّرني بتوماس وهو يحمل جسده الصيفي صاعدًا الدرج المتصدع. ونازلًا.

أقيم في غرفة فندق في يومٍ بلا فصول. ظهيرة دافئة، وأرى أوراقًا صفراء على أغصان متفرقة حين أجلس على مقعد في الحديقة وأتأمل الأشجار. إنه يوم لا يُشير إلى صيفٍ مضى ولا شتاءٍ قادم. يوم نوفمبر دافئ، لا نهاية له، وذهبي. ما حاجتي للفصول وقد توقفتُ في دفءٍ ذهبي أبدي؟ تكرارٌ لطيف. ماذا عساي أن أطلب أكثر؟

741#

والآن وجدت شقة فارغة في شارع فيزنفيغ. كانت في السابق استوديو مهندس معماري، لكن المهندس انتقل منها وتم تحويلها إلى مكان آخر.

إلى سكن. النوافذ المطلة على الشارع معتمة ولا يمكن لأحد الرؤية من الداخل. على الملصق المُلصق على إحدى النوافذ المعتمة كُتب أن الشقة غير مفروشة، لكن المالك السابق ترك سريرًا، وهناك كرسيان وطاولة في المطبخ. لا أحتاج إلى أكثر من ذلك. كان كرسي واحد كافيًا، لكنني لم أخبر وكيل العقارات بذلك.

مررت بجانب الملصق الموجود في النافذة مرتين قبل أن أدرك أن هذا هو المكان الذي سأقيم فيه، وليس في غرفة مليئة بأصوات البشر، وليس في منزل رمادي تفوح منه رائحة العفن الخفيفة، وليس في الفنادق والمنازل التي تتغير فصولها.

بعد أن حصلت على هاتف آخر، اتصلت بالرقم الموجود أسفل الملصق على النافذة الزجاجية. اتضح أن صاحبة الشقة تسكن في الطابق العلوي من نفس المبنى، وتمكنت من إقناعها باصطحابي في جولة تعريفية على الفور. في البداية، أخبرتني أنها على وشك المغادرة، لكنها تستطيع مقابلتي لاحقًا بعد الظهر أو صباح اليوم التالي. أصررتُ، موضحًا أنني في الجوار. لن أضيع الكثير من وقتها، لكنني بحاجة ماسة لإيجاد شقة. لن يستغرق الأمر سوى خمس دقائق لتدبير مبلغ التأمين، ويمكنني الانتقال فورًا. ذكرتُ الخمس دقائق تحديدًا لأنه سيبدو غريبًا أن يتجول شخص ما وفي حقيبته ما يكفي من المال لدفع إيجار شقة عثر عليها بالصدفة. بعد صمت قصير، وافقت صاحبة الشقة، وبعد خمس دقائق ضغطتُ على زر الاتصال الداخلي للشقة في الطابق الخامس.

بعد ذلك بوقت قصير سمعت صدى خطوات تنزل الدرج، وبعد لحظة فتحت صاحبة الشقة الباب الرئيسي، وهي امرأة مسنة كان شعرها الرمادي يتناسب بشكل أفضل مع الصوت على الهاتف منه مع الخطوات السريعة على الدرج، والتي بدت أشبه بخطوات امرأة شابة مشغولة لديها ما هو أكثر من مجرد تأجير شقة لشخص عابر سبيل.

استقبلتني صاحبة المنزل الجديدة بأدب، وإن كان ذلك بشيء من الاستغراب، ربما بسبب استعجالي، لكنها أطلعتني على أرجاء الشقة بينما كنت أقدم نفسي وأروي لها قصة مجيئي إلى دوسلدورف من بروكسل لإجراء مقابلة عمل، وكيف أن الوظيفة ستكون من نصيبي إذا استطعت البدء

فوراً. أود الانتقال إلى الشقة على الفور إن أمكن، كما قلت، وسأكون سعيداً بدفع وديعة وإيجار الشهر الأول مقدماً.

في النهاية، وافقت على إتمام الإجراءات الرسمية فورًا. صعدنا إلى الطابق الرابع، حيث دفعتُ عربوني نقدًا. قدمتُ جواز سفري، فطبعت لي عقدًا، ووقعته. بعد عشرين دقيقة من وصولي، استلمتُ مفاتيح منزلي الجديد. تبعتُ صاحبة المنزل إلى الطابق السفلي ودخلتُ شقتي. ابتسمت لي صاحبة المنزل ابتسامة ودودة، ولوّحت لي، ثم أسرعت للبحث عن سيارتها، التي اضطرت لركنها في شارعين مجاورين مساء أمس لأن جميع المواقف القريبة كانت مشغولة، ولم تكن متأكدة من مكانها.

أظن أنني بدأت أشعر بالراحة حتى قبل أن تصل إلى سيارتها. لقد اعتدت على هذه اللحظات المفاجئة. اعتدت على فكرة أنه لا يمكن تأجيل أي شيء إلى الغد، وأن كل شيء يجب أن يحدث فورًا، وأنه في لقاءاتي القليلة مع الآخرين، عليّ دائمًا إقناعهم بأن كل شيء يجب أن يُنجز في تلك اللحظة بالذات، لا يمكنني العودة إلى اليوم التالي، يجب أن يكون هنا والآن، لأن الغد هو اليوم، مع أنني لا أخبرهم بذلك عادةً.

بعد أن ودّعتُ صاحبة المنزل، وضعتُ حقيبتي في شقتي الجديدة، وألقيتُ نظرةً حولي، ثم فتحتُ باب الفناء الخلفي، حيثُ تقفُ شجرةُ زعرورٍ مثمرةٌ بثمارٍ ناضجة. تتألقُ الشجرةُ بألوانِها البرتقاليةِ والبنيةِ، ألوانُ الخريف، لكنني لا أفكرُ في ذلك. كلُّ ما أفكرُ فيه هو: شجرةُ الزعرور.

٧٥٤

لا أدري كيف يمكن للمرء أن يعتاد على وضع كهذا، لكن هذا ما يحدث. ربما يكون من الممكن تقبّل الكثير طالما أنك مُجنّبٌ معظم هموم الحياة، إن لم تكن في خطر، إن كانت حياةً بلا دراما، بلا فقر أو مرض أو كوارث طبيعية. أنا بأمان، لا شيء أخشاه، لا شيء مما تعلمنا الخوف منه: مصائب الحياة الحقيقية - الفقدان والخيانة والجريمة.

مصائبي صغيرة وحوادثي عابرة: حرق طفيف، التواء في الكاحل، حادث سيارة نجا منه نظام الفرامل. أكبر جريمة تعرضت لها هي سرقة حقيبتي، جريمة ارتكبها مشجع كرة قدم على دراجة مهترئة. الأشياء الوحيدة التي فقدتها، عدا عن مرور الوقت، هي رزمة من اليورو، ودفتر ملاحظات أخضر زيتوني اللون، ومجموعتان من المفاتيح. لدي ما يكفيني. لا أجوع. أستطيع شراء ما أريد. أستطيع العودة إلى توماس والعودة إلى نمطه. ما زال على قيد الحياة. أنا متأكد من أنه ما زال هناك، في منزله في كليرون. بنمطه. لم أتكبد أي خسارة، لم أتعرض للخيانة، أو الرفض، أو الهجر. لم يحدث شيء يُخشى منه. لا شيء مخيف.

في فترة ما بعد الظهر، عندما تشرق الشمس، أستطيع أن آخذ أحد كراسيّ إلى الفناء الخلفي وأجلس هناك مستمتعًا بأشعة الشمس. لا يوجد هنا ما يذكرني بحياتي في كليرون سو بوا، ولا ما يذكرني بمحاولاتي لتجسيد الفصول. لستُ مضطرًا لتقليد خطوات شخص في منزل، ولا أتبع أي إيقاع سوى إيقاعي الخاص. كل ما عليّ فعله هو الاختفاء عن الأنظار عندما تخرج صاحبة المنزل أو تعود، لأنها نسيت وجودي هنا منذ زمن. تخرج للمرة الأولى في منتصف الصباح وتعود بعد ثلاث ساعات. تخرج للمرة الثانية في فترة ما بعد الظهر عندما أكون جالسًا في الفناء الخلفي، لكنها تعود إلى شقتها في الطابق الخامس بعد الخامسة بقليل. يغادر زوجها في الصباح الباكر ويعود قبل السادسة بقليل. عندما يكونان في المنزل، يحق لي تشغيل المصابيح إن أردت، لأنهما لا يستطيعان رؤية الضوء من نوافذي من شقتهما في الطابق الخامس. الشقق الأخرى في المبنى مؤجرة، لكن سكانها يقضون معظم اليوم خارجًا، ولا أسمعهم كثيرًا. أحيانًا أسمع وقع أقدام على الدرج، لكن عمومًا لا أسمع سوى السيارات والترام في الشوارع الخارجية. يبدو لي أن أصوات الشارع تخفت أثناء المباراة، إذ أستطيع سماع حفيف أوراق شجرة المشمش الخافت، وهو صوت لا أسمعه في الصباح، ربما لأن الرياح تشتد قليلًا بعد الظهر. في الليل، يكون هذا الصوت أوضح، ليس بسبب اشتداد الرياح، بل لأن أصوات الشارع تخفت. توقف الترام عن العمل، ولا توجد سيارات كثيرة في الطريق، و

لم يعد صوت الشجرة همسًا، بل حفيفًا خفيفًا لأوراق صفراء شبه جافة. إذا خرجتُ إلى الفناء الخلفي ليلًا، يصبح الصوت أكثر دقة، مزيجًا من الأصوات. أوراق تحتك بالأغصان، أوراق تحتك بأوراق، ثمرة مشمش بري تسقط على الأرض. تسقط بصوت خفيف وتتدحرج لمسافة قصيرة قبل أن تتوقف. يبدو الأمر كما لو أن العالم يشكرنا عندما تسقط ثمار الشجرة.

0.763

لقد رأيتُ مؤخرًا بعض مظاهر عيد الميلاد في المتاجر. كانت موجودة طوال الوقت، بالطبع، لكنني كنتُ أبحث عن يناير وفبراير ومارس، كنتُ أبحث عن عيد الفصح والربيع والصيف وأغسطس وسبتمبر، وفاتتني كل تلك الإشارات الصغيرة لعيد الميلاد، لكن الآن بدأ عيد الميلاد يلوح في الأفق. أفكر في توماس، في والديّ، في أختي. أفكر في الهدايا، لكن لن تُشترى أي هدايا ولن يكون هناك وقت لكعكة عيد الميلاد أو بودنغ عيد الميلاد. لن يكون هناك وقت للديك الرومي أو البطاطا المشوية. لن يكون هناك وقت للغناء الثنائي مع بكاء الثلاجة

المبهج. لن تكون هناك شهور ولا فصول ولا أعياد. سيأتي نوفمبر، وأريد نوفمبر، وحتى لو تمنيتُ عامًا يبدأ بالمرور، فلن أعرف كيف أصل إليه لأنني فقدتُ دليلي. شكرًا لك، أيها السارق الذي يركب الدراجة.

775

لم يكن هناك عيد ميلاد، بالطبع، ولم يكن هناك رأس سنة أيضًا. ورغم أنني أحصيت أيامي، إلا أنني لا أشتري الشمبانيا ولا أنتظر تساقط الثلج على شوارعي. يبدو صباح رأس السنة بنوره الأبيض وإطلالة أسطح المنازل المغطاة بالثلوج بعيدًا جدًا. أشعر أن عامي هذا أشبه برحلة تركتها خلفي منذ زمن بعيد.

هنا لا يوجد سوى يوم نوفمبر هادئ ومحايد، لأن وقتي ليس دائرة ولا خطاً، ليس عجلة ولا نهراً. إنه فضاء، غرفة، بركة، وعاء، حاوية. إنه فناء خلفي بشجرة مشمش وشمس خريفية. قهوة وشمس في يوم من أيام نوفمبر. شكراً.

0.793

عندما أجلس في فناء منزلي الخلفي، أدرك أن وقتي أشبه بوعاء. هكذا هو. إنه يومٌ يمكنني أن أعود إليه مرارًا وتكرارًا. ليس نهرًا لا يمكنني إلا أن أغوص فيه مرة واحدة. الوقت لا يطير، بل يبقى ساكنًا، إنه وعاء. كل يوم أغمر جسدي في الثامن عشر من نوفمبر. أتحرك، لكن لا شيء يفيض. الوقت مكان. الوقت غرفة. الوقت فناء منزلي الخلفي في شمس الظهيرة، مع صوت السيارات، والترام في الأفق. يومي وعاءٌ مليء بنسيم عليل وشمس مشرقة كل يوم حوالي الساعة الثالثة. الليل وعاءٌ فيه شجرة مشمش تُصدر حفيفًا في النسيم، والليل يشكر حين تسقط ثمارها.

844

لقد اعتدتُ على روتينٍ يومي. تبدأ صباحاتي في مقهى مولر. أسير بضع خطوات على طول شارع فيزنفيغ، فأجد المقهى على بُعد خطواتٍ قليلة على اليمين. جميع صباحاتي متشابهة. أصعد بضع درجات وأفتح الباب. أسمع رنين جرس. أدخل وأجلس على طاولة، دائماً نفس الطاولة، طاولة بجوار النافذة تُطل على الشارع. أصل في وقتٍ ما بين 8:39 و9:12، لأنه إذا وصلتُ أبكر أو متأخراً قليلاً، تكون الطاولة مشغولة، وفي هذه الحالة أتحرك قليلاً إلى داخل المقهى، لكنني عادةً ما أصل في الوقت المحدد. أطلب الشاي، وهو محفوظ في علب معدنية كبيرة خلف المنضدة. أرى ثماني علب كبيرة. أُنوّع طلباتي وأتمنى ألا أستهلك كل ما لديهم. أحياناً أطلب خبزاً وجبناً، أو زبادي مع

فاكهة. غالباً لا أتناول شيئاً سوى الجلوس هناك، أحتسي الشاي بجوار نافذتي.

أقضي فترة ما بعد الظهر كما أقضي صباحي. في حوالي الساعة الثالثة، أحضر كرسيًا إلى الفناء الخلفي. أُعدّ فنجانًا من القهوة، وأحضر كتابًا، وأجلس تحت أشعة الشمس. الجو دافئ بما يكفي لأجلس هناك لساعة أو ساعتين.

لا يقلقني سوى تأخر الصباح. أشعر بالضيق، وأدور في حلقة مفرغة. أتذكر الأصوات التي كانت تصدر من المنزل في كليرون سو بوا. أذهب في نزهة على الأقدام في الحديقة القريبة، أو أتسوق قليلاً، أو أزور مكتبة مجاورة، لكنني لا أستطيع الاسترخاء حتى تشرق شمس الظهيرة وأحمل كرسيي إلى الفناء الخلفي.

أمسياتي قصيرة. أُعدّ بعض الطعام أو أذهب إلى المطعم اليوناني المقابل، حيث أجلس على طاولة في الزاوية، وهناك أجد أناساً لا يفعلون شيئاً سوى تكرار نفس الروتين كل مساء. لقد اعتدت عليهم: رجل مسنّ، بعد انتظار قصير، تنضم إليه امرأة، غالباً زوجته، ومجموعة من البالغين مع طفل يرتدي قميصاً أبيض يحاول التحدث كشخص بالغ، ورجلان في مثل سني تقريباً يتبادلان نظرات الإعجاب.

أحيانًا أزور متاجر السلع المستعملة وأشتري بعض الأغراض الضرورية التي أحملها معي في حقيبتي. في الليل، أضع حقيبتي عند أسفل السرير. عادةً ما يستغرق الأمر بضع ليالٍ حتى أعتاد على هذه الأشياء، حتى أتمكن من تركها في المطبخ: سكاكين وشوك، سكين تقشير، مطحنة قهوة اضطررت لشرائها ثلاث مرات قبل أن تستقر في مكانها. اشتريت كرسيًا بذراعين، وضعته في غرفة الجلوس الفارغة ونمت عليه ليلتين متتاليتين، لكنني لا أحتاج إلى الكثير، وسرعان ما أصبح لدي كل ما أحتاجه.

أتردد على المتاجر قبيل إغلاقها. فأجد محلات البقالة والمتاجر المتخصصة بأطعمة ستُرمى في نهاية اليوم، ومخابز بخبز لا يُباع غدًا. إن كان الوقت وعاءً، فإنه قابل للتفريغ، وإن لم أنتبه، فسأبدأ قريبًا برؤية آثاري في أرجاء المدينة: أشياء تُستهلك، أرفف فارغة، آثار وحش ينهب، وحش يتربص، أثر دموي لمفترس.

لا أريد أن أكون وحشًا. أسير على حافة الهاوية، أخطو بحذر في هذا العالم، وأترك أثرًا ضئيلاً قدر الإمكان. أحاول أن أجتاز الأيام دون أن أثقل كاهلي. أخطو بخفة. وحش يتظاهر بأنه فراشة.

لكنني أعلم أن صباحاتي هنا في مقهى مولر ستترك أثراً لا يُمحى، وأن زياراتي للمطعم في شارع فيزنفيغ ستتوقف عاجلاً أم آجلاً. ومع ذلك، أعود، لأنني أشعر وكأنني في بيتي في هذه الأماكن. أختار مشروبات مختلفة، وأجرب أطباقاً جديدة من قائمة الطعام، وأُنوّع طلباتي، وأتمنى أن يكون المطبخ مُجهزاً جيداً. أُراقب الناس في الشارع بالخارج، وأُراقب رواد المساء، وأتساءل ماذا كنت سأفعل لو كان ابني هو من يرتدي القميص الأبيض، لو كنت أنا من وقع في الحب، لو كنت أنا من جاء لينضم إلى زوجي ذي الشعر الرمادي، وأشعر أنني بينهم.

أصدقاء. أصدقاء من نوع ما، على الرغم من أن شعور الزمالة الذي كنت أشعر به بين مشجعي كرة القدم وبرك البيرة قد اختفى.

862

أحاول إخفاء الأمر، لكنني أعرف. أنا وحشٌ يلتهم عالمي. لا مفرّ من ذلك. أستطيع أكل البقايا، أستطيع البقاء جائعًا طوال اليوم، أستطيع التنقل من مكانٍ لآخر تاركًا أثرًا ضئيلًا، أستطيع توزيع مشترياتي، أستطيع اختيار علبة الشاي الممتلئة في مقهى مولر، لكن كل هذه مجرد محاولات لإخفاء الحقيقة، لتقليص حجم الوحش. أعرف. سيأتي يومٌ ينتهي فيه كل شيء. علبٌ فارغة، أباريقٌ فارغة. لا سبيل للاختباء. أنا وحشٌ صغيرٌ جدًا في قفصٍ مُذهّب. قفصٌ بألوان الخريف في الحديقة، بأوراق المشمش الذهبيّة البنية، وقشرة الثمرة الذهبية. أشتري البرتقال قبل أن يبدأ في التعفن مباشرة، وأتجول في المتاجر قبل وقت الإغلاق مباشرة، وأجد أن الملصقات الموجودة على عبوات اللحوم الباردة أو لحم البقر المتبل بالبرتقال تحمل تاريخ 18 نوفمبر، وهذا هو التاريخ الذي أبحث عنه، وآكل ما أجده، كل الطعام الذي سيصبح قمامة قريباً على أي حال، وأحمل مشترياتي إلى المنزل، ويأتي المساء ويأتي الصباح مرة أخرى، نفس اليوم الذهبي.

877

هل يُخفف عني أنني أُردد كلمة "شكرًا" عندما أسمع الليل يقولها؟ عندما تكون نافذتي مفتوحة على الفناء الخلفي وأسمع صوت سقوط ثمرة زعرور؟ أشعر أنني محظوظ، لأنه كان من الممكن أن تحدث كوارث ومآسٍ، وأمراض وفقر. أستلقي في عتمة الصباح وأفكر: شكرًا، وإذا لم أستطع النوم أكثر، أنهض.

أعلم. أستيقظ في قفصي المذهب، فأجد خارجه عالماً مليئاً بالاضطرابات، مربعاً أسود. أعلم هذا لأن عالمي مذهب. أفتح بابي وأطير للخارج. كلا، لا أطير إلى أي مكان، أنا محاصر، أحمل قفصي المذهب معي، لكنني لست أعمى. أستطيع أن أرى أن هناك عالماً آخر

حولي، وأن يومي المعلق ليس إلا مصيبة صغيرة حلت بوحش في قفص مذهب.

هل يُجدي نفعًا أن أنثر القليل من الذهب هنا وهناك؟ هناك شخص يجلس أمام السوبر ماركت، فأعطيه قطعة نقدية أو ورقة. أدخل متجرًا وأشتري كيسًا من الطعام لعائلة صغيرة تجلس في الساحة أمام المحطة. يجدون في الكيس بسكويتًا وشطائر، وفي اليوم التالي يعودون إلى هناك، حاملين لافتتهم، نداءً للمساعدة. اليوم حصلوا على بعض المال، وغدًا سيعودون، وسأحضر لهم شطائر من المحطة، ثم سأعود إلى المنزل وأستمتع بشمسي، ثم سأستيقظ مجددًا، وحشًا في عالم من البرتقالي والذهبي.

امرأة تقف تحت سقالة، تبدو عليها الحيرة. لا تدري أين هي، تقف هناك والشمس تسطع على وجهها، عاجزة عن التقدم. شعرها أبيض يلمع، وهي تتشبث بأحد أعمدة السقالة الفولاذية. أمدّ لها ذراعي وأساعدها على النزول من السقالة، ثم أجد لها كرسيًا في أقرب مقهى، وأطلب كوبًا من العصير. بعد قليل، تتذكر اسم دار المسنين التي ضلت طريقها منها. أوصلها إلى منزلها، وفي اليوم التالي تجدها هناك مجددًا. هذه المرة أتبعها. تنظر حولها في حيرة، ثم تبدأ بالمشي، فأتبعها، تمشي نحو دار المسنين، تسير في الاتجاه الصحيح، أحافظ على مسافة بيننا، تكاد تصل إلى منزلها، ثم أتوقف وأتركها تذهب. أراقبها وهي تصغر شيئًا فشيئًا، تعرف الطريق، لا تحتاجني، وربما تكون قد تجاوزت حدودها، من القرن الثامن عشر إلى القرن التاسع عشر. ربما أنا الضائع، ربما هم جميعًا يتجهون نحو المستقبل، القرن التاسع عشر، القرن العشرين، ربما رحلوا وتركوني مع ظلالهم، ولم يبقَ سوى أنا، أقف هنا أشاهدهم يصغرون أكثر فأكثر: الرجل خارج السوبر ماركت، العائلة الصغيرة أمام المحطة، صاحبة المنزل المشغولة، سيل مشجعي كرة القدم، ربما رحلوا جميعًا بينما بقيت هنا محاطًا بالأشباح، قشور التكرار، آثار يوم مضى منذ زمن طويل، معتقدًا أنني أستطيع المساعدة، وأن قفصي مذهب، وأنني أستطيع مد يدي.

أفكر في توماس في المنزل، وفي صف من الكراث لا يقصر أبدًا. ربما رحل بدوني، يومًا بعد يوم، 877 يومًا. والداي في منزلهما، وشجيرة السفرجل في الحديقة. السفرجل، الذي جُمع منذ زمن بعيد، والشجيرة التي استمرت في النمو، مرت بشتاء وربيع بأزهار حمراء، ثم ثمار صفراء مرة أخرى، وشتاء آخر.

هل هربوا مني؟ لا أدري، لكن الأمر ليس كذلك: كأنني أعيش بين الظلال. تركتُ تلك الفكرة جانبًا. كل ما في الأمر أن الزمن قد توقف. أجلس في ضوء الشمس في الفناء الخلفي، وسرعان ما ستختفي

الشمس خلف برج الكنيسة، وسيُحجب ضوءها، وسيبرد الجو، وسألجأ إلى الداخل.

889

في صباح أحد الأيام المضطربة، قضيتُ ساعاتٍ في تفريغ جيوبي وحقيبتي. هكذا أصبحت مهامي اليومية ضئيلة. دوائر معارفي محدودة، ومهامي متناهية الصغر.

وجدتُ في حقيبتي إيصالات وأغراضًا منزليةً أُعيد ترتيبها بنفسي. لقد أصبحت عادة، فأنا أحتفظ بهذه الأشياء في حقيبتي، وهي دائمًا معي. في الليل، أضعها عند أسفل السرير، مُسندةً إلى الحائط، وبين الحين والآخر، عندما أُرتّب أغراضي، أكتشف ما أصبح مُرتبطًا بي. ليس كل شيء يبقى معي، فبعض الأشياء تضيع في الطريق، مشتريات غريبة تختفي فجأة. إذا كانت أشياءً أشعر أنني لا أستطيع الاستغناء عنها، فسأشتريها غالبًا مرة أخرى، لكن بعض الأشياء ببساطة تعود إلى مكانها. إنه عالمٌ مُتقلب، وقد اعتدتُ على ذلك.

جمعتُ قوائم التسوق والإيصالات ووضعتها في كومة على سطح طاولة المطبخ قبل رميها في سلة المهملات. أخرجتُ الجوارب والملابس الداخلية التي كانت في قاع الحقيبة، وحملتها إلى غرفة النوم ووضعتها في كومة صغيرة على السرير. وضعتُ سكين خضار ومقصًا في درج المطبخ مع مصفاة شاي من أحد الجيوب الجانبية، وألقيتُ علبتي سكر مجعدتين من مقهى في كوب متصدع على سطح الطاولة.

فتشت جيوب سترتي فوجدت قلمًا وعملة السسترتيوس الرومانية، التي لا بد أنني دسستها هناك بعد أن استعدت حقيبتي ثم نسيتها تقريبًا. وضعت السسترتيوس في الكوب مع علب السكر الممزقة، وبقي هناك بينما كنت أجمع ما تبقى من الأغراض وأستعد للخروج في نزهة قصيرة في الشوارع.

بعد قليل، عندما عدت إلى المطبخ، كنت قد نسيت أمر العملة المعدنية تماماً، وعندما وقعت عيني عليها، بدت غريبة في غير مكانها، وهي موضوعة هناك في كوب متصدع مع كيسين من السكر لم آخذهما إلا لأنهما كانا سيُرمى لولا ذلك.

أخرجتُ العملة من الكوب وقلّبتها يمينًا ويسارًا. نظرتُ إلى رأس أنطونيوس بيوس ومررتُ إصبعي سريعًا على الصورة البارزة. قلبتُ العملة وتأملتُ صورة أنونا وهي تحمل مكيال الحبوب وسنابل الذرة. مررتُ طرف إصبعي على الحافة غير المستوية، ووزنتُ العملة في راحة يدي، ثم أسقطتها على سطح الطاولة والتقطتها مجددًا: قطعة صغيرة

من الماضي، بقايا من عملية التخلص من الأشياء، لم تعد تجد لها مكانًا في عالمي.

نظرتُ حولي في المطبخ، لكنني لم أجد مكانًا أضع فيه العملة. أعدتها إلى الكوب وحركتها برفق نحو حوض المطبخ. انتابتني رغبةٌ شديدةٌ في التخلص منها، في التخلص منها نهائيًا. لقد فقدت كل معناها، هكذا أقنعت نفسي. لقد كانت جزءًا من حياتي منذ عيد ميلادي الثامن عشر من نوفمبر، كانت هناك على منضدة متجر فيليب موريل، كانت هديتي لتوماس، هدية حب، شيء لم يجد طريقه أبدًا إلى مجموعته، وحتى بعد أن فُقدت، ظلّت فكرتها عالقةً في ذهني عندما كنت في كليرون، كشيءٍ مجهول، سؤالٍ بلا إجابة في لغز خلل الزمن. عندما وجدتها مجددًا، في متجر فيليب وماري، أصبحت هدية وداع، أداةً في انسحابهما، رفضًا مفاجئًا، إنهاءً لصداقة. لكنها لم تعد تعني شيئًا الآن. كانت مجرد عملة رومانية، نُسيت في جيب ثم عُثر عليها مرة أخرى، شيء أحضرته معي، وهو الآن موضوع في كوب على سطح طاولة المطبخ، لا يمكن وضعه في مكانه ويشغل حيزاً كبيراً.

كان من الواضح أن هذه لم تكن عملة عادية. لقد كانت، بالطبع، قطعة أثرية، رمزًا من الماضي، إرثًا تناقلته الأجيال عبر القرون، شاهدًا معدنيًا على عصور غابرة. ولكن ليس أكثر من ذلك. ربما كانت مثيرة للاهتمام بنقوشها ورموزها، لكنها لم تعد ذات معنى. لم تعد كذلك. إنها مسألة تهم تجار العملات فقط، ومن لديهم شغف بالآثار.

ومع ذلك، فكرتُ لاحقًا عندما أخرجتُ العملة من الكوب ووضعتها في مكان غير مستخدم: "لا ينبغي ترك عملة معدنية في كوب بجانب الحوض".

جيب في حقيبتي. دفعت الكوب الذي يحوي أكياس السكر نحو حوض المطبخ قبل أن أضع حقيبتي في حقيبتي، ثم ارتديت حذاءً قصيرًا والتقطت حقيبتي من على أرضية المطبخ.

لكن الآن، ما أزعجني هو فكرة حمل السسترتيوس في حقيبتي. لم يكن مكانه بين العملة الرسمية. أخرجته مرة أخرى وأعدته إلى سطح المطبخ، حيث خضع لتحول غريب، لا أستطيع تفسيره تمامًا، لأنه من الواضح أن السسترتيوس لم يتغير وهو موضوع هناك، لكن هذا ما شعرت به.

ترددتُ. عدتُ إلى غرفة النوم، وفصلتُ كومة الملابس التي كنتُ قد وضعتها على السرير إلى أكوام أصغر، ونقلتُ إحداها إلى رفٍّ كنتُ قد وضعته في غرفة النوم، ولكن بعد فترة وجيزة، عندما عدتُ إلى المطبخ، شعرتُ بوعي متزايد تجاه العملة المعدنية على سطح العمل.

عملة معدنية تريد شيئًا مني، فكرتُ، مع أن العملات المعدنية، بالطبع، لا تترك نفسها هكذا وتريد شيئًا من أي أحد.

بدا الأمر سخيفًا بعض الشيء، ولكن مع ازدياد سخافته، شعرت بشيء آخر. لم يكن الأمر مجرد اكتساب العملة المعدنية (السسترتيوس) معنى، مع أنها فعلت ذلك أيضًا. بل في تلك اللحظة بالذات، شعرت بفراغ يتشكل، شعرت بفقدان، بانزلاق، بتحول. كان الأمر كما لو أن مساحةً ما تنفتح، ببطء شديد، ليست مساحة كبيرة، أو على الأقل لم أشعر أنها كبيرة، لكنني لم أستطع إغلاقها مجددًا. لم يُجدِ نفعًا تحويل انتباهي إلى مكان آخر. لقد أثارت العملة المعدنية شعورًا بالشك، بالنقص، بالجهل، لا أعرف، كل ما أعرفه أنني شعرت بالفراغ والوحدة والنقص، كما لو أن العملة كانت ملقاة أمامي، تمتلئ بالمعنى، بينما يتسع الفراغ بداخلي. كان الأمر أشبه، بطريقة غريبة، بانزلاق جزء مني إلى العملة، إلى قطعة من المعدن القديم، تاركًا فراغًا.

كان يومي مفتوحًا. لم تكن لديّ أيّة خطط. كان لديّ متسع من الوقت لأفكّر في عملتي السسترتيوس، في تحوّلها، في حاجتي إلى إضفاء معنى عليها، وفي ذلك الشعور الغريب بالفراغ الذي يتسلل إلى داخلي. كان لديّ متسع من الوقت لأتوقف وأجد تأملاتي سخيفة، ولأفكّر في محاولاتي لإضفاء أهمية على هذه القطعة المعدنية التافهة، في إسقاطي لما أعرفه على قطعة معدنية.

وهذا ما فعلته. جلست. فكرت. توصلت إلى تفسيرات. انبهرت بهذه العملية الغريبة. كيف تكتسب الأشياء معنى. ليس في ذلك غرابة. أو بالأحرى، هناك شيء غريب في ذلك، بالطبع. في الواقع، إذا فكرت في الأمر، فلا بد أنه من أغرب سمات البشر، ولكنه من تلك الخصائص التي نقبلها ببساطة، هذه الحاجة إلى إضفاء معنى على الأشياء اليومية - خواتم الزفاف، والمجوهرات، وكذلك العملات المعدنية المحظوظة، والتمائم، والأحجار السحرية، والآثار، والأشياء المقدسة.

جلستُ لبرهةٍ أتأملُ ما الذي يدفعنا للاستثمار في مثل هذه الأشياء. ما الذي يحدث؟ نلتقط عملةً معدنيةً لجلب الحظ في الشارع، ونرتدي الخاتم، ونُخرج صندوقَ التذكارات. نملأها بالمعاني، ونسكب عليها نوعًا من المعدن النفيس الذي ابتكرناه من أعماق عقولنا، وها هي تقف، هذه الأشياء. مليئةً بالمعاني. وها نحن نقف، مُستنيرين بمعانيها.

لكن كان هناك شيء آخر، كما فكرت، عندما اقتربت من العملة مرة أخرى، مندهشًا من الفراغ الغريب المرتعش الذي ظهر. لم يكن هناك شيء ذهبي أو ثمين في العملة على سطح المطبخ. كان هناك شيء غير

منتظم ومظلم فيها لم أستطع فهمه تمامًا. ومع ذلك، كان من الواضح أن شيئًا ما قد بدأ يتغير وأنا واقف هناك في المطبخ، لقد شغّلت العملة محركًا، وأطلقت شرارة، ولم يكن لدي خيار سوى الانجراف معها. لم تكن مجرد عملة اكتسبت معنى فجأة، ولم يكن مجرد فضول أو اهتمام مفاجئ هو ما دفعني للعودة إليها مرارًا وتكرارًا وأنا أتجول في الشقة، مستعدًا للخروج لكنني غير قادر على إبعاد أفكاري عن قطعة المعدن الصغيرة على سطح المطبخ. كان هناك ما هو أكثر من ذلك، أو هكذا بدا لي على الأقل.

عندما غادرتُ الشقة أخيرًا، تاركًا السسترتيوس على طاولة المطبخ، كان الوقت قد تجاوز منتصف النهار بقليل. شعرتُ بشيء من القلق. مشيتُ على طول طريق فيزنفيغ ثم انعطفتُ نحو النهر، وتجولتُ على ضفافه، أفكر في الرومان وعملاتهم، وفي نهر الراين الذي شكّل الحدود الشمالية للإمبراطورية الرومانية، وفجأةً شعرتُ أنني أعرفهم، الرومان. أنهم كانوا معي منذ زمن طويل. لا أدري إن كنتُ أنا من كان يتبعهم أم العكس، لكن الأمر بدا وكأنه معرفة قديمة، تلك المعرفة التي أيقظتها العملة على طاولة مطبخي فجأةً في ذاكرتي.

أثناء سيري، كانت تتبادر إلى ذهني معلومات متفرقة. كتب قرأتها، ومشروع مدرسي من أيام مراهقتي، وبعض ملاحظات فيليب موريل حول العملات المعدنية في خزانة عرضه. تذكرت رسومات لمبانٍ رومانية في كتاب اشتريته لمتجر تي آند تي سيلتر، واستحضرت الكثير من الحقائق التي جمعتها خلال فصول السنة، لمحات من ماضٍ أوروبي، وآثار رأيتها في أسفاري. تذكرت المتاحف التي زرتها في أيام الخريف بينما كنت أتجول بهدوء. رأيت أرضيات وأعمدة فسيفسائية، ومنحوتات وأدوات، وأواني الحياة اليومية ومصابيح الزيت الليلية، وبقايا ملابس ومجوهرات، وأوانٍ زجاجية ملونة، ونظرت إلى كل ذلك بفتور خافت وفضولي، تلاشى الآن، ليحل محله فراغ غريب ومضطرب، وحاجة للمعرفة جذبتني على طول ضفة النهر وأنا أحاول فهم سبب اهتمامي بهذا الموضوع. التاريخ. تاريخ العملة. تاريخ الرومان.

انتابني شعورٌ بعدم الارتياح، أشبه بألم الأسنان أو دوار خفيف، فجلستُ على جدار حجري ونظرتُ عبر النهر. فوجئتُ. بدأتُ أُدرك أن التاريخ قد أثار اهتمامي بالفعل. سابقًا، لو سألني أحدٌ إن كنتُ مهتمًا بالتاريخ، لربما أجبتُ بالإيجاب. كنتُ سأشعر أنه من الطبيعي، كبائع كتب عتيقة، أن يكون لديك بعض الاهتمام بالتاريخ، ومع أصدقاء مثل فيليب موريل، لا يمكنك تجنب الاهتمام بالرومان. لكن هذا لم يكن صحيحًا. لطالما كان اهتمامي بآثار الماضي من نوعٍ آخر.

تذكرتُ العملة المعدنية التي تركتها على سطح طاولة المطبخ، والتي هي الآن ملقاة هنا بجانبي، وتذكرتُ الكتب التي تركتها في فندق دو ليسون، حين كنتُ أترك نفسي أنجرف مع تيارات الناس في الشارع. تذكرتُ مزادات الكتب وجولاتي بين رفوف المكتبات القديمة والعملات المعدنية في خزائن فيليب الزجاجية المرتبة زمنيًا، وأدركتُ أن ما جذبني إليها لم يكن تاريخها قط، بل كانت الأشياء نفسها. كان ملمس الورق وآثار الكتابة على الصفحات، ونوع الخط في صفحات العناوين، والتوازن بين الأحمر والأسود. كان عدم انتظام الكتابة، وأثر الطباعة الباهتة على الورق. كان تشبع الألوان، ووضوح الطباعة. كانت خطوط الرسوم التوضيحية، وتفاصيل النقش، والتباين بين خلفية الألوان والورق الأبيض. كان...

الرائحة والأصوات. كانت الاختلافات هي ما يجذبني: صوت تقليب الصفحات السميكة ببطء، وهمس الورق الرقيق، والحافة المذهبة، ومقاومة اللحظة التي يتلاشى فيها التذهيب من طرف الإصبع، والحركة الطفيفة لليد عندما ينزلق الإبهام على زاوية الكتاب. كان ملمس التجليد، زاوية مهترئة، حافة حادة. لطالما ارتبطت علاقتي بالكتب بالعين واليد، وهذا ما كان يدفعني أحيانًا للتوقف عند إحدى الخزائن في متجر فيليب وأخذ إحدى عملاته المعدنية. ملمس المعدن وثقله في راحة يدي. النقوش البارزة والنتوءات حول الحافة. صور الأباطرة والإمبراطورات، والآلهة والإلهات. الأشياء الصغيرة على الوجه الآخر: سنابل الذرة والمنارات، والموازين والبوم، والخناجر والسيوف.

لم يكن تاريخ الأشياء نفسها ما جذبني، بل كل ما غاب عن التاريخ. أشياء التاريخ. في عالمي، لم يكن التاريخ سوى الفترة التي أنتجتها. ربما كان مجرد تسلسل زمني يُتيح ترتيب الأشياء في سياق واضح، لا أكثر. لم يدفعني قط شغفٌ لفهم الروابط التاريخية، ولم أرغب قط في إيجاد تفسيرات لخصوصيات فترة زمنية معينة أو معلومات عن الحياة اليومية للناس، ولم أكن مهتمًا بالحروب أو صراعات السلطة أو الأحداث السياسية، ولم يفتنني روح العصر أو الأوضاع الاقتصادية.

لم يكن تي. وتي. سيلتر مهتمًا بالتاريخ قط، على ما يبدو لي الآن، لكن هذا ليس صحيحًا. أو على الأقل ليس صحيحًا تمامًا، لأن توماس مهتم بالتاريخ. يقرأ توماس أعمال جوسلين ميرون، ويقرأ عن الصعود والهبوط. إنه يريد أن يفهم. يريد تفسيرات وروابط ورؤى تاريخية.

لكنني لم أكن مهتمًا بالتاريخ قط، وعندما أتذكر ذلك الشغف بالتاريخ الذي ناقشته أنا وفيليب بشيء من السخرية بينما كنا نجلس عند المنضدة في متجره، يتبادر إلى ذهني أنني لطالما وجدته غريبًا. شعورٌ يشاركني فيه آخرون. زبائننا. هواة جمع التحف. أناسٌ لديهم حاجة إلى

الماضي. شوقٌ إلى عصورٍ مضت، نوعٌ من الحنين، رغبةٌ في إقامة روابط ذات مغزى مع أحداثٍ وأشخاصٍ رحلوا منذ زمنٍ بعيد.

والآن، وقعتُ أنا أيضاً في غرامها. عملةٌ ضائعة، وفجأةً انتابتني رغبةٌ جامحةٌ في معرفة المزيد. عن أنونا وأنطونينوس. عن...

الرومان وحدودهم. عن الآلهة والأباطرة، والعملات المعدنية وتجارة الحبوب.

أبحرت سفينةٌ بجانبي بينما كنتُ جالسًا أحدّق في الماء. أشرقت الشمس، فنهضتُ والتفتُّ نحو مركز المدينة. شعرتُ بقلقٍ، لكنّ هذا القلق لم يزول. اشتريتُ بعض الخبز من مخبزٍ لم أزره من قبل. دخلتُ مكتبةً. في البداية، تصفّحتُ الكتب فقط، لكنّ عيني لفتت انتباهي فجأةً إلى كتابٍ عليه رسمٌ بالأبيض والأسود على غلافه. كانت خريطةً لحدود الإمبراطورية الرومانية. كنتُ قد رأيتُ هذه الخريطة من قبل، ربّما في كتابٍ أو في متحف. اشتريتُ الكتاب ووضعته في حقيبتي. في مكتبةٍ أخرى، وجدتُ كتابين آخرين، ثمّ مررتُ بسوبر ماركت، حيثُ اشتريتُ سلطةً في علبةٍ بلاستيكيةٍ عليها ملصقٌ أصفر كبيرٌ على الغطاء يُشير إلى أنّها ستُرمى في نهاية اليوم.

بعد ذلك بوقت قصير، عدتُ سيراً على الأقدام إلى فيزنفيغ، حيث كانت العملة السسترتيوسية ملقاة بهدوء بجوار كوب متصدع. أخرجتُ كتبي من حقيبتي وجلستُ على الطاولة الصغيرة في المطبخ.

ربما كان الأمر بسيطًا: لقد علقتُ في الزمن، وها هي العملة السسترتيوس. كانت في يوم من الأيام مجرد معدن، منصهرة، سائلة، بلا شكل، ثم توقفت عند اللحظة التي خُتمت فيها بصور أنطونيوس بيوس وأنونا، برمز الموديوس، وسنابل الذرة وكل شيء. توقف. ثبتت. رنين. خرجت إلى كومة العملات المعدنية المسكوكة حديثًا. لحظة متجمدة.

توقف الرومان أيضًا. رحلة طويلة، ثم لم يعد بإمكانهم التقدم أكثر. لقد بلغوا أقصى ما يمكنهم الوصول إليه، تقدموا قليلًا، ثم تراجعوا، ثم توقفوا وبنوا جدارًا، وتوقفت الإمبراطورية عن التوسع. لحظة تردد في المكان. توقف. ثبت. ثغرة.

وجلستُ هناك، في الثامن عشر من نوفمبر، عاجزًا عن الحركة. رنين. توقفت. نفس القصة. هل كان غريبًا أن تثير هذه العملة اهتمامي؟ ليس كثيرًا. هل كان غريبًا أن تثير حدود الرومان فضولي؟ ليس حقًا. العملة. الإمبراطورية الرومانية. تارا. توقف. تم إصلاحها. رنين. كنا متشابهين.

كانت الشمس لا تزال ساطعة في فناء منزلي الخلفي، فجلست في الخارج مع سلطتي، في قفصي المذهب على حافة الإمبراطورية الرومانية، والآن أجلس

هنا، على الطاولة التي نقلتها من المطبخ إلى غرفة المعيشة، والعملة بجانبي. وضعتُ الكتب على الطاولة مع عملتي السسترتيوس، وأشعر بها طوال الوقت، هذه الرغبة أو الجوع أو أيًا كان، التي لا تزول. شعرتُ بها عندما كنتُ في الفناء الخلفي، جالسًا تحت أشعة الشمس الأخيرة قبل أن تغيب خلف برج الكنيسة. شعرتُ بها عندما كنتُ أعيد ترتيب الأثاث في الشقة، وعندما ذهبتُ إلى الفراش بعد أن قضيتُ ساعاتٍ في قراءة كتبي. شعرتُ بها عندما استيقظتُ صباح أمس وطوال يوم أمس، وأشعر بها الآن، وقد حلّ المساء مجددًا، وقضيتُ يومي في رحلات استكشافية صغيرة وعشوائية في العالم الروماني: لديّ مهمةٌ عليّ إنجازها، هدفٌ يجب تحقيقه. لقد بدأ شيءٌ ما، وليس بوسعي إلا أن أسايره.

فور استيقاظي هذا الصباح، خرجتُ. لم أتناول فطوري في مقهى مولر، وبحلول وقت متأخر من الصباح، كنت قد ذهبت إلى المكتبة وملأت حقيبتي بالكتب التي أخذتها إلى مقهى قريب وبدأت القراءة على الفور. لم يستغرق الأمر وقتًا طويلاً لأدرك أنني سأضطر لشراء جهاز كمبيوتر، وهو أمر كنت أعتبره حتى ذلك الحين غير ضروري. كنت أستخدم المكتبات وردهات الفنادق، وكان لدي هاتفي الذي، على الرغم من أنه يفقد اتصاله بالعالم الخارجي كلما لم أكن أستخدمه، إلا أنه يمكن تفعيله عند الضرورة، لكن ذلك لم يعد كافيًا. كنت بحاجة إلى اتصال إنترنت مستقر، وبعد ذلك بوقت قصير خرجت واشتريت جهاز كمبيوتر محمولًا أحضرته إلى الشقة مع الكتب.

كانت الخطوة التالية هي الوصول إلى الإنترنت. عندما استأجرت الشقة، أخبرتني صاحبة المنزل أن المبنى مزود بشبكة واي فاي، وأنني سأحتاج فقط إلى كلمة مرور. لم أحصل عليها حينها، لكنني لم أكن بحاجة إليها. لم أكن أنوي الاتصال بأي شبكة لأنه لم يكن هناك أحد لأتواصل معه ولا شيء لأتحقق منه.

لكن الآن، كنتُ بحاجة ماسة إلى كلمة المرور، وبدأتُ على الفور بالتخطيط لكيفية الحصول عليها. أول ما خطر ببالي هو أنني سأضطر إلى تكرار لقائي مع مالكة الشقة التي ستكون، بالطبع، قد نسيت وجود مستأجر لديها، وبالتالي ستعتقد أن الشقة فارغة. سأضطر إلى جعلها تبدو خالية، وسأضطر إلى الاتصال بصاحبة العقار، وسأضطر إلى الإصرار مرة أخرى، والإقناع مرة أخرى، وإعادة إجراءات التأجير، كل ذلك مع...

كان هناك فرق واحد: هذه المرة، كان عليّ التأكد من الحصول على كلمة مرور الواي فاي فورًا. لكن خطرت لي فكرة أخرى، وهي أن أطرق باب إحدى الشقق الأخرى في المبنى وأعرّف بنفسي بصفتي المستأجر الجديد في الطابق الأرضي، وأسأل ساكنها عن كلمة المرور. أو ربما كان بإمكاني إنشاء نقطة اتصال لاسلكية، لكنني تذكرت حينها الظرف الذي وجدته على عتبة بابي بعد ظهر يوم استئجاري للشقة. كنت قد وضعته في حقيبتي، وبعد بضعة أيام، عندما فرغت الحقيبة، تركت الظرف في المطبخ. كنت قد لاحظت أنه يحتوي على مفتاح صندوق البريد في الردهة، ولكن بما أنني لم أكن أتوقع استلام أي بريد، فقد بقي الظرف على طاولة المطبخ حتى وضعته أخيرًا في إحدى خزائن المطبخ. استعدتُ الظرف الذي كان مُسندًا إلى كوب ماء في مؤخرة الخزانة، وبالفعل: وجدتُ بداخله، إلى جانب مفتاح صندوق البريد، ورقة صغيرة عليها كلمة مرور شبكة الواي فاي، وضعتها صاحبة المنزل اللطيفة. أدخلتُ كلمة المرور، وهكذا تمكنتُ من الوصول إلى كل ما أحتاجه.

903

إنه بحثٌ غريب. ينتابني حالما أفتح عيني: شغفي، وحافزي، وتعطشي الغريب للمعرفة. يرافقني طوال اليوم، يدفعني للخروج من الشقة، ويجلسني على طاولة غرفة المعيشة. إنه بحثٌ لا يمكن إيقافه. كتبي مفتوحة على أرضية الشقة. أوراقٌ متناثرة هنا وهناك، مغطاة بملاحظات وقوائم بأشياءٍ أراجعها. أحضرتُ كتبًا، فليس لديّ رفوفٌ للكتب، لكن الأرض ستكون بمثابة رفّ. اشتريتُ مصباحًا أشغله حين أُدرك حلول المساء. أجلس على كرسيّ بذراعين مع كتابٍ أو اثنين. أحيانًا أغفو على الكرسي، لكن عادةً ما أصل إلى سريري، وما إن يطلّ الصباح حتى يعود شغفي، وبحثي الذي لا يُقهر.

يمكن إيقافها مؤقتًا. أجلس تحت أشعة الشمس في الفناء الخلفي. أستعيد نشاطي. آخذ استراحة قصيرة تحت أشعة الشمس، ولكن ليس لفترة طويلة.

T927

يبدأ يومي بصباحٍ خالٍ من أي شيء. استيقاظٌ مفاجئ. أرفع حاسوبي المحمول إلى سريري، أشغله، ويبدأ يومي. يتكرر الأمر نفسه كل يوم: أدخل كلمة المرور لأكتشف أن كل المعلومات التي جمعتها قد اختفت، لكن هذا لا يوقفني. هكذا هي الأمور. لا أستطيع حفظ المستندات أو الملفات، ولا يوجد لديّ سجل بحث لأن كل شيء يختفي بين ليلة وضحاها. هكذا أعمل. أستيقظ في الصباح. أشغله وأبدأ. أستكشف

عالم الرومان، أجد وأجمع، أترك نفسي أسير في دوائر عشوائية. أتبع نزوة، سؤالاً، فضولاً. ينقادني التيار، أتجول حاملاً مصباحاً يدوياً، أنير الزوايا، أرفع الستار، أنفض الغبار عن جملة.

في وقت ما من الصباح، أغادر سريري وأجلس إلى الطاولة. أخرج لأشتري بعض الحاجيات من المتاجر، وأستمتع بشمس الظهيرة، وفي المساء أعود إلى كرسيي المريح. أقرأ أو أحاول استرجاع أحداث يومي. أخلد إلى النوم متأخرًا، وفي صباح اليوم التالي يبدأ كل شيء من جديد.

في البداية كنت متوترًا. في تلك الليلة الأولى بعد شرائي لجهاز الكمبيوتر المحمول، قمت بتغليفه بعناية فائقة ووضعته بجانبي على السرير. استيقظت مرتين خلال الليل لأتأكد من وجود كل شيء، وفي الصباح وجدته كما هو: الكمبيوتر المحمول، والأسلاك، والكتب، وكل شيء، إلا المعلومات التي عثرت عليها. لقد اختفت جميعها، كما هو متوقع: عمليات البحث، والمستندات، والمقالات، كل شيء اختفى، واضطررت إلى إدخال كلمة المرور مرة أخرى، لكن ذلك لم يفاجئني ولم يكن مشكلة. لقد كانت حرية، هكذا قلت لنفسي وأنا أحاول عبثًا العثور على مقال لم أقرأه بعد. أعلم أن الثامن عشر من نوفمبر عالمٌ متقلب، من المستحيل السيطرة عليه تمامًا. إنه عالمٌ مليء بالهواتف التي تتوقف عن العمل، وذاكرات التخزين الفارغة، وكلمات المرور التي يجب إدخالها مرارًا وتكرارًا، وعمليات البحث التي تختفي بين عشية وضحاها. كل صباح يختفي كل شيء، ويستيقظ الثامن عشر من نوفمبر من جديد، وكأنه لم يُستخدم من قبل.

هكذا أجد طريقي إلى العالم الروماني. ليس لدي هدف ولا خطة. لستُ بحاجة إلى حذف مساراتي المسدودة، فهي تحذف نفسها بنفسها. لا أستطيع

أمسك جيداً. لدي ذاكرتي، أدون العناوين والأسماء والمواقع الإلكترونية وأترك الباقي للنسيان.

هكذا أقضي أيامي، يومًا بعد يوم. أستيقظ وأتجول في صفحات التاريخ. أشعر بعقلي ينمو. ينمو من خلال التذكر، ومن خلال كل ما أجده. ينمو من خلال النسيان، فيتخلى عن الماضي، تاركًا فراغات، وفي اليوم التالي أبحث عن معارف جديدة لأملأ تلك الفراغات.

في بعض الليالي، أستيقظ لأجد يدي على سطح الكمبيوتر البارد. ينتابني القلق. أشعر وكأن شيئًا ما قد اختفى، وأعلم أن هذا هو النسيان يتسلل إليّ، وأن الذاكرة الرقمية في طور محو نفسها. أجلس. أنظر حولي، لكن عالمي ما زال موجودًا. أستمع إلى الليل، وإذا استلقيت والنافذة مفتوحة على الفناء الخلفي، أستطيع سماع شجرة المشمش

تتمايل مع النسيم، وربما صوت نقرة واحدة من ثمرة ساقطة. أسمع أزيز حركة المرور البعيد، وإذا لم أغفو، أستطيع سماع أولى الترامات وهي تغادر في عتمة الصباح.

956

ماذا تسمي فراغًا يُحرك شيئًا ما؟ ماذا تسمي لهفةً لا يمكن تجاهلها؟ ماذا تسمي بحثًا لا يتوقف؟ أُطلق عليه أسماءً. دافعًا، شوقًا، حنينًا، رغبةً، حافزًا. أُسميه اهتمامًا، تعطشًا للمعرفة، أظنه شغفًا بالتاريخ وحنينًا للماضي، لكن لا شيء من هذه يُطابقه تمامًا. إنه اضطرابٌ مُطلق، فراغٌ لا يُقاس. أحمل كرسيي إلى الفناء الخلفي. أُنصتُ لشجرة المشمش. تقف هناك وكأن شيئًا لم يكن، هادئةً في نسيمٍ خفيف.

أريد أن أعرف المزيد. إنها آلة، آلة دراس، انطلقت. أريد أن أواصل المسير. أحمل حيواناتي، وأُسرج الخيول، وأريد أن أتقدم، وأمسح الأرض بنظري. أتسلح بالصبر، وأبحث وأجمع.

أتابع تحركات الرومان. أتابعهم وهم يشقون الطرق عبر الريف. أتابعهم حتى حدودهم التي تتغير كل عام. انطلقتُ، نحن نتوسع، نريد أن نتقدم للأمام. انطلقتُ

أرافق الجيش في مسيرته، وأجوب البلاد مع الفيالق، حاملاً أمتعتهم وأسلحتهم وقطعان الماشية أو أسراب الأغنام. أكون معهم حين يعسكرون أو يخوضون المعارك، حين يسرقون وينهبون ويتاجرون.

أتبع أعداءهم وحلفاءهم، وأراقبهم من بعيد. أقف على قمة تل، وأتابع المعارك وأجمع الغنائم من ساحة القتال. أستعير حصانًا وعربة، وأربط الصنادل حول قدمي. أسافر مع الأفيال في رحلة شاقة عبر الثلج وفوق الجبال. أجلس على الساحل، شبه مختفي، عندما يجدف عبيد السفن الحربية إلى كمين خلف رأس صخري، أكون مع أحدهم، ثم مع الآخر، ثم أعود وأرسو على شاطئ صديق.

أريد أن أواصل المسير، أريد أن أحرث وأحصد، أريد أن أجمع، أريد أن أجد، أريد أن أتقدم. انفتح باب. هناك تيار هواء. تهبّ الرياح في الغرفة. الريح في الأشرعة. سفينة تعبر المحيط. صرخة الملاح. نحمل مخزنًا مليئًا بالحبوب، أسطول من السفن يبحر. أفكر في الجرذان والحشرات الزاحفة، في القراصنة والعواصف. أصعد إلى الصاري وأتجسس على الموانئ والمنارات. أكون هناك عندما يقيس قاسلو الحبوب الذرة ويحمل الحمالون الأكياس. أبحر مع المراكب على النهر والآن أستطيع سماع ضجيج المدينة. المباني تنبثق من الأرض. هناك رافعات وخلاطات وأوناش. الإسمنت الذي يربط كل شيء معًا.

أركض بمحاذاة القنوات المائية، شامخةً وفخمة. أسمع خرير الماء يتدفق فوق رأسي، وأتبعه وهو يتدفق إلى المدن، إلى الصهاريج والنوافير والمنازل. أقف وأنظر إلى أسفل نحو مصارف المياه الرومانية، أنابيب الصرف الصحي تحت الطرق. أريد أن أعرف المزيد. كيف بُنيت؟ وكيف خطرت لهم الفكرة؟ آه، لكنهم لم يبتكروها. لقد استعاروها من الأتروسكان، كما هو الحال مع القنوات المائية.

أرى المزيد من المدن ترتفع في الريف، وفيلات على طول الساحل، والمزيد من الطرق. أتتبع خطوط الإمداد، حيث تُنقل الإمدادات الطازجة باستمرار في جميع أنحاء الإمبراطورية. هناك ملح من آسيا الصغرى وزيت زيتون من هسبانيا. نبيذ من كروم العنب في الجنوب، وشراب فواكه وصلصة سمك في جرار كبيرة. ودائمًا ما يكون هناك حبوب من مصر، من

صقلية وسردينيا وكل مكان على طول ساحل شمال إفريقيا، جميعها تزود بالحبوب، والآن تأتي الحبوب من حقول بريطانيا أيضًا، وعلى طول الطريق من موسيا على البحر الأسود يتم نقل الحبوب عن طريق البحر إلى روما.

أسمعُ صوتَ الطواحينِ تطحن، تُدارُها الحميرُ بقوةِ الماء، ثمَّ أسمعُ صوتَ العبيد، دائمًا العبيد، والخبزَ يُعجنُ ويُشكَّلُ ويُخبزُ في أفرانِ المخبز. أراهم يُشعلونَ النيرانَ بخشبِ الكرومِ القديمة، والآن أسيرُ بينَ كرومَ العنب، ومزارعَهم الصغيرةِ ومزارعَهم الشاسعة، حيثُ يحصدُ العبيدُ ويزرعونَ ويبذرون. يُلقي عليَّ أحدُ العبيدِ نظرةً تُوقفني في مكاني. هذه الدوامةُ المحمومةُ التي أعيشُها مُرعبة. أنا وحشٌ يُريدُ أن يعرفَ المزيد. أنقبُ عن تاريخِهم بعدَ ألفي عام، والآن لا أستطيعُ أن أشبعَ منه.

أكون هناك حين تصل الوحوش البرية من أقصى أرجاء الإمبراطورية: أفيال، زرافات، تماسيح، ونمور. أرى الخيول تنطلق في مضمار السباق، وأرى المتفرجين يتوافدون على مباريات المصارعة أو العروض الكوميدية، لكن عليّ الآن الرحيل، لأنني أتابع الآن خدمة البريد، الرسائل المختومة التي تُرسل من مدينة إلى أخرى، ومن معسكر إلى آخر. أسمع أصوات الخيول والبغال. أسلك الطرق المؤدية إلى روما والساحل، ثم إلى حدود الإمبراطورية، لكن علينا بعد ذلك التوجه إلى الجبال، إلى المناجم، لأن الرومان بحاجة إلى المعادن. هناك قصدير يجب نقله، ونحاس ورصاص يجب جمعهما، وفضة وذهب يجب استخراجهما. أرى الرومان يتفاوضون مع المقاولين والناقلين بينما يغزون أراضٍ جديدة ويوزعون المؤن. جبال هسبانيا مُقوَّضة، وقد استُخرجت كميات هائلة من الذهب، والآن مناجم القصدير على وشك

النضوب، لذا علينا جلب القصدير من بريطانيا، فالريف مليء بالحفر. نحتاج إلى الرماد البركاني من بوتيولي لصنع الخرسانة. تنتشر الموانئ والمدرجات والصالات الرياضية والحمامات في كل مكان. الخرسانة تدوم إلى الأبد، وروما خالدة، والإمبراطورية لا تعرف حدودًا.

أبحث طوال اليوم فأجد. أدخل البيوت، وأتسلل إلى غرف النوم والمطابخ. أشم رائحة الأطباق التي تُحمل خارج المطبخ، وأتناول ما تبقى منها، إن وُجد، عندما تعود الأطباق إلى المطبخ.

لا أكتفي ببقايا الطعام، بل أستكشف أسرار الطهاة وتقنيات الخبازين. أطهو المشمش البري بالعسل، وأصنع صلصة فواكه من العنب الفاسد، وأخبز الخبز، خبز "بانيس كوادراتوس": رغيف مستدير مخمر بـ

ثمّ عجنتُ العجين المخمّر وشكّلته، وقسمتُ الجزء العلوي منه. ربطتُ خيطًا حول الرغيف لأنّ هذه على الأرجح الطريقة التي كانوا يفعلونها، ثمّ وضعته في الفرن.

أجد أطباقًا وجرارًا، وأتبع الخزافين، والآن نافخي الزجاج أيضًا. لقد تعلموا صب الزجاج من الإغريق، لكن صانعي الزجاج الآن يسافرون إلى المقاطعات الجنوبية، ويعودون بالصودا من وادي ناترون، وسرعان ما ينتشر نفخ الزجاج في كل مكان: كوب زجاجي مقابل سيسترتيوس، كوب رخيص، لكنها متوفرة بجميع الألوان والأشكال، وتنتشر في جميع أنحاء الإمبراطورية، التي تتوسع كقطعة زجاج تُنفخ، وعاء، إناء، مملكة متنامية. نحتاج إلى حطب للأفران، فأذهب معهم إلى الأشجار، ثم يُقطع الخشب ويُحرق ليتحول إلى فحم، يُنقل على طول الطرق، ثم يحل المساء مرة أخرى.

أركض طوال اليوم، فألهث، وبحلول المساء أكون قد تعبت من مطاردة الرومان. أتوقف، وأذهب إلى الفراش، وأغفو، وقبل أن أدرك ذلك، ينتهي الليل، ويبدأ بحثي من جديد.

#981

الأيام كلها متشابهة. أجد خرائط للمدن والشوارع. أجمع رسومات للمنازل والحمامات، والمسارح والموانئ. أقرأ روايات عن المعارك والفتوحات، والصراعات على السلطة، والمؤامرات والقتل. لديّ قوائم بالنباتات السامة، والجيوش والفصائل، وجرد لغنائم الحرب، وفهارس لعلاجات الأطباء لالتهابات المثانة، والكسور، والتهاب المفاصل. أجد صورًا لأدوات الحياة اليومية، والملابس والمجوهرات، وتسريحات شعر النساء المضفرة بإتقان.

أجد حسابات وقياسات: أبعاد مخازن الحبوب وحمولة السفن، وإحصاءات سكان المدن وحجم الفيالق. كما أجد أرقامًا عن إنتاج النبيذ ومحاصيل الزيتون، وتقديرات لاستهلاك الحبوب لكل روماني يوميًا، وأعداد ضحايا الطاعون، واستهلاك المياه في المدن.

هناك جوقة من الأصوات: روايات المؤرخين، ونقوش من جميع أنحاء الإمبراطورية، وكتابات على الجدران، ورسائل وخطابات و

أستمع إلى الشعر، والمراسيم، والقوانين. أستمع إلى روايات الرحالة القدامى، وإلى الرهبة التي تغمر المرء عند رؤية مبنى روماني قديم، وإلى الدهشة التي تتسع أمام المعبد، وإلى الإثارة التي تقشعر لها الأبدان عند استنشاق رائحة بخار بركان فيزوف. أستمع إلى نقاشات علماء الآثار وتقديرات الاقتصاديين، وإلى الخلافات والهمسات الخافتة. أقرأ عن الدراسات القديمة، والحقائق الراسخة، والنظريات الجديدة، وأحدث نتائج المختبرات، والتكهنات الغريبة.

لم يعد في ذاكرتي متسعٌ للمزيد. إنها مليئة بالرومان وهم يركضون ويصرخون في الشوارع أو يتبادلون الرسائل. إنها مليئة بصائدي الكنوز والمساحين، ومقاولي البناء والمهندسين المعماريين الذين يجوبون الأرض عبر القرون، مكتشفين آثار العالم الروماني. ألتقي بمؤرخين وعلماء لغويات وعلماء آثار، والآن أيضاً بعلماء محيطات وعلماء نباتات أثرية، وعلماء جيولوجيا وراثية، وجغرافيين بحريين، وخبراء في الكيمياء الأثرية.

بدأتُ أشعر بالقلق حيال كل الأشياء التي تختفي خلال الليل، والآن اشتريتُ طابعة. لديّ ورق ومجلدات، وجهزتُ رفوفًا لمجلداتي، والطابعة تطبع صفحاتٍ تلو الأخرى في غرفة معيشتي. صور ومقالات، ملخصات وأوراق ملاحظات مكتوبة بخط اليد. هناك بعض خراطيش الحبر الاحتياطية بجانب الطابعة، وفي المساء أطبع ما وجدته. أرتب الأشياء وأصنفها وأذهب إلى النوم، وقبل أن أُدرك، ينتهي الليل.

992

أيامي بسيطة، وأفكاري تتدفق، ولياليّ هادئة. أستيقظ صباحًا وأضع حاسوبي المحمول على السرير. أقرأ الكتب وأدوّن الملاحظات. أبحث عن الرسوم التوضيحية والمحاضرات والعروض التقديمية والمقالات والأفلام. خلال النهار، أجلس إلى الطاولة، ومع حلول المساء، أطبع كل ما توصلت إليه وأحمله معي إلى السرير، سواءً المطبوعات أو الملفات التي رتبتها فيها. في الليالي الأولى، تبقى الملفات بجانب وسادتي أثناء

نومي، ولكن سرعان ما أضعها على الكرسي بجانب السرير. إذًا، أنا بحاجة إلى كرسيين، أحدهما للجلوس والآخر للتذكر.

#1021

لقد اكتشفت شيئًا مثيرًا للقلق. أو على الأقل، ليس اكتشافًا كبيرًا، لكنني أجده الآن مثيرًا للقلق: كل شيء في العالم الروماني عبارة عن وعاء.

هناك أوعية في العالم. بالطبع هناك. لكن ليس هذا ما يُخيفني. لقد سقطتُ في أحدها، في وعاء الزمن. ليس هذا أيضًا. لكن كل ما يلمسه الرومان يتحول إلى وعاء. ليس الأمر مقتصرًا على أنونا وأسلوبها. ليس الأمر مقتصرًا على كل ذلك الزجاج المنفوخ حديثًا، كل تلك الأكواب والقوارير والمزهريات الرومانية. ليس الأمر مقتصرًا على الجرار والأوعية، والأواني والأباريق، وأدوات المطبخ المصنوعة من الفخار أو الخشب. ليس الأمر مقتصرًا على جرار زيت الزيتون والقدور وسلال الخوص، ذلك التدفق المستمر للأوعية اليومية التي تُملأ وتُفرغ بينما أركض داخل وخارج البيوت والورش الرومانية. أتفحص أوانيهم، أقلبها يمينًا ويسارًا، أرفع غطاء جرة، وعندما أقلبها رأسًا على عقب أرى أنها أيضًا وعاء. أُعيد الغطاء، في عالم مليء بالأوعية.

أتبع امرأةً تعبر بوابةً، وهناك نجد أنفسنا في فناءٍ تحيط به غرفٌ من جميع الجهات، وبه فتحةٌ في السقف. لقد تحوّل المنزل إلى وعاءٍ يتساقط الضوء في وسطه، ويتدفق الماء إلى بركةٍ عند هطول المطر. وكذلك المساكن في الأحياء الفقيرة من المدينة. أزورها، لا أطرق الباب، بل أدخل ببساطة، فأجدها أوعيةً شاهقة الارتفاع، بجدرانٍ تطل على الشارع، وشققٍ مبنيةٍ حول مساحةٍ مفتوحة، حديقة، نفق، نواةٍ داخليةٍ يتساقط فيها الضوء.

أتجول بين مواقع البناء الرومانية، حيث تُشيّد حاويات تلو الأخرى: ليست تلك الدوائر النصفية المنخفضة والواسعة، ولا الملاعب المستطيلة الطويلة التي كانت سائدة من قبل. كل شيء الآن محاط بجدران أعلى فأعلى، طابق فوق طابق، ساحات مسوّرة، على طوابق أكثر فأكثر، مدرجات دائرية بالكامل، حاويات أعمق فأعمق، ينتهي بنا المطاف دائمًا داخل وعاء، علبة، جرة، وأقف في الأسفل، أنظر إلى الأعلى: إلى فتحة. أستطيع رؤية السماء، لقد سقطت في الحاوية ولا أستطيع الخروج.

أُشاهد موانئهم، مجمعاتٌ تكبر وتكبر، والمستودعات التي تُشكّل هلالًا حول الرصيف. يُحاول الميناء، كوعاء، احتواء البحر. تُلقي السفن مراسيها قبالة الشاطئ، في عرض البحر، في خليج.

جرفتها الأمواج. أبحروا بكل مؤنهم، أساطيل كاملة من السفن، وصلوا إلى اليابسة، وخفضوا أشرعتهم وانزلقوا بسلاسة إلى حوض الميناء. حاوية محاطة بجدران.

أزور الحمامات الحرارية، حيث ينغمس الناس في حمامات الماء الساخن والبارد، واحداً تلو الآخر، وأتبعهم عبر الغرف المختلفة، وأغمر نفسي في حماماتهم، وأسبح في أحواض السباحة المفتوحة على السماء، وهي عبارة عن أوعية مخصصة للسباحة.

أصبحت المعابد أيضاً مجرد أوعية. أدخل إلى البانثيون، يتلاعب الضوء على الأرضية، وفوقها قبة شاهقة تتجه نحو السماء، فتحة دائرية ضخمة، ثم المقابر، ضريح مفتوح من الأعلى، ثم آخر، وآخر، منتشرة في أرجاء الإمبراطورية، أوعية لتكريم الموتى.

والمدن، بالطبع. المدن أشبه بأحواض، وهذا ليس بجديد. لطالما امتلكت المدن أسوارًا، وروما تتوسع وتتجاوز أسوارها، وسرعان ما يصبح من الضروري بناء سور جديد، أكبر وأعلى. لكن الإمبراطورية بأكملها أصبحت الآن حوضًا، الحوض الروماني، والأسوار هي التي تحدد الإمبراطورية. هناك حدود جنوبية، والآن تمتد الأسوار على طول الحدود الشمالية. حتى في بريطانيا، ترتفع الأسوار فجأة، أولًا سور هادريان، ثم سور أنطونين شمالًا قليلًا، ثم تعود الأسوار إلى نقطة البداية، وهنا تتوقف الإمبراطورية. تدخل بريطانيا إلى الحوض. توقف. اكتملت الصورة.

هذا ما يُخيفني. أن كل شيء أصبح مجرد وعاء. الإمبراطورية الشاسعة أصبحت محاطة بسور، إنها وعاء، إناء، ولن يتقدم الرومان أكثر من ذلك.

لكن ما الذي يريدونه بكل هذه الجدران؟ لماذا توقفوا الآن؟ لماذا لا يواصلون؟ لماذا توقفت الإمبراطورية عن التوسع، ولماذا توقفت الجيوش عن الغزو، ولماذا توقف صانعو الزجاج عن تضخيم الإمبراطورية، ولماذا ربطوا خيطًا حول الخبز لمنعه من النمو؟

أريد أن أعرف السبب. أبحث عن إجابات، لكنني وقعت في فخّ الرومان: أستيقظ وأبحث، أقرأ وأستقصي، وعندما يحلّ المساء أخلد إلى النوم. وقبل أن أدرك ذلك، يكون الليل قد انقضى.

رقم 1041

اتسعت دائرة معارفي. زرتُ متاحف وحضرتُ محاضرات. أقوم برحلات استكشافية إلى الريف. زرتُ القناة المائية التي كانت تنقل المياه الرومانية إلى كولونيا. زرتُ أوسنابروك وكالكريزه، حيث خسر

كوينكتيليوس فاروس ثلاثين ألف رجل. زرتُ ليمس جيرمانيكوس وشاهدتُ أجزاءً من التحصينات الحدودية. أنطلق في ضوء الصباح الباكر، لكنني أعود دائمًا إلى المنزل مع نهاية اليوم. أسترخي في كرسيي، وأقرأ مقالات عن توقف التوسع الروماني، وأجد نظريات ودراسات جديدة وتوسعات لتفسيرات قديمة.

قرأتُ عن بوبليوس كوينكتيليوس فاروس، الذي سمح لجيوشه بالتقدم عبر غابة تويتوبورغ في مجموعات متفرقة، فوقع في كمين نصبه زعيم الشيروسكي، أرمينيوس. أُبيدت ثلاثة فيالق - السابع عشر والثامن عشر والتاسع عشر - ولم تُعاد تشكيلها أبدًا، فانتصبتُ قليلًا في مقعدي. لقد ظهرت فجوة في التسلسل. قرأتُ عن الإمبراطور أغسطس الذي ضرب رأسه بالحائط وهو يصرخ: كوينتيليوس فاروس، أعد لي فيالقي! لكن أغسطس لم يسترد فيالقه، وتوقفت الإمبراطورية الرومانية، لأن أرمينيوس أثبت أنه ندٌّ قوي للرومان، ثم فجأة، بعد عدة قرون، عُرف باسم هيرمان، وهو ألماني. بطل شعبي، ومحرر الشعب الجرماني، وملك غابة تويتوبورغ. أُقيم نصب تذكاري لإحياء ذكرى مآثره، وهو معبد روماني بدون فتحة في الأعلى، لأنه بدلاً من ذلك، حيث ينبغي أن تكون العين المتجهة إلى السماء، يقف هيرمان.

لكن هل تتوقف قوة عالمية عن الحركة لمجرد استدراج قائد عسكري إلى كمين؟ هل تتوقف إمبراطورية عظيمة عاجزة عن الدفاع عن نفسها أمام مجموعة متناثرة من القبائل المتناحرة التي تمزقها الصراعات الداخلية؟ لطالما كانت هناك معارك حدودية وفيالق مهزومة، لكن ذلك لم يمنع الرومان قط من التوسع. أتردد، وأبحث عن تفسيرات أخرى. أقرأ عن التحالفات والتجارة، عن المعارك والهجرات، وأسمع عن الاقتتال الداخلي، عن الأمراض والموت، عن الأوبئة ونقص الغذاء. أقرأ عن استغلال الريف، والحقول المستنزفة، والانحطاط الأخلاقي، والمؤسسات المتداعية. أتخيل وحوشًا في حاويات، تلتهم عالمها.

يعتقد أحد المؤرخين أن روما تتفكك من الداخل، كعملاق ذي أقدام من طين، يضطر لبناء أسوار ليخفي نفسه خلال عملية التحلل. بينما يعيد آخر إحياء أسطورة أرمينيوس والجنود الجرمان الأقوياء، فبينما كانت الإمبراطورية الرومانية تنمو وتزدهر، كان البرابرة يتربصون ويزدادون قوة. لم تكن روما مملكة متداعية، بل إمبراطورية عظيمة تدافع عن نفسها ضد البرابرة الأقوياء، جحافل الغزاة. كانوا تحت ضغط من الشمال، فتوقف توسعهم. ويشير أحد الاقتصاديين إلى أن التحصينات الرومانية لم تكن دفاعًا، بل عتبة، مدخلًا. لم يشعر الرومان بأي تهديد، فقد شموا رائحة الربح. أرادت شعوب الشمال نصيبًا من تجارة روما وثروتها، فبنت روما الأسوار لتعزيز سيطرتها. الآن

أصبح بإمكان الرومان التحرك، بإمكانهم تنظيم حركة الناس وفرض الضرائب على كل ما يمر عبرها. الحدود وسيلة للتوسع، واستمرت الإمبراطورية في النمو خلف الأسوار، وتضخمت حتى أصبحت كبيرة وهشة كرغيف خبز طازج من بومبي. يكتب عالم آثار نباتية عن تجارة الحبوب وتغيرات المناخ، وعن الأفران المكتشفة حديثًا وآثار حبوب اللقاح، والآن، فجأة، أصبح الجاودار هو ما أوقف تقدم الرومان. أسمع عن أساليب الزراعة وظروف النمو، والجواب واضح: وصل الرومان إلى حدّ زراعة خبز الجاودار. فالأرض الشمالية شديدة البرودة، وزراعة القمح صعبة للغاية، والمحصول غير مضمون، لذا لا ينمو هناك سوى الجاودار.

أجلس على كرسيي وأقرأ أن الرومان توقفوا عن التوسع بمحض إرادتهم. كان بإمكانهم التوسع أكثر، ولم يكن ذلك ليتطلب قوة رومانية كبيرة. كان بإمكانهم إعادة تنظيم الفيالق وغزو جرمانيا بأكملها، لكنهم لم يفعلوا، لأنه لم يكن هناك ما يُغزى. لا قمح، لا رومان. كان من الأفضل لأرمينيوس أن يوفر قوته، فالرومان كانوا سيتوقفون على أي حال، لأن ما أوقفهم لم يكن كارثة فاريان، ولا فرصة فرض الضرائب والرسوم، ولا غارات البرابرة أو الانحلال الداخلي. بل كانت رائحة المخبز، لأن الجاودار كان طعامًا رديئًا جدًا لا يُفيد إلا في درء المجاعة، كما يقول بليني الأكبر. حتى عند مزجه بالقمح الكامل لتخفيف مرارته، فإنه يبقى كريهًا جدًا للمعدة، كما يقول، ويقول الطبيب جالينوس عن الخبز الأسود المصنوع من الجاودار إنه كريه الرائحة وضار بالصحة.

توقف أنطونيوس بيوس، ووقفت أنونا هناك ومعها وعاءها، لكنه كان فارغًا لأنها سافرت شمالًا بعيدًا جدًا. نهضتُ من كرسيي، ولا زلتُ أجهل السبب. هل توقف الرومان حقًّا لأن الشعير تسبب في ألم في معدة بليني الأكبر؟

أعلم: لن أجد أي إجابات. لقد أصبحت الإمبراطورية الرومانية مرآتي، والآن دخلتُها ولا أستطيع الخروج منها. لا أدري لماذا توقف الرومان عن التوسع. ربما لم يرغبوا في الاستمرار. توقفوا وبنوا جدارًا. لأنهم لم يرغبوا في التقدم أكثر. ربما أرادوا ببساطة العيش في مكانٍ مُغلقٍ يُطل على السماء والغيوم.

1053

لكنني لن أتوقف، أريد الآن المضي قدمًا. دوائري تتسع. أخطط لرحلات إلى سور هادريان وسور أنطونين. أفكر في السفر إلى أجزاء أخرى من الإمبراطورية، لكنني أشعر باختلاف الآن، أقرأ وأبحث، أو أجلس بجانب الماء في شمس الظهيرة وأشاهد السفن تبحر على طول

نهر الراين قبل أن أعود إلى الشقة وأجلس في الفناء الخلفي مع شجرة المشمش.

أشعر بتغير في بحثي. لم أعد متلهفاً. أشعر بفضول بارد، كما لو أن حماسي قد خفت قليلاً، لكنه كان كافياً لأرتجف قليلاً، وأنا جالس هناك في فناء منزلي الخلفي، ثم أعود إلى الداخل، آخذاً كرسيي معي.

رقم 1064

إنه نوع مختلف من الحماس الآن. حماس حذر. لقد بدأتُ بحضور دروس جامعية، عادةً في دوسلدورف، لكنني أحياناً أذهب إلى كولونيا أو مدينة أخرى قريبة.

في المرة الأولى التي استقللت فيها الترام إلى الجامعة، لم أكن متأكدًا من الطريق. اضطررت لتغيير الترام عدة مرات لأنني سلكت الطريق الخطأ. كدتُ أن أستسلم، لكنني الآن أذهب إلى هناك غالبًا في منتصف الصباح. أحزم حقيبتي بجهاز الكمبيوتر الخاص بي، وورق وقلم، وقاموس. أجلس مع

زملائي الطلاب في الترام، نتجه معًا إلى المدخل الرئيسي، وأحضر المحاضرات، وليس فقط عن الرومان: أتعلم الآن عن تجارة زيت الزيتون في ميسينا، والزراعة الفرنجية، وبناء الموانئ اليونانية، والطب القديم، وانهيار العصر البرونزي في الشرق الأدنى. سمعت عن الهجرات في عصور ما قبل التاريخ، وعن حطام السفن المكتشفة حديثًا، والأمراض التي أصابت حقول القمح في العصور الوسطى.

من الغريب أن أكون بين الأحياء بعد كل هذا الوقت الذي قضيته مع الرومان الأموات. أسير ببطء، وأبقى في الخلفية وأنا في طريقي إلى قاعة المحاضرات، وأقف في طابور آلة القهوة، وأتجول بين رفوف الكتب في المكتبة. أطرح أسئلة مترددة على من حولي، بالإنجليزية والألمانية المتقطعة، ويجيبني زملائي الطلاب بصبر، ويشرح المحاضر نقطة ما، ويرشدني أمين المكتبة بين رفوف الكتب لأجد كتابًا أرغب في تصفحه.

في البداية، كان كل شيء جديدًا عليّ. شعرتُ بشيء من الغربة بين الطلاب بحقائبهم الصغيرة لأجهزة الكمبيوتر المحمولة وحقائب الظهر، وكثير منهم لا يرتدون ملابس خارجية، ويبدون كما لو كانوا في منازلهم. كنتُ أتجول وكأنني مسافر، بسترتي على ذراعي وحقيبتي الكبيرة على كتفي. أشعر وكأنني عارٍ بدون حقيبتي، ورغم أنني أستطيع تركها في شقتي، إلا أنني لا أفعل.

بعد فترة، بدأت ألاحظ أشخاصًا آخرين لا يبدو أنهم يندمجون تمامًا: أفراد يرتدون سترات ويحملون حقائب كتف كبيرة، ويبدون أكبر سنًا من معظم الطلاب. لاحظتُ حركات مترددة ونظرات ثاقبة، فتلاشت مشاعري بأنني دخيل. أعرف المكان جيدًا، وأستطيع الوصول إلى قاعات المحاضرات والفصول الدراسية بسهولة وكأنني أنتمي إليه. أعرف العاملين في الكافتيريا، وأعرف أحداث اليوم، وأعرف حركة الناس في الممرات. في إحدى المحاضرات، تعثر المحاضر بسلك، والآن عندما أصل، أحرص على المرور بتلك الغرفة وتوصيل السلك بمقبس آخر قبل أن أتابع إلى محاضرة أو ندوة أخرى.

أكبح فضولي. أتوخى الحذر بين الأحياء. لا أفتش حقائبهم ولا أتصفح ملاحظاتهم. لا أقرأ رسائلهم. لا أتبعهم إلى منازلهم ولا أستحم في حماماتهم. لا ألتقط صورًا لمجوهراتهم ولا أعبث بطرف...

لا يُفعل مثل هذا الأمر. قد ينحني المرء لالتقاط وشاح أو كتاب سقط منه، لكنه لا يتفقد طعامه أو يسأل عن سبب ربط خيط حول رغيف الخبز.

لقد كنتُ أُقلّد الرومان، لكنني الآن أريد الخروج من مرآتي. أرى نفسي في واجهات المحلات عندما أتجول في المدينة مساءً. أمرّ بجانب المطعم في شارع فيزنفيغ وأرى روّاده على طاولاتهم. أحياناً أدخل. أجلس بين الجالسين. أُلقي التحية على الناس بتكتم، لكنني لا أطرح أي أسئلة. أعود إلى شقتي، أطبع صفحة أو صفحتين، أخلد إلى النوم، وقبل أن أُدرك، ينتهي الليل.

1081#

رأيتُ سارق حقيبتي على الدراجة اليوم. أو هكذا أظن. كان يركض مسرعاً في شارع فيزنفيغ. أو ربما سمعته، لأن صوت الدراجة هو ما جعلني أرفع رأسي.

كان الوقت بعد الظهر بقليل، وكنتُ ذاهباً للتسوق، وما إن خرجتُ إلى الشارع حتى سمعتُ صوت خشخشة، كأنه صوت دراجة تحتاج إلى صيانة، أو ربما صوت رفرف غير متوازن أو سلسلة صدئة. انطلق راكب الدراجة مسرعاً نحو النهر في شارع فيزنفيغ. استغرقتُ لحظة لأربط الصوت بالشخص على الدراجة، ولكن ما إن أدركتُ مصدر الصوت حتى انطلقتُ أركض في شارع فيزنفيغ. ركضتُ بأقصى سرعة، وحقيبتي على كتفي، متجاوزاً السيارات المتوقفة، وعيناي مثبتتان على راكب الدراجة في الأفق، ولكن لم يكن هناك أي سبيل للحاق به، وسرعان ما لم أعد أرى سوى خياله يتلاشى بسرعة.

توقفت عن الركض، وأنا ألهث وأتنفس بصعوبة، وفجأة انتابني الشك: هل كان ذلك حقًا سارق حقيبتي؟ لم أرَ أي أثر لألوان الفريق المضيف، ربما كنت مخطئًا. مع ذلك، واصلتُ الركض. أسرعتُ إلى النهر، وسرتُ جيئةً وذهابًا على ضفافه أبحثُ بتمعن، لكن بالطبع لم يكن للدراج أثر.

جلستُ على مقعد بجانب النهر وأنا ما زلتُ ألهث، وقد غمرني فجأة شعورٌ بالحزن والفقدان، وكأن شيئًا ما مفقود. في البداية، شعرتُ وكأن اختفاء اللص هو ما أحزنني. الضائع

فرصة للتحدث معه. لكن ماذا سأقول له؟ لماذا سرقت حقيبتي؟ لكنني استعدتها منذ زمن. كانت معي. هذا لا يهم الآن.

ثم فجأةً، تذكرتُ الكتاب المفقود، ذلك الذي يحوي فصول حياتي كلها. شعرتُ برغبةٍ عارمةٍ في الصراخ: يا سارق الحقائب على الدراجة، أعد إليّ فصولي! وكأنّ هناك ما يُمكن استخلاصه من كتابٍ مليءٍ بالشتاء والربيع والصيف. لا أريد فصولي. ما الذي أريده من فصولٍ عليّ أن أُشكّلها من شظايا شهر نوفمبر؟

تذكرتُ توماس، الذي طلب مني الذهاب إلى باريس وحدي، وفيليب وماري، اللذين ودّعاني بعملة رومانية في حقيبة تسوق صغيرة. تذكرتُ والديّ ووعدي لأمي: أنني سأجد طريقي، وأنني سأجده بالاستماع. تذكرتُ ركاب القطارات، وسرقاتي الصغيرة من أحاديثهم، لكنني أعلم: أن الاستماع لا يُجدي نفعًا.

بعد قليل، نهضتُ من على المقعد وبدأتُ بالعودة إلى الشقة. في طريقي، تسوقتُ في سوبر ماركت صغير، وعندما وصلتُ إلى قسم المبردات، أضفتُ علبتي بيرة إلى سلتي. فجأةً، انتابتني رغبةٌ شديدةٌ في الذهاب إلى الملعب لمشاهدة المباراة، ولكن ما إن غادرتُ السوبر ماركت حتى فقدتُ حماسي، أو اهتمامي، أو أيًا كان ما فقدتُه. أعرف النتيجة. أعرف من سيفوز ومن سيخسر، وعندما تنتهي المباراة، سأكون هناك. واقفًا في مكانٍ مُطلٍّ على السماء والغيوم.

بعد ذلك بوقت قصير، عندما دخلت الشقة، استقبلتني رائحة هواء راكد. كانت أكياس القمامة مبعثرة في الردهة. طاولة المطبخ كانت مغطاة بأكوام من الأطباق والأكواب، وسطحها ملطخ ببقع القهوة. كانت هناك أكياس شاي مستعملة وعلب بلاستيكية تحتوي على بقايا سلطة في قاعها. كان هناك وعاءان متسخان بالزبادي الجاف، وكتب وأوراق وخراطيش طابعة مستعملة متناثرة في كل مكان، وفي وسط كل ذلك كانت العملة الرومانية السسترتيوس ملقاة.

التقطته، وقلبته، ووزنته في يدي: إنه أثر من آثار بحثي الروماني، مهجور بين خراطيش الطابعة والأكواب غير المغسولة، نفايات تركتها تارا سيلتر، التي لا تزال على قيد الحياة ولا تزال عالقة في الثامن عشر من نوفمبر.

تسللتُ عبر الغرفة وفتحتُ باب فناء منزلي الخلفي حيث شجرة المشمش. حملتُ كرسيًا إلى الفناء، وأخذتُ معي بيرة باردة، وفجأةً لم أستطع كبح ضحكتي، بتردد في البداية، لكن سرعان ما علا صوتي حتى كدتُ أسمعه في كل مكان في الفناء والشرفات المحيطة، لكن لا بأس. يحق للمرء أن يضحك إذا وجد نفسه في قاع وعاءٍ يُطل على السماء، ويعلم أنه لن يعرف أبدًا كيف انتهى به المطاف هناك.

#1106

لم يعد بحثي جوعًا، ولا شوقًا، ولا رغبة ملحة. أتردد على قاعات المحاضرات والمقاهي، والمتاحف والمكتبات، وعندما ينتهي اليوم أعود إلى مكاني. أدخل وأعلم: لن أجد أبدًا التفسيرات التي أبحث عنها. سأجد فقط أسئلة جديدة وإجابات جديدة.

أتجول في أرجاء المدينة. لم أرَ سارق حقيبتي على الدراجة منذ ذلك الحين. ركضتُ إلى الشارع مرة أو مرتين ظنًا مني أنني سمعتُ صوت دراجة تُصدر صوتًا مزعجًا، لكن لم يكن هناك أي سارق.

أستمع إلى صوت الريح وشجرة المشمش في فناء منزلي الخلفي. أستمع إلى نقرات لوحة مفاتيح حاسوبي المحمول الخافتة، لأنني أجلس هنا مع كومة الأوراق الكبيرة من مجلدي الكرتوني الأسود، كل تلك الأوراق المتناثرة التي كتبت عليها بقلم كليرون وباريس، في فصولي، في قفصي المذهب، في وعائي الروماني.

أدخل كل شيء في حاسوبي المحمول بخط صغير جدًا، وفي المساء أطبعه كله. أستمع إلى صوت الطابعة وهي تطبع ورقة تلو الأخرى، قصتي، قصة أخرى، قصة شخص ما، وأستمع إلى قصتي أثناء إدخالها، لأنني فجأةً أخشى أن أفقد كل شيء، أخشى السرقة والحريق، النسيان والاختفاء، لأنه لن يكون هناك من يتذكر، ولن يبقى سوى البقايا: أوعية فارغة مغطاة بالزبادي وعلب بلاستيكية تحوي قطعًا من السلطة القديمة.

#1132

لقد أحصيت الأيام، والآن أفكر في ثمار السفرجل تحت الشجيرة بجانب ممر الحديقة، لأن عيد الميلاد سيحلّ قريبًا. بإمكاني العودة وسرد القصة كاملةً من جديد، هذه المرة مع الفصول والرومان. بإمكاني

القول إنني لم أجد مخرجًا من الثامن عشر من نوفمبر. كل ما وجدته هو أوعية، واحدة تلو الأخرى. إن الزمن فضاء، وعاء، وقد سقطت فيه.

لكنني لست متأكدًا على الإطلاق مما إذا كنت أرغب في الهروب من حاويتي. ربما سأبقى هنا. ربما أنا مثل الرومان. ربما بنيتها بنفسي.

1141#

ها قد حلّ العام الجديد مجدداً، لكن الشتاء لم يأتِ بعد. الجوّ مشمسٌ ودافئ، وأنا جالسٌ في فناء منزلي الخلفي على كرسيّ، ولا شيء آخر يُقال. يسود الهدوء في فناء منزلي لأنّ لا أحد يضحك. أحاول، لكنّ كلّ ما يخرج مني هو ضحكة خافتة.

رقم 1144

لا ينبغي لأحد أن يقول إنه لا يوجد ما يُقال، أو أن لا أحد يضحك. إنها التاسعة إلا ربع. أجلس في مقعدي بجوار النافذة في مقهى مولر، ولديّ الكثير لأقوله، والوقت ضيق للغاية، لأن لديّ موعدًا. سأقابل شخصًا ما.

وصلتُ مبكرًا وطلبتُ القهوة. اتفقنا على اللقاء على الطاولة بجانب النافذة في التاسعة، ولديّ ما أقوله. ليس الأمر متعلقًا بالرومان، أو ربما يكون كذلك، ولكنه يتعلق أيضًا بشخص يحمل حقيبة. اسمه هنري ديل، لكنني لم أكن أعرف ذلك. كان هناك الكثير مما لم أكن أعرفه. أنه عالق في يوم من أيام نوفمبر، على سبيل المثال. الثامن عشر منه. وأنني لستُ وحدي.

ألقي نظرة على الساعة. سأعرف قريباً. هل تذكر موعدنا؟ هل حضر؟

لا، الآن. أعرف الآن. أستطيع رؤيته من النافذة. إنه يسير باتجاه مقهى مولر. إنه هنري د.، قادم من هنا، وهناك المزيد لأخبره به، لكن ليس الآن، لأنه يقترب من الباب، لم يرني، لكن الباب يُفتح، ويرن جرس، فأرى أنه هو من يدخل.